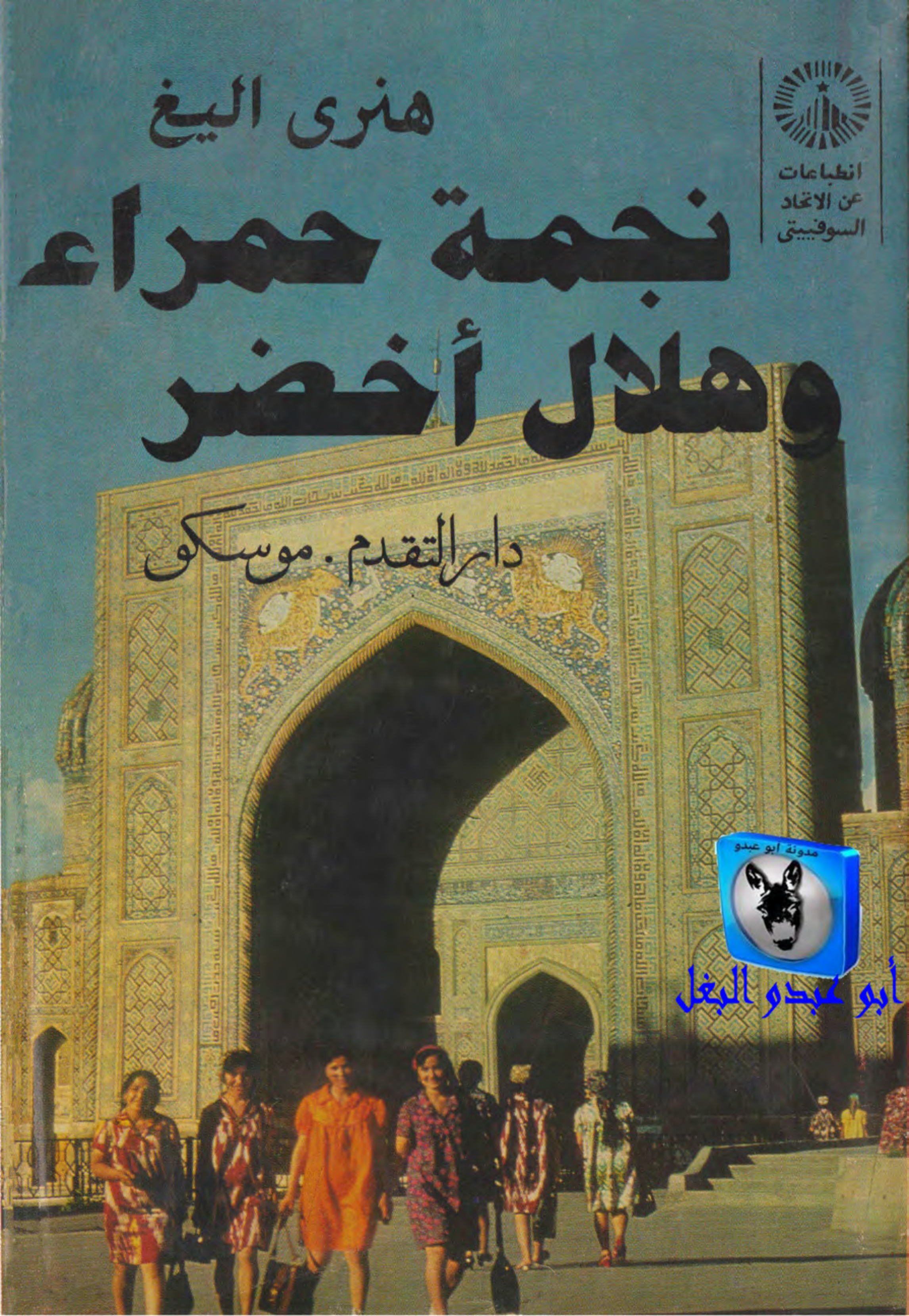


هنري اليغ
نجمة حمراء
وهلال أخضر
انطباعات
عن الاتحاد
السوفييتي
دار التقدم . موسكو
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل

هنري اليغ

نجمة حمراء وهلال أخضر

دار التقدم . موسكو

Анри Аллег

КРАСНАЯ ЗВЕЗДА И ЗЕЛЕНЫЙ ПОЛУМЕСЯЦ

На арабском языке

A $\frac{0802010203-442}{014(01)-88}$ 232—88

ISBN 5-01-000732-0

مقدمة

ارتبطت حياتى على مدى ثلاثين عاما تقريبا بنضال الشعب الجزائرى من اجل التحرر من نير الاستعمار الفرنسى وفى سبيل التقدم الاجتماعى . وعشت مع خيرة ابنائها سنوات طوالا من النضال السياسى القاسى والمجهد ، فى السر والعلن ، وكذلك السنوات التى امضيتها فى اقبية التعذيب والسجون . . . ومع رجال كانت قضية استقلال وطنهم وحريته وسعادته أعزّ من حياتهم نفسها . ولن انسى ما دمت حيا دفء اخوتهم وشهامتهم وبطولتهم الهادئة . كما ستبقى فى ذاكرتى خالدة الى الابد تحية الوداع للمحكوم عليهم بالاعدام الذين مضوا مرددين الاناشيد نحو الجيلوتين عند الفجر المشئوم فى السجن الجزائرى .

واننى افكر بهم حين اكتب هذه السطور ، واليهم اهدى الطبعة العربية لهذا الكتاب . اليهم والى جميع من يواصل اليوم فى اقطار المغرب العربى النضال ضد الامبريالية والرجعية . وبصورة خاصة الى المقاتلين الفلسطينيين الابطال الذين يقاومون ويتصدون للعدوان الاسرائيلى بعد ان شردوا من ارضهم ، وحشروا فى مخيمات اللاجئين الفلسطينيين ، وتعرضوا لقصف الطائرات وللقتل بالجملة كما حدث ذلك فى صبرا وشاتيلا .

وقد يعتقد بعض القراء العرب الذين اجتاحهم اعصار الملمات ، ويصطدمون بالواقع اليومى الخالى من الافراح (وما اقصده لبنان المعذب ، وسورية التى يتهددها العدوان باستمرار ، والعراق المنجر الى حرب دموية ، وكذلك العديد من البلدان الاخرى التى تضطر فيها القوى التقدمية والمعادية للامبريالية الى ممارسة النشاط السرى) ، والذين آمل فى جذب انتباههم هنا ، بان هذا

الكتاب عن تاريخ وتطور جمهوريات الشرق السوفييتي لا يمكن ان تربطه رابطة بمشاكل الشعوب العربية اليوم ، وبالتالي ، فلا توجد له اي قيمة ملموسة . واسمح لنفسي بمعارضة وجهة النظر هذه . ذلك ليس بسبب كوني وقعت في اسر الضعف المميّز للكثيرين ، وارغب في «الدفاع» عن عملي ، بل لانني اعتقد - وقد اقنعتني خبرتي بذلك - انه في اصعب اللحظات ، وفي الاوضاع التي يبدو ان لا مخرج منها ، من الافضل للمرء ان يفكر بالمستقبل قبل كل شيء .

وبالاضافة الى ذلك لان هذا الكتاب يتحدث عن المستقبل . وبالرغم من ان الحديث فيه يدور عن آسيا الوسطى السوفييتية العريقة ، وعن حضارتها التي يرجعها عهدها الى الف عام ، فقد بلغنا من اعماق القرون الغابرة لها ، وما برحت تثير اعجابنا حتى الآن ، العمارات المهيبة في المدن الاسطورية مثل سمرقند وبخارى وخيوا ، كما ترد اسماء مشاهير العلماء والفلكيين والرياضيين والاطباء والشعراء الذين عاشوا هنا ايام زمان ، مثل ابو علي بن سينا وابو الريحان البيروني ومحمد بن موسى الخوارزمي وكثير غيرهم . وحتى بالرغم من انه اعير فيه حيز كبير الى الملاحم الوطنية والثورية للماضي غير البعيد جدا وما زال مترعا بالحيوية ، الملاحم التي ادت الى مولد الجمهوريات وازدهارها غير الاعتيادي اليوم .

نعم ، ان هذا الكتاب يتوجه نحو المستقبل ، لان تاريخ وحياة هذه الجمهوريات اليوم بوسعهما اغناء تأملات جميع الباحثين ، في اقطار المشرق العربي والمناطق المسماة في الغرب باسم بلدان «العالم الثالث» ، عن السبل التي قد تؤمن لوطنهم الاستقلال الحقيقي والطمأنينة والتقدم والازدهار والعدالة الاجتماعية والتفاهم الاخوي المتبادل بين البشر المتباينين في السمات الاثنية والثقافية والمعتقدات الدينية .

وتعتبر هذه الاستقصاءات امرا حيويا جدا اليوم . ان الارقام التي توردها هيئات «رسمية» للغاية (مثل اليونسكو ومنظمة العمل الدولية والبنك الدولي للانشاء والتعمير) تدل بجلاء لا يرحم على وضع البلدان «الضعيفة التطور» او كما يفضل الكثيرون تسميتها ،

بالرغم من بقاء الجوهر ثابتا ، باسم البلدان «النامية» : اذ يعيش على كوكبنا اليوم مليار و٨٠٠ مليون نسمة وراء حافة الفقـــر ، و٨٠٠ مليون انسان - فى وضع «الفقر المطلق» ، ومليار نسمة اما بلا مأوى ، واما يعيشون فى ظروف فظيعـــة ، ومليار و٣٠٠ مليون نسمة بلا مياه شرب جيدة النوعية ، و ١ر٥ مليار نسمة بلا اى علاج طبى . وعلاوة على هذا ، ثمة حوالى ٤٣٠ مليونا - يعانون من نقص التغذية المزمن بينما يتوفى ٤٠ مليون طفل سنويا بسبب قلة الغذاء . وقد عبر عن الارقام الآنفة الذكر احد المؤلفين ، الذى اجرى احصاء غريبا لكنه ذو دلالة ، بالصورة التالية : «لو اكرمنا ذكرى كل من توفى عام ١٩٨٢ بنتيجة عواقب الجوع المباشرة او غير المباشرة بالوقوف دقيقة صمت حدادا عليه ، فاننا كنا سنضطر الى التزام الصمت حتى عام ٢٠٠٠ ولربما حتى بعده» .

اما بصدد الثقافة فان الامور هنا ليست افضل . ففـــى عام ١٩٨٠ كان يوجد بين السكان البالغين فى الكوكب ٨٤٠ مليون امى ، واذا لم تحدث فى العالم تغيرات سياسية واقتصادية عميقة ، فان عددهم سيصل فى مطلع القرن الحادى والعشرين الى مليار واحد . وطبقا لتقديرات اليونسكو نفسها فيمكن القول ان ٤٠ر٣ بالمائة من مجموع سكان بلدان «العالم الثالـــث» لا يحسنـــون القراءة والكتابة . وفى بعض الاقطار العربية مثل العربية السعودية تبلغ نسبة الامية بين السكان ٧٥ بالمائة ، وفى عمان - ٧٦ بالمائة ، وفى الامارات العربية المتحدة - ٧٢ بالمائة ، وتزيد كثيرا عـن هذا المستوى المحزن . وفى الوقت نفسه وطبقـا لمعطيات منظمة العمل العربية فان اكثر من ٨ آلاف اختصاصى من ذوى التعليـــم العالى ، بينهم اطباء وكيميائيون ومهندسون وغيرهـم ، يغادرون بلدانهم سنويا بغية الاستقرار فى الغرب .

ومن عام الى آخر يتدهور اكثر فاكثر وضع بلدان «العالـــم الثالث» بسبب عبء الديون الثقيـــل الى البلدان الرأسماليـــة ، وتسديد فوائد هذه الديون التى تبتلع سنويا المزيد والمزيد من ميزانية الدولة ، وتدهور الوضع الاقتصادى بسبب ازدياد الهوة بين اسعار المواد الخام المصدرة والسلع الصناعية المستوردة . وفى الوقت نفسه تتعرض هذه البلدان الى الضغوط السياسيـــة

والاقتصادية المتزايدة من جانب الشركات المتعددة الجنسيات والامبريالية . واضحت اليوم تحت الضرب حتى العربية السعودية التى اتاحت لها ثرواتها النفطية الطائلة الحصول فى عام ١٩٨١ على ارباح تقدر بمائة مليار دولار : ففى عام ١٩٨٦ بلغت مواردها ٣٠ مليار دولار فقط ، ويعتقد الخبراء انها لن تزيد فى الاعوام القريبة القادمة عن ٢٠-٢٥ مليار دولار . تلكم هى اليوم حصيلة «المعجزة السعودية» ، كما بالغ فى اظهارها انصار «العالم الحر» ، التى اوجدت كافة الظروف من اجل تلبية كافة الطلبات الغالية التكاليف للاقطاعيين الماسكين بدفة السلطة وحاشيتهم التى افسدها الانحلال ، مما ادى الى جعل البلاد حاليا مستنزفة ، وذات بنية اقتصادية شبه اقطاعية ، تتوقف كليا على تصدير النفط ، وترتبط ارتباطا وثيقا بالرأسمال الدولى ومعرضة اكثر الى الحضور العسكرى للامبريالية الامريكية ، التى تمول ، علاوة على الامور الاخرى ، برامج التسلح الضخمة لها بواسطة اموال العربية السعودية .

هل يوجد من درب آخر ؟ نعم ، يوجد . وتعرف هذا الملايين من الناس فى افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية وفى الشرق العربى كله وهى تشن النضال بالرغم من آلاف المصاعب والمخاطر القائمة ، من اجل بلوغ هذا الدرب والمضى فيه . ولا مراء فى عدم وجود «دليل طريق» يمكن ان تلجأ اليه الشعوب لغرض التوصل الى هذا الهدف . كما لا يوجد «موديل» جاهز ، يمكن باتباعه التخلص نهائيا من قيود الامبريالية واكتساب العزة الوطنية مجددا ، والقضاء على التخلف ، وتصفية الجهل والجوع ، وتحقيق حرية الضمير والمساواة بين كافة الاديان ، والعيش بانسجام ووئام . لكن ثمة امثلة واقعية للنجاح ، سوية مع كل ما يرافق حتما اقامة المجتمع الجديد - التجارب والخطوات الاولى ، لكن الشىء الاساسى هو وجود انجازات هائلة وملهمة .

وبودى ان اطلع القارىء على هذه الجمهوريات التى تسعى اكثر ما تسعى الى السلام والاخوة ، وعلى هذا العالم الذى يسوده التفاؤل والامل .

هنرى السّيغ

القسم الاول

الف ليلة وليلة
والف بلية وبلية

ارض وماء وبشر

تطوى الطائرة الكيلومترات اللامتناهية مع الهدير المنتظم للمحركات . وفى الاسفل تنداح على مدى البصر - السهوب ، ومن ثم الصحارى ، المغطاة ببقع بيضاء ضخمة من الاملاح ، تلمع تحت الشمس .

وفى الربيع ترتدى السهوب ، المستوية ، الجافة والقفراء فى هذا الوقت القائظ من العام ، حلة قصيرة الامد من الحشائش وازهار السوسن البرية . ومن العسير الآن تمييزها عن الصحراء المخددة باخاديد جافة هى آثار الانهار التى نضب ماؤها ، وضاعت وسط الرمال منذ غابر الازمنة . وفى هذا النظر الطبيعى المصطبغ بلون الخبز المحمّص ، الذى كانت تبعث الحياة فيه فى زمان ما القوافل ، فتقضى الشهور من اجل بلوغ اطراف الصين ، تلمع كالمرايا صفحة مياه بحر آرال وبحيرة بلخاش - فتبدو غير واقعية فى مملكة القيظ والظمأ هذه .

وحين كانت الطائرة تقترب من عشق آباد وطشقند وسمرقند وبخارى او اية مدينة اخرى ، كان سطح الارض يصطبغ بخضرة ساطعة من النباتات الكثيفة وحقول القطن الممتدة الى ما وراء الافق ، التى تبهج الابصار وتبعث الطمأنينة ، مثل جزيرة تنبجس امام الاعين بعد عبور المحيط .

وبعد التحليق ابعد نحو الجنوب تبدو امام المسافر كتل الجبال الرائعة . فعلى امتداد الطرف الجنوبى للاتحاد السوفييتى - من بحر قزوين وحدود ايران الى حدود افغانستان والصين ، ومن الغرب الى الشرق - تنداح سلاسل جبال كوبيت داغ وبامير وتيان

شان التى يتجاوز ارتفاع قممها ٧٠٠٠ متر . وتتدفق من هذه القمم الى الوديان فى سيول عجيبة انهار تغذيها الثلوج والكتل الجليدية . ويواصل جيحون الذى يتولد من اندماج نهرى وحش وبانج ، اللذين ينبعان من جبال بامير ، مجراه على امتداد ١٤١٥ كيلومترا (تبلغ المسافة من منبع نهر بانج - ٢٥٤٠ كيلومترا) ، مكونا فى نهاية مسيرته دلتا عملاقة فى موضع مصبه فى بحر آرال .

كما يصب فى بحر آرال ، شمالى جيحون ، مجرى مائى عظيم آخر فى آسيا الوسطى هو نهر سيحون الذى ينبع من جبال تيان شان ، ويروى بمياهه وادى فرغانة .

ان صحراء قزل قوم («الرمال الحمراء») تقوم بين النهرين تحدهما المناطق الخضراء ، بينما تمتد وراء جيحون ، نحو الغرب ، صحراء عظيمة هى قره قوم («الرمال السوداء») التى تعادل مساحتها ثلثى مساحة فرنسا (٣٥٠ الف كيلومتر مربع) . ولم تطلق عليها تلك التسمية بسبب لونها ، وانما لانها كانت رمزا للرعب والآلام والارزاء بالنسبة للمسافرين الذين عبروها .

وينحدر من الجبال ايضا نهر زرافشان ، الذى تروى مياهه سمرقند وبخارى . ومعنى اسمه «الذهب الجارى» ، لكن الناس نسوا منذ زمن بعيد ان مياهه كانت تجلب الحبيبات الذهبية فعلا .

بيد ان النهر يجلب معه الآن الخير العميم ايضا ، لانه يسقى على امتداد مجراه مزارع الكروم وبساتين الفواكه ومزارع الخضروات وبالاخص حقول القطن ، الذى تطلق عليه بكافة لغات جمهوريات آسيا الوسطى تسمية «الذهب الابيض» .

وثمة انهار اخرى اصغر تتولد من الثلوج والكتل الجليدية لقمم الجبال هى : نارين الذى يصب فى مجرى سيحون عند فرغانة واتريك الذى يصب فى بحر قزوين على الحدود الايرانية - التركمانية ، وتيدجين ومورغاب اللذان يتوقفان عن الجريان حين تغوص مياههما فى الرمال . وينبع نهر ايلى فى شمال تيان شان حاملا مياهه الى بحيرة بلخاش . ويجرى ارطيش ، الذى ينبع فى التاى ، عبر البرارى الكازاخية للقاء نهر اوب .

ان جمهورية كازاخستان الاشتراكية السوفييتية لا تدخل ضمن

آسيا الوسطى ، بيد انها تشغل مساحة تربو خمسة امثال مساحة فرنسا (٢٧١٧ر٣ الف كيلومتر مربع) . ويمكن ان تشغل مثل هذه المساحة تماما بريطانيا وفرنسا والمانيا الاتحادية واسبانيا وفنلندا والسويد مجتمعة . انها قارة كاملة ! فالمسافة من ضفاف الفولغا وبحر قزوين ، اللذين يحدان كازاخستان من الغرب ، وحتى جبال التالى على الحدود الصينية تعادل قرابة ٣٠٠٠ كيلومتر ، ومن سهول سيبيريا حتى الحدود الشمالية لجمهوريات آسيا الوسطى السوفييتية تعادل ١٥٠٠ كيلومتر . وتضم آسيا الوسطى اوزبكستان (٤٤٧ر٤ الف كيلومتر مربع) وتركمانيا (٤٨٨ر١ الف كيلومتر مربع) وطاجيكستان (١٤٣ر١ الف كيلومتر مربع) وقيرغيزيا (١٩٨ر٥ الف كيلومتر مربع) او ما مجموعه ١٢٧٧ الف كيلومتر مربع .

ويميّز الجغرافيون في هذه المجموعة المتنوعة ، الا انها تكون وحدة طبيعية معينة ، اربع مناطق من الشمال الى الجنوب هي : منطقة السهوب التي تشمل الجزء الشمالى من كازاخستان وصقع الاراضى البكر ، ومنطقة السهول شبه الصحراوية الممتدة في القسم الباقى من الاراضى الكازاخية ، ومنطقة الصحارى ، التى تبلغ حدود الواحات فى الجنوب ، واخيرا ، الحزام الجبلى ، الذى يطوّق الجمهوريات الاربع كلها .

ويرى المسافر السهوب والصحارى المترامية الاطراف ، والجبال الشامخة حتى «قبة السماء» ، لكن قبل كل شيء يرى الخضرة الساحرة والخير العميم حيثما توجد المياه او بالاحرى حيثما ارغمها الانسان على المجيء ، من اجل ان تغطي الارض مزارع لا نهاية لها من شتى اصناف المزروعات وبساتين الفواكه والاشجار الكثيفة وان تبنى المدن والقرى الجديدة فى الاماكن التى بدا انها باقية الى الابد تحت سيطرة الرمال «الحمراء» و«السوداء» .

لكن الارض والمناخ هناك يتطلبان من الانسان بذل عمل مجهد . فالشرق ليس فقط الديار المباركة حيث الربيع الدائم والزهور وطيور الجنة ، كما يتغنى بها الشعراء . ان آسيا الوسطى مشهورة بمناخها القارى القاسى . ففى كازاخستان ، مثلا ، يبلغ الفرق بين درجتي الحرارة المطلقتين شتاءا وصيفا ٩٠ درجة . ويقع بحر آرال في إسار الجليد خلال عدة اشهر في

السنة ، كما هي حال أسافل نهر سيحون . ويسود الزمهرير احيانا في شتاء اوزبكستان حيث يمكن ان تنخفض درجة الحرارة الى ٢٠ وحتى الى ٢٥ درجة تحت الصفر . اما في الصيف فان انفاس المرء تضيق من القيظ اذ تصل درجة الحرارة الى ٤٠ درجة مئوية في الظل .

وتضني المرء خارج الواحات الخضراء حرارة الشمس او الريح ، وفي بعض الاحايين هذه وتلك . ان الرياح الجنوبية الغربية - «الغارمسيل» بالطاجيكية و«الافغاني» بالروسية - الآتية من افغانستان تثير العواصف الترابية التي تتعالى في السماء الى كيلومترات . ووقتذاك لا يرى المرء شيئا على الارض الى مسافة ابعد من ثلاثة امتار .

لا توجد عقبات امام الرمال - اذ انها تغمر المزارع والاشجار والبيوت والطرق وخطوط السكك الحديدية . وكان الانسان هنا يكافح الصحاري والرياح والرمال على مدى القرون . وتوجد لمعهد الصحاري التابع لاكاديمية علوم جمهورية تركمانيا «محمية رملية» في صحراء قره قوم في مكان يبعد ٧٠ كيلومترا عن مدينة تشاردجو . وتبلغ مساحة المحمية ٣٥ الف هكتار مع محطة ريبيتيك العلمية الواقعة في مركزها . وتدرس هناك الظواهر الطبيعية المتعلقة بحياة الصحراء وحيواناتها ونباتاتها القليلة . ومن ذلك تدرس فيها شجرة الساكساول ، وهي شجرة عجيبة وغريبة تنمو من الكثبان الرملية مباشرة ، وتخلو من الاوراق بالمعنى المألوف للكلمة ، ويشبه جذعها واغصانها الهيكل العظمي . بيد ان «شجرة الصحراء» الجافة والرفيعة والملتوية مثل هيكل معدني محترق وملفوف ذات منفعة بالغة . فهي تجعل الرمال متماسكة بصورة فعالة حيثما يتسنى لها ان تنمو .

ان الرياح الشتوية في كازاخستان تثير ايضا سحابات كبيرة من التراب مما يعمي الابصار . وجرت العادة في وقت ما في اطراف المناجم ومصانع صهر النحاس بالقرب من بلخاش اطلاق صفير كل ١٠-١٥ دقيقة حين تسوء حالة الطقس ، بغية مساعدة الناس لكي لا يضلوا الطريق .

ان هذه الارض التي تتطلب من الانسان العمل باستمرار

تشهد ايضا وقوع كوارث : فغالبا ما تحدث فيها الزلازل . ولعل افظعها تلك التى جرت فى زماننا عام ١٩٤٨ ودمرت عشق آباد ، وعام ١٩٦٦ فالحقت الخراب بطشقند . ان المياه التى «تعادل قيمة كل قطرة منها الماس» ، كما يقول المثل الذى غالبا ما يردد فى الواحات وكذلك فى الصحراء - هى رفيقة ذات نزوات بل واحيانا رفيقة خطرة . فكان يحدث ان يغير مجراه سيحون وجيحون او بانج ، الذى يجرى على امتداد الحدود الافغانية ، على حين فجأة تغييرا حادا . وقد يحدث ان تبقى من الموضع الذى كان يجرى فيه النهر يوم امس الرمال المبللة فقط من المجرى السابق ، بينما يشق النهر معبرا جديدا له ، يبعد احيانا عن المجرى السابق بمئات الامتار وحتى ببضعة كيلومترات .

ويعرف التاريخ امثلة اخرى اكثر غرابة . وهذه المرة التاريخ البعيد جدا . فمثلا ان الوادى الميت اوزبوى بين دلتا جيحون وبحر قزوين ، الذى اصبح اشبه بعرق ملحى هائل يبلغ سمكه اربعة امتار ، عبارة عن مجرى رافد سابق كان يتدفق فيه فى غابر الازمان جزء من مياه جيحون نحو بحر قزوين . ويصف الباحث الجغرافى الاغريقى سترابون (عام ٦٣ ق . م . -٢٤ ب . م .) بين امور اخرى الملاحة فى نهر اوكسوس (الاسم اللاتينى القديم لنهر جيحون) ، الذى كان بوسع المراكب المضى فيه حتى بحر قزوين .

ان السماء فى آسيا الوسطى نادرا ما تجود بالمياه . ووجب دوما ، وكذلك الآن ، الكفاح باستمرار من اجل ايجادها والمحافظة عليها والاستفادة منها .

موضع التقاء الفرس والاغريق والعرب والمغول-التتر وغيرهم

احتفلت سمرقند احدى المدن الكبرى فى اوزبكستان فى عام ١٩٧٠ بذكرى مرور ٢٥٠٠ عام على تأسيسها . وبهذه المناسبة بيعت فى كافة الاسواق الكولخوزية هناك كعكات شهية نقشت على قشرتها الذهبية المطيّبة بالتوابل عبارات تحيي الذكرى المشهودة .

وسمرقند ليست المدينة الوحيدة فى آسيا الوسطى التى تضيع

ذكرى تأسيسها فى دياجير الازمان السحيقة . اذ ترجع الى فترة الفى عام تقريبا ايام تأسيس مدن بخارى وطشقند ومرو وخيوا ايضا .

فى الفترة من القرن السادس الى القرن الرابع قبل الميلاد بسط ملوك الفرس من سلالة الاخمينيين سلطانهم على المنطقة الممتدة من بحر ايجه الى نهر السند وتضمنت آسيا الوسطى ، وكذلك قسما من الاقاليم الجنوبية لكازاخستان الحالية . وامتدت وراءها اراضى قبائل السهوب – جلّهم من البدو الرحل الذين اطلق الاغريق عليهم تسمية الاسقوثيين . وشاع الاعتقاد بان غزوات الاسكندر الاكبر (عام ٣٥٦ – ٣٢٣ ق . م .) قد فتحت بالذات اعماق آسيا ، من بحر قزوين الى الهند ، وبفضل ذلك اقيمت اولى الصلات الثقافية والتجارية بين عالم منطقة البحر الابيض المتوسط والشرق .

وانقسمت الامبراطورية العظيمة التى اسسها الاسكندر فيما بعد الى ثلاث دول كبيرة ، كانت احداها المملكة اليونانية – الباكترييانية (عام ٢٥٠ – ١٤٠ ق . م .) – تشغل قسما من آسيا الوسطى السوفييتية الحالية وايران وافغانستان والهند . وهذا الحضور اليونانى قد وفر طبعا امكانيات اوسع للاختلاط بين الشرق والغرب . وازداد عندئذ التأثير المتبادل ، بيد ان من الخطأ الاعتقاد بان هذه العلاقات بدأت بالنشوء فقط بعد فتوحات المقدونى . فان آسيا الوسطى الواقعة بين عالم منطقة البحر الابيض المتوسط والامبراطورية الرومانية فى الغرب ، والهند ،والصين فى الشرق ، والفولغا وسيبيريا فى الشمال ، وبلاد فارس وشبه الجزيرة العربية فى الجنوب ، كانت دائما فى ملتقى الطرق التجارية الكبرى والحضارات والثقافات .

وكانت تمضى من سواحل البحر الابيض المتوسط الى مارى ومنها عبر سمرقند وقوقند قوافل جمال لا نهاية لها عبر ممرات بامير او على السفوح الشمالية لجبال تيان شان متجهة الى الصين . وتعود فى الاتجاه المعاكس فى الطريق نفسها . وكان اباطرة الصين يحصلون على الجياد من اجل خيالتهم من فرغانة . ونحن مدينون الى احد مبعوثى الاباطرة الصينيين فى الاطلاع على اقدم وصف لمدينة فرغانة . وكان قد زارها فى القرن الثانى قبل الميلاد . وكتب فى

تقريره انه شاهد مدنا عامرة وبساتين فخمة وانه كانت تزرع فى الاراضى المروية الحنطة والرز والصفصفة والكروم .

كان القليل جدا من القوافل يقطع الطريق دفعة واحدة . وكانت تقوم على الطريق النزل (كارافان - ساراى) ، وكان التجار يتوقفون فيها لنيل قسطهم من الراحة ، ومن ثم يشرعون فى اجراء الصفقات التجارية . وتجلب من الشرق الى الغرب سلع الترف ، وبصورة اساسية الحرير والتوابل (ومن هنا جاءت التسميات مثل «طريق الحرير» و«طريق التوابل») ، بينما تنقل فى الاتجاه المعاكس الانسجة والمرجان وقطع النقود الذهبية والفضية .

كما كان يتوافد من سورية واليونان وشبه الجزيرة العربية وفارس والهند والصين الرحالة والتجار والجند فى سيل لا ينقطع . وتلاقت هناك الحضارات والاديان المختلفة وتمازجت وحلت احداها محل الاخرى : فقد استقر المقام هناك بارباب اليونان ، وبالمازدية (المجوسية) ، دين الفرس ، الذين لا مراء فى ان نبيهم زرادشت قد ولد فى بلاد مارى (باكتريانا) ، والبوذية التى نشأت فى شمال الهند واليهودية والمسيحية النسطورية - وظلت كلها لحين ظهور موجة الاسلام العاتية العاصفة . ورفد هذا التراث من اكبر حضارات العصر مكانة بالرصيد الاصيل للبدو الرحل ابناء السهوب فلم يكونوا فقط من الغزاة والمخربين ، كما يجرى وصفهم فى غالب الاحيان ، بل وكانوا ايضا شركاء اقتصاديين للمدن .

وفى اواسط القرن الرابع زحف البدو الرحل رعاة الماشية ، الذين كونوا تحالفات قبلية واسعة ، من المناطق المتاخمة لجبال الاورال متجهين نحو الغرب ، وبهذا اكسبوا دفعة الى ما يسمى الهجرة الكبرى للشعوب ووصلوا فى عام ٤٥١ (بقيادة آتيلا) الى بلاد الغال . وفى فترة لاحقة ، فى القرن الخامس ، غزت قبائل قريبة لها آسيا الوسطى قادمة من شرقى ايران وافغانستان . وكانت قوات فرسانهم الغفيرة والسريعة ذات القوة الضاربة الخارقة تكتسح فى طريقها اية جيوش ، وتدمر المدن والقرى ، وتسحق امبراطوريات كاملة . وكان اسم الهون (HUNS) وحده كفيلا باثارة الرعب لدى ابناء البلدان التى يهاجمونها . وهذه الشعوب ، التى انتقلت جزئيا الى نمط الحياة المستقرة وامتزجت بابناء البلدان التى غزتها ، قد

تركت اثرا عميقا فى آسيا الوسطى وجنوب كازاخستان . ويبدو ان هذا يمثل سبب تنوع الاعراق (الانماط الانثروبولوجية) التى يمكن ان نجدها هناك اليوم - من العـــرق الهندى الاوربى الى العـــرق المغولانى .

وفى القرن الثامن ظهر العرب فى سغد * وخوارزم تحت راية الاسلام . وكانوا قد انجزوا فى فترة خمسة عشر عاما فتح بـــلاد الرافدين وفلسطين وليبيا ، وانتزعوا من الامبراطورية البيزنطيـة اغنى مقاطعتين فيها ، هما سورية ومصر ، وقضوا على مملكـــة الساسانيين الفارسية . وفى اثناء زحفهم الثانى نحو الغرب بلغوا فى عام ٦٧٠ مدينة القيروان . ثم فتحوا المغرب ، وبعد ذلـــك استولوا على اسبانيا والبرتغال . وتم الاستيلاء على قرطبة ولشبونة فى عام ٧١١ . وعندما حل عام ٧٢١ كان العرب قد وصلوا مشارف تولوز .

اما فى الشرق فانهم بلغوا نهر السند الذى صار بمثابة الحـد لامبراطوريتهم على غـــرار المحيط الاطلسى فى الغرب . لكن الدين الاسلامى واصل انتشاره الى مناطق اكبر . ان غزو آسيا الوسطى قد تطلب من المبعوثين المسلحين للنبى وقتا اكثر وجهدا اكبـــر بكثير مما تطلبه الاستيلاء على تلك الاقطار التى استقبلوا فيهـــا كفاتحين ، الامر الذى كان غالبا ما يحدث فى شمال افريقيا واسبانيا . فبينما جرى غزو ايران فى عهد الساسانيين خلال فترة ١٥ عاما (اعوام ٦٣٥-٦٥١م) ، استمرت المقاومة فى آسيا الوسطى فترة تربو على نصف قرن - اذ تم الاستيلاء على بخارى وسمرقند بعـد مضى ٦٠ عاما على ذلك .

وعلى عكس ما جرى فى شمال افريقيا ، حيث اصطدم التغلغل العربى بمقاومة قبائل البربر الا انه فى نهاية المطاف لم يترك فى ذاكرة الشعب سوى مشاعر الخلاص الطيب ، بقيت فى آسيا الوسطى

---

* سغد (سغداليا) - مقاطعة قديمة بآسيا الوسطى تقع فى حوض نهرى زارافشان وكاشكاداريا (فى اراضى اوزبكستان وقسم من طاجيكستان حاليا) . والمدينة الرئيسية فى سغد هى مرقنده (حاليا تتمثل فى مدينة صغيرة اسمها افراسياب بالقرب من سمرقند) . - **ملاحظة المحرر** .

على مرور الازمان ذكريات المعارك العنيفة ضد الغزاة واعمال القمع الرهيب التى ساموها للاهالى المحليين ، بغية تحطيم مقاومتهم غير المتوقعة . وقد وصف اعمال القتل والنهب والتخريب باستنكار بالغ المؤرخ وعالم الفلك والرياضى الشهير البيرونى ، الذى ولد فى خوارزم فى نهاية القرن العاشر . وذكر ان قائد الجيوش العربية امر باعدام كافة العلماء الذين كانوا يعرفون تاريخ بلادهم ، بغية ان يغدو من المستحيل دراسة فترة ما قبل الاسلام . وهذا العنف الدموى يتناقض مع السلوك المعهود للفاتحين العرب . ولا مراء فى انهم لقوا هناك مجتمعا لم يتضرر من عواقب انحلال الامبراطورية الرومانية ، وحافظ على تصوره الرفيع جدا عن قيمه نفسه ، وبالتالى ، لم يكن مستعدا باى حال من الاحوال لتقبل الغزو الاجنبى باعتباره خيرا انعمت به السماء عليه .

كما ان اللغة العربية التى غدت عهد ذاك اللغة المعترف بها فى الاقاليم الغربية (من المغرب الى العراق) لم تحل فى ايران ولا فى آسيا الوسطى محل اللهجات الايرانية والاتراكية التى يتحدثون بها هناك . ومن الطبيعى ان تصبح لغة النبى لغة الدين والسلطة والفنانين والناس المتعلمين ، لكنها لم تصبح ابدا لغة الجماهير الشعبية ، رغم اعتناقها الاسلام بسرعة بالغة . وعلى الضد من الفظائع الشديدة لفترة الفتوحات فان الهداية الاسلامية ابدت تسامحا ازاء وجود الاديان الاخرى : الزرادشتية والشامانية واليهودية والمسيحية . وهكذا بقيت الاسقفيات فى سمرقند ومارى (مرو) وهرات (افغانستان) حتى عام ١٤٠٥ م .

ان الامبراطورية العربية التى ضمت اكثر البلدان تقدما فى ذلك العهد ، وامنت فيها السلام والطمأنينة ، قد اتاحت زيادة النشاط فى الطرق التجارية التقليدية التى بمرورها عبر آسيا الوسطى تربط ما بين الشرق والغرب .

كما تطورت العلاقات مع روسيا واسكندنافيا . وبفضل الطريق من «الورنك الى الاغريق» الممتدة من نوفغورود الى بيزنطيا اتيحت لتجار آسيا الوسطى الفرصة للمتاجرة مع اهالى الشمال . وفى آسيا الوسطى شارك الصنّاع من جميع ارجاء الامبراطورية العربية فى استثمار خامات الحديد والرصاص والنحاس التى اكتشفت هناك .

وفى الفترة ذاتها ازدهرت الفنون والعلوم بشكل لا نظير له . وولد فى اقاليم سمرقند وبخارى وخيـــوا - حيث تـــوجد الآن اراضى اوزبكستان - كبار رجالات ما يسمى فى الغرب عادة باسم «الحضارة العربية» . لكن هذه التسمية غير واردة هنا . ولئن قدم العرب ، فعلا ، الكثير ، فانهم تلقوا الكثير ايضا من الشعوب الخاضعة لهم التى كانت تتمتع بحضارة رفيعة جدا وقديمة جدا . ويمكـــن ان نضيف الى هذا القول شيئا آخر : فاذا ما كانت اللغة العربية فـــى خلال حقبة طويلة من الزمن لغة الحضارة من المحيط الاطلسى الى الهند - كشأن اللغة اللاتينية بالنسبة للناس المتعلمين فى الغرب - الا ان عددا كبيرا من الفلاسفة وعلماء الفلك والرياضيـــات والجغرافية ، الذين تنسبهم المعاجم الى فئة «العلماء العرب العظام» ، هم فى الاصل من ابناء الشعوب التى تقطن انسالها اليوم فى آسيا الوسطى السوفييتية وايران وافغانستان .

ويرجع العصر الذهبى لهذا الازدهار الفكرى الى عهد دولـــة السامانيين (فترة ٨٧٥ - ٩٩٩ م) التى كانت عاصمتها بخارى ، وشملت آسيا الوسطى وقسما من ايران وافغانستان . وفى ايام حكم السامانيين بالذات كان كبار رجالات الثقافة ، مثل الشاعـر روداكى والفيلسوف الفارابى ، يكتبون باللغة الفارسية ، دون ان يكونوا عندئذ ، وما زالوا حتى الآن يعتبرون ، من «المؤلفيـــن الفرس» . وبقيت اللغة العربية الى جانب الفارسية لغة العلماء .

وتلمع من بين مفكرى الشرق فى القرنين العاشر والحادى عشر شخصية توضع فى مصاف مشاهير الرجال فى التاريخ العالمى كله . والمقصود هو ابو على حسين ابن عبد الله ابن سينا الذى اطلق عليه معاصروه لقب «الشيخ الرئيس» ، وكذلك «امير الاطباء» . وقد ولد هذا الفيلسوف والمنظّر فى الطب وعالم الفلك والشاعـــر والموسيقى فى عام ٩٨٠م بمدينة اقشنة قرب بخارى . وكان ابن سينا منذ فتوته يذهل المحيطين بـــه بذكائه الفطرى وذاكرتـــه العجيبة . وفتحت مواهبه فـــى الطب ابواب قصر حاكم بخـــارى السامانى . وتولى علاج الامير واشفاه وحصل على حق الاستفادة من مكتبته التى ذاع صيتها فى الشرق مثلما ذاع صيت مكتبة شيراز فى بلاد فارس . ويقال ان الناس ، حين التهمت النيران مكتبـة

بخاری ، راح يطمئن احدهم الآخر بقوله : «ان معبد الحكمة قد نجا من الهلاك ، اذ انتقل الى رأس الشيخ الرئيس . . .» .
عاش ابن سينا فترة سبعة وخمسين عاما (٩٨٠ - ١٠٣٧ م) وكان يكتب ويملى فى كل يوم بمعدل خمسين صفحة ، واحيانا فى ظروف غريبة جدا . وبلغنا مائة وستون مؤلفا له ، لكن المعروف انه كتب اربعمائة وستة وخمسين كتابا باللغة العربية وثلاثة وعشرين كتابا باللغة الفارسية . وكتابه الرئيسى - «القانون فى الطب» - عبارة عن مجموعة موسوعية تأتلف فيها كافة المعارف الطبية لذلك العصر . ويحتل افضل مكانة مرموقة فيه تراث العلماء اليونانيين والفرس والعرب والهنود . ويمكن ان يجد فيها المرء بين امور اخرى معطيات دقيقة عن الابحاث بخصوص العين والقلب والامراض الخطرة مثل التهاب السحايا والسكتة والتيفوس وذات الجنب . . . الخ . وطرح ابن سينا الذى كان يتمتع بفطنة خارقة فرضية عن وجود كائنات غير مرئية تنقل بعض الامراض المعدية . وترجم «القانون» الى اللغات الاخرى ثمانى وثمانين مرة . واعتمد خلال قرون كثيرة بصفته الكتاب الاساسى لدراسة الطب فى جامعات اوربا .
لقد اكد ابن سينا على الجوانب الواقعية لافكار ارسطو واثر تأثيرا بالغا على تطور الفكر الاوربى الذى كافح ضد تسلط النزعة السكولاستية على عتبة عصر النهضة .
اما ابن عصره ابو الريحان محمد ابن احمد البيرونى (٩٧٣ - ١٠٤٨ م) - فهو شخصية مرموقة اخرى فى تاريخ آسيا الوسطى . وولد البيرونى فى ضواحى كياتا العاصمة السابقة لخوارزم ، وسرعان ما ذاع صيته خارج حدود بلاده والشرق باسره . واعماله مكرسة للرياضيات وعلم الفلك والهندسة والصيدلة والتاريخ . وكان احد اوائل (قبل كوبرنيك) الذين وصفوا المنظومة الشمسية ، انطلاقا من مبدأ مركزية الشمس ودوران الارض حولها . ومع ذلك فان اسمه غير معروف كثيرا لدى جمهور غربى واسع . بينما كان البيرونى فى العصور الوسيطة رمزا لاسمى آيات العلم .
كما شاع اسم الرياضى والعالم الفلكى الاوزبكى محمد بن موسى الخوارزمى المولود فى خيوا ، وعاش فى القرن التاسع ، لكن

من ثم طواه النسيان ايضا . بيد ان اعماله فى الرياضيات واكتشافاته كان لها صدى فى العالم العلمى ، مما جعل لقبه يتخذ كاساس فى اشتقاق التسمية اللاتينية .(algorithm) . ومبحث الخوارزمى «كتاب الجبر والمقابلة» اعتمد فى خلال فترة طويلة كمرجع اساسى فى الجبر فى بلدان اوربا . واستنبطت كلمة «الجبر» الحديثة من قسم الرياضيات الذى ارسى اسسه بنفسه .

وكان من كوكبة العباقرة هؤلاء ابو النصر محمد ابن طرخان الفارابى (٨٧٠-٩٦٠ م) ، الذى كان يعتبر حتى ابن سينا من اعظم الفلاسفة واثر فيه تأثيرا كبيرا . وقد ترجم ارسطو فلم يفسر مؤلفاته فحسب بل واستحدث منهجا فلسفيا خاصا به ، اعتمد كاساس له اقران الارسطوطاليسية بالتعاليم الافلاطونية الجديدة حول الانبعاث .(Emanation) . والف العديد من المصنفات فى الاجتماع والاخلاق وكذلك «الرسالة الكبرى فى الموسيقى» - ويعد اهم مصدر للمعلومات عن الموسيقى الشرقية والمنهج الموسيقى اليونانى القديم .

هذه الاسماء غيض من فيض اسماء المفكرين والعلماء ابناء آسيا الوسطى الذين اسهموا برصيد قيّم فى الحضارة العالمية . ولا ضرورة لتعدادهم جميعا ونكتفى فقط بالتنويه بانهم تركوا لشعوبها تراثا ثقافيا عظيما .

لقد شهدت فترة القرون الـ١٠ - ١٢ ظهور سلالات اتراكية جديدة . ومنها سلالة الغزنويين الذين قامت دولتهم فى عام ٩٦٢م على يد القائد السامانى الب - طيغين ، الذى اعلن نفسه حاكما مستقلا لمدينة غزنى (فى جنوب شرقى افغانستان) . وازدهرت هذه الدولة فى عهد محمود الغزنوى (٩٩٨ - ١٠٣٠ م) والسلجوقيين (عاش زعيمهم سلجوق فى القرن العاشر وبداية القرن الحادى عشر) . واستقر بهم المقام بوادى سيحون فى بادئ الامر ، وحصلوا من دولة الغزنويين على اقطاعيات من الاراضى فى خراسان ، ثم انتفضوا عليهم . وبعد انتصارهم بلغت سلالة السلجوقيين جبروتها فى اواخر القرن الحادى عشر ، حين تحققت سيادتهم الكاملة ، بنشرهم سلطانهم ليس فقط على قسم كبير من آسيا الوسطى بل وعلى ايران واذربيجان وكردستان والعراق وسورية وفلسطين وآسيا الصغرى

وارمينيا وجورجيا ايضا . وبمرور الزمن دبّ الضعف فى دولـــة السلجوقيين . فتشرذمت الى سلطنات ، وطفقت تضمحل تحت ضغط هجمات القره ختاى وغيرها من القبائل الاتراكية – المنغولية . وفى الفترة ذاتها تقريبا ، وبعد ان تأسست دولة يترأسها جنكيز خان ، بدأت الغزوات المنغولية . وفى اعـوام ١٢٠٧ – ١٢١١ خضعت لسيطرة المغول شعوب سيبيريا وتركستان الشرقية . وفى عـام ١٢١٩ اقتحمت قوات المغول بقيادة جنكيز خان آسيا الوسطى . فاحتلت فصائل المغول اوترار وخودجنت واورغانج وغيرها مـــن المدن . واستسلمت بخارى وسمرقند بدون قتال . واختتم غزو آسيا الوسطى فى عام ١٢٢١ بالاستيلاء على خوارزم . وبعد مضى اربعين عاما بسطت الامبراطورية المغولية سلطانها على مساحـات شاسعة الاطراف تمتد من كوريا الى اوربـــا . وتضمنت الى جانب آسيا الوسطى وايران وما وراء القفقاس والقرم قسما من الصيـــن وروسيا والشرق الاوسط لحد الفرات . كما سحقت قوات فرسان المغول الخلافة العربية . فاستولى المغول على عاصمتها بغداد (عام ١٢٥٨) فنهبوها واعدموا الخليفة امير المؤمنين .

وبعد وفاة جنكيز خان تم تنفيذا لاوامر الغازى العظيم تقسيم ممتلكاته بين اخلافه . فتولى حفيده باطو حكم دولة «الاوردـــــة الذهبية» ، التى شملت جنوب ووسط روسيا . واصبح احد اولاده – جغتاى – اول خان مغولى – حاكم آسيا الوسطى . وترك المغول فى البلدان التى خربتها قواتهم ذكريات مرعبة عن الدمار والمذابح الدامية الى ما لا نهاية له . لكن نظرا لقلة عددهم كانوا يضطرون باستمرار لرفد فصائلهم العسكرية بابناء الاهالى المحليين . لذلك سرعان ما اصبح عدد الجنود ذوى الاصل الاتراكى اكثر من المغول فى جيش جنكيز خان .

ما كان بوسع بدو السهوب ، الفرسان الممتازين والمقاتلين الاشداء ، تعليم اى شىء للشعوب الخاضعة لسيطرتهم التى كانت تتمتع بحضارة عريقة . ويعزى الى هذا بالذات انه رغم الدمـــار العظيم والمذابح الجماعية والخراب فـــى كل مكان كان المهزومون بالذات ، بعد نهوضهم من الانقاض ، يفرضون على المنتصرين فـــى نهاية المطاف عاداتهم وثقافتهم ودينهم .

وفى نهاية القرن الرابع عشر انهارت الامبراطورية التى اسسها جنكيز خان وورثته . وعمل كاداة لهذا الانهيار امير مغولى - اتراكى من قبيلة بارلاص المغولية التى سيطر عليها الاتراكيون ، ويقال ان احد اسلافها الامبراطور المغولى الاول ، واسمه تيمورلنك (اى تيمور الاعرج) ، كان مثل اسم جنكيز خان ، يثير الرعب لدى الشعوب التى وجه ضدها قوات فرسانه الرهيبة . وفى خلال خمسة وثلاثين عاما - اعتبارا من ١٣٧٠ ، حين تخلص تيمور من منافسيه ، اعلن نفسه اميرا لبلاد ما وراء النهر وصار يحكم لوحده باسم احفاد جنكيز خان ، وحتى عام ١٤٠٥ ، حين وافته المنية - عمل على استعادة الامبراطورية المنغولية السابقة ، لكن تحت سلطته . واسفرت حملاته العسكرية المتواصلة عن بسط سلطانه على مناطق تمتد من الهند الى الفولغا ومن سورية الى الصين . ووافاه الاجل المحتوم عن عمر يناهز السبعين ، حين كان عائدا من حملة مدمرة خرّب فيها تماما انقرة ودمشق وبغداد ، وبدأ يستعد لقيادة حملته على الصين التى بوشر بها فى عام ١٤٠٤ .

عندما يتحدث المؤرخون عن فترة حكم تيمورلنك يصفون بالدرجة الاولى اعمال القتل الرهيبة والسطو الدموى التى اقترنت باسمه : المدن التى محيت من وجه الارض ، والقرى المحترقة ، والاهالى الذين ساقهم المنتصرون وحولوهم الى عبيد او قطعوا رؤوسهم . وستبقى فترة طويلة ذكرى آلاف الرؤوس المقطوعة التى كان يأمر بوضعها بشكل اهرامات امام بوابات المدن وفى الدروب لكى يبث الرعب فى قلوب اعدائه حين يتلفظ اسمه . لكن لا بد من القول بان العادات الوحشية لم يكن يتصف بها فى تلك الازمان مقاتلو تيمور فقط ، وسيكون من الاجحاف تناول هذا الجانب فحسب من شخصيته . فقد كان تيمور لنك ايضا ، على العكس من جنكيز خان القائد العسكرى والسياسى الذى شاغله الوحيد المعارك والانتصارات ، رجلا متعلما ومحبا للفنون ، اعتنى بتحويل عاصمته - سمرقند - الى مدينة عظيمة وجميلة جديرة بامبراطوريته .

وهكذا ، فبعد ان اخضع دمشق وغيرها من المدن ذات الحضارة الرفيعة ، اجبر على الانتقال منها الى سمرقند آلاف الفنانين والمعماريين ومختلف الحرفيين الذين عملوا على تزيين العاصمة

وغيرها من مدن امبراطورية تيمور تزيينا رائعا . ومما يدل على عظمة الماضي حتى يومنا هذا وجود القبب المغطاة بالمايوليك والفسيفساء اللازوردي ، التي تتألق في سماء سمرقند وخيوا وبخاري ، وجدران المساجد والمدارس المزخرفة مثل الدنتلا . وتنتصب في سمرقند حتى اليوم الخرائب العملاقة لمسجد بيبي-خانم الذي يحمل اسم زوجة تيمور . وهذا البناء العملاق المؤلف لا من مسجد واحد بل من مجمع كبير من المساجد المرتبطة ببعضها البعض بواسطة اروقة ، يسندها اربعمائة عمود من المرمر . والمسجد الذي قرر تيمورلنك تشييده بمناسبة انتصاراته في الهند قد بني على عجل جدا وتعرض بشدة لتأثيرات الزمن المدمرة ، وبالاحرى ، للزلازل الكثيرة في هذه المنطقة . لكن في عام ١٤٠٤ حين انجز تشييده كان يعتبر اضخم بناء شيد في الامبراطورية في اي وقت من الاوقات . وكتب احد الشعراء عنه : «كانت قبته الوحيدة من نوعها ، لو لم تضارعها السماء ، اما قوسه فكان الوحيد من نوعه لو لم يضارعه برج درب التبانة» .

وبالروح ذاتها شرع اخلاف تيمور بتزيين سمرقند وبخاري بآثار اخرى لا تقل روعة . وتنفيذا لقرار السلطات تجري في اوزبكستان السوفييتية الآن اعمال هائلة بغية صيانة هذه الآثار وكذلك ترميمها .

وبرز من سلالة التيموريين اولغ بيك (١٣٩٤ - ١٤٤٩ م) كحاكم يختلف عن الآخرين . وعرف حفيد الغازي العظيم ليس بصفته بانيا (وتدين له سمرقند وبخاري بالعديد من المساجد والمدارس) ، بل وكشاعر وعالم متعدد الاهتمامات - فقد كان عالم رياضيات ومؤرخا وقبل كل شيء عالم فلك عبقريا . واحاط نفسه بكوكبة من العلماء ، وعمل حتى وفاته في مرصده النادر المثال ، الذي شيد بامر منه فوق قمة تل يبعد قرابة ثمانية كيلومترات عن سمرقند .

وبعد اولغ بيك تواصل حكم التيموريين زهاء خمسين عاما . وتألق في بلاطهم رجال علم وكتّاب وشعراء آخرون اشهرهم على شير نوائي (١٤٤١ - ١٥٠١ م) ، الذي يعتبره الاوزبكيون وغيرهم من ابناء الشعوب الاتراكية مؤسس ادبهم . ان قصائد علي شير نوائي ، وبالاخص «فرهاد وشيرين» التي تروي قصة عشق المارد

فرهاد الشديد للحسناء الارمنية شيرين ، تعتبر من كنوز الرصيد الذهبي للادب الكلاسيكي فى آسيا الوسطى . ان ما تتصف به هذه الاشعار من رهافة ، وموسيقى الايقاع فيها ، التى سحرت قلوب معاصريها ، تختلج لها اليوم ايضا افئدة الاوزبكيين . وهم يقولون انه لم يوجد من لقب مستعار افضل من لقبه – «نوائى» ومعناه «المتناغم» .

لكن اشعار نوائى لا تنطوى فقط على الموسيقى الشرقية الباعثة على اعظم سحر . ففى الاستعارات الشعرية بصدد وحدة العاشقين يتحسس وجود نبرات تعاطف مع آلام الانسان القريب ، والنفور من التعسف والطغيان واستغلال البشر . ومفهوم السبب الذى يجعل ابناء اوزبكستان السوفييتية يثمنون نوائى وتراثه ، وبعد مضى خمسة قرون ، مثل هذا التثمين الرفيع ويتحسسون الوحدة الروحية التى تربطهم بهذا الشاعر القومى العظيم .

توفى على شير نوائى بعد عام من سقوط سلالة التيموريين (عام ١٥٠٠ م) . ووجه الشيبانى خان زعيم العشيرة الاوزبكية آخر ضربة الى دولة آخر خلف لتيمورلنك ، الدولة التى تضعضعت اركانها بشدة آنذاك . وتفاقم الانهيار بقدر اكبر خلال مائة عام من سيطرة الشيبانيين (١٥٠٠ – ١٥٩٨ م) . وتكونت بدلا من الدولة الموحدة امارات متنافسة مستقلة تقريبا ، تخوض بين بعضها البعض حروب استنزاف تهدف الى سلب الاراضى والضياع من احداها الاخرى ، كما كان يفعل الدوقات والكونتات والماركيزات فى اوربا الاقطاعية . وقد اثر عدم الاستقرار السياسى على التجارة والحرف اللتين اصابهما الركود ، بينما اشتد الفقر فى القرى ، وتناقص اكثر فاكثر عدد القوافل المارة فى طرق نقل الحرير والتوابل . واعقب الركود الاقتصادى ضمور وانهيار الثقافة والعلوم .

حين قررت روسيا القيصرية فى القرن التاسع عشر نشر نفوذها الى حدود آسيا الوسطى وفارس ، التى كانت الامبريالية البريطانية تزحف اليها من الهند ، لم تجد امامها اية قوة قادرة على ابداء مقاومة جدية .

لقد طرح الركود ، ومن ثم الانحطاط التاريخى للمنطقة التى كانت تقف ابان فترة طويلة جدا فى طليعة التقدم البشرى ، عدة

اسئلة .كيف امكن ان تصل الى مثل هذا الانحطاط الشديد بوتقة اروع الحضارات ، وحلقة الوصل التقليدية بين الشرق والغرب ، التى بفضلها عرفت اوربا مثل تلك الاختراعات الهامة كالحرير والورق والبارود والخزف ؟ وكيف امكن لدول جبارة كانت تنتج نفسهــا وتكدس لديها الثروات الخيالية المسلوبة من الآخرين ، ان تتضعضع بهذا القدر ، بحيث اصبحت فى القرن التاسع عشر لا تشكل سوى خليط من الامارات المنعزلة ، الغارقة فى الفقر وكأنها جمدت فــى ماضيها . بيد ان هذه الاسئلة يمكن طرحها ليس بالنسبة لآسيــا الوسطى فقط . فهى حتمية ايضا بالنسبة لبلدان «العالم الثالث» الاخرى - ذوات التاريخ والحضارة اللتين لا تقلان اهمية - التى قسمتها على تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين اوربا العدوانيــة البالغة اوج التوسع الرأسمالى والساعية بنهم الى تأمين سيطرتها على العالم ، باستغلال قوتها المادية والتكنيكية .

وبغية ادراك التطور التاريخى لبلاد ما وراء النهر سابقا والبلدان المجاورة لها دعنا نبحث بعض السمات المميزة لها .

ينبغى التذكير بادئ ذى بدء بما اصطدم به الناس فى آسيا الوسطى عند فجر الحضارات الاولى - وهو ان اركان الحياة كلها ، وكل ثروة واى تطور ، تتوقف على المياه . ووجودها او عدم وجودها بالذات يحدد ازدهار المــدن والممالك وانحطاطها . وتاريخ آسيا الوسطى الاقتصادى يمثل قبل كل شيء تاريخ التغيرات التى جرت فى اراضيها المروية . وكانت الاخيرة اما تزداد بفضل بناء خزانات مياه وقنوات جديدة ، واما تنقص . وجرى فى الفترات الطويلة للتطور السلمى توسيع وتحسين منظومات الرى ، وازدادت مساحة الاراضى المزروعة ، مما ساعد على ازدهار البلاد . لكن تبيّن ان قيام حرب واحدة ، او غزوة للبدو الرحل ، كافية لكى يتم خلال بضع سنين اتلاف ثمار التقدم ، المتراكمة ابان قرون طويلة ، وطمر الاراضى الزراعية المكتسبة من الصحارى بالرمال مرة اخرى . وفى آسيــا الوسطى ، حيث الامطار نادرة ، من الواجب حتما «تدجين» المياه ، اى توجيهها الى الاماكن اللازمة ، والمحافظة عليها وصيانتها بواسطة المنشآت المعقدة ، التى يتطلب التحكم بها توفر تنظيم دقيـــق ومحكم . وقد كتب العالم الجغرافى بــــول فيدال دى لابلاش على

صفحات «ريفيو دى سينتيز» الباريسية فى عام ١٩٠٣ يقول : «توجد فى الارض التى يقطنها البشر اماكن تبدى فيها الطبيعة المحيطة بقدر معين الصبر فقط ازاء الانسان ، الذى اما يقتات على الفريسة غير المضمونة عن طريق صيد السمك والحيوانات ، واما تتوقف معيشته على تسرب المياه عبر طبقات الارض الصحراوية» . لكن الصحراء على امتداد الانهار ، وحيث ساعد عمل الانسان ومعارفه على صيانة المياه واستغلالها لخيره ، تتحول الى جنة خضراء تثير اعجاب الغرباء . وكتب احد الجغرافيين العرب الذى زار فى القرن العاشر وادى زارافشان يقول : «فى بلاد سغد هذه يمكن السفر طوال ثمانية ايام متتالية دون مغادرة بستان رائع الجمال . فهناك القرى والحقول التى تعطى المحاصيل الوفيرة والبساتين المثمرة التى تجرى فيها الجداول فى شتى الانحاء ، وتمثل خزانات المياه والقنوات اللامعة تحت اشعة الشمس لوحة للغزارة والسعادة» . وتعتمد هذه «الغزارة» و«السعادة» ابان القرون لا على امتلاك الارض ، بل المياه وتوزيعها . وحين تكون الدولة قوية ، كما كانت الحال فى ايام الامبراطورية الفارسية للاخمينيين — ومن ذلك فى فترة حكم داريوس الاول (٥٢٢ — ٤٨٦ ق . م .) — او فى فترة حكم السامانيين والفترة المبكرة من حكم التيموريين ، تؤمن صيانة وكذلك توسيع منظومات الرى وبهذا تؤمن رخاء المنطقة . لكن الرخاء ليس واحدا للجميع : فالواقعى من نصيب الامراء والاثرياء ، الذين يفرضون سيطرتهم على الينابيع والاراضى المروية ، اما الوهمى فمن نصيب آلاف العبيد الذين يكدحون باجهاد من اجل المحافظة على المجارى والقنوات التى يتهددها باستمرار زحف الرمال . وهذا الرخاء مشبوه بالنسبة لفقراء الفلاحين ايضا ، الذين ينوؤن تحت وطأة شتى اصناف الضرائب . ومن المفهوم ان الحروب والاضطرابات الداخلية يمكن ان تهدم مثل هذا النوع من الاساس الاقتصادى بقدر ايسر بكثير ولفترة اطول امدا من ذلك الاساس المقام فى البلدان الاخرى ، حيث تكون الارض «التى ترويها السماء» جاهزة تقريبا لزراعتها فورا بالرغم من كل تقلبات القدر . اما هنا ، فعندما يجرى تدمير القنوات ومنشآت الرى ، لا بد من سنوات من العمل الشاق من اجل اعادة بنائها واعادة الخصوبة الى الارض .

كما وجدت عوامل اخرى ، خارجية ، ساعدت اكثر فاكثر على استحثاث عملية انحطاط المنطقة . والمقصود هو آثار الاكتشافات الجغرافية الكبرى . فبعد رحلة فاسكو دي جاما بات جليا للعيان ان بالامكان ، لدى الابحار بمحاذاة سواحل افريقيا ، بلوغ الهند والصين بشكل ايسر كثيرا وبنفقات اقل . وصار غالبا ما يستخدم طريق البحر في التجارة الدولية . وباكتشاف امريكا بدأ يتعاظم اكثر فاكثر قسم التجارة باتجاه الغرب . وفي هذه الظروف اخذت تفقد اهميتها الطرق التي كانت تربط طوال قرون ما بين الشرق والغرب ، اما البلدان التي تمر بها وكانت تشكل اساس ثروتها ، بكونها دوائر الانعطاف من اجل التبادل بين الحضارات ، فقد اصبحت على مدى قرون خارج اطر التيارات العظيمة الجديدة في العالم . وتوقفت الاحاديث عن طرق القوافل الاسطورية ، بينما نسيت هذه الطرق ومحيت ، كما تمحي الرياح الآثار القديمة في الصحراء .

القياصرة يزحفون على آسيا الوسطى

حين وجه القياصرة انظارهم في النصف الاول من القرن التاسع عشر نحو آسيا الوسطى التي كانوا يطلقون عليها آنذاك اسم تركستان ، لم يتبق من الامبراطوريات العظيمة المتعاقبة سوى اراض مقسمة بين ثلاث دول اقطاعية ، تتغير حدودها وفق ايقاع الحروب المستمرة بين الامراء – امير بخارى وامير خيوا وامير قوقند .

لقد اسس امارة بخارى التي كانت تسيطر على وادي زارافشان ، الواقع في اراضي اوزبكستان وطاجيكستان حاليا ، محمد رحيم رئيس العشيرة الاوزبكية ، الذي منح نفسه لقب امير – بصفته اول حاكم في سلالة مانغيت ، التي حلت في عام ١٧٥٣ محل سلالة اشترخان . وشهدت فترة حكم المانغيتيين النجاح في مكافحة التشرذم الاقطاعي ، كما وشهدت ازدياد الاضطهاد الاقطاعي ، مما ادى الى اندلاع العديد من الانتفاضات الشعبية الكبيرة . وفي فترة حكم الامير حيدر (١٨٠٠–١٨٢٦ م) بدأت الحروب مع خيوا ، ومن ثم مع قوقند ، التي استمرت حتى انضمام آسيا الوسطى الى روسيا . وبقي

المانغيتيون فى السلطة حتى عام ١٩٢٠ حين تأسست جمهورية بخارى الشعبية السوفييتية .

اما امارة خيوا الواقعة فى المجرى الاسفل لنهر جيحون فقد كانت الوريث الاكثر فقرا للدولة الخوارزمية . وبقيت فى السلطة آخر سلالة حكمت فيها ، ومؤسسها الخان الطوزر ، حتى قيام الثورة .

واخيرا امارة قوقند التى كانت تشغل منطقة وادى فرغانة وقسما من قيرغيزيا الحالية ، فقد اسسها خانات من عشيرة مينغ الاوزبكية . وبلغت امارة قوقند ذروة قوتها السياسية والاقليمية فى عهد الخانات عليم (١٨٠٠ - ١٨٠٩) وعمر (١٨٠٩ - ١٨٢٢) ومدالى (١٨٢٢ - ١٨٤٢) . وفى مطلع القرن التاسع عشر ضم حكام قوقند مدينة طشقند الهامة ، التى شكل احتلالها من قبل الجيوش القيصرية بداية الاستعمار الروسى .

ولم يوجد اى تنسيق فى الاعمال بين هذه الامارات الثلاث . كما لم تتوفر فى داخل كل واحدة من هذه الدول اية وحدة اثنية ، ناهيك عن الوحدة «القومية» بمعنى الكلمة الحديث . وكانت عبارة عن خليط من شتى العشائر والمجموعات الاثنية ، حيث يتجاور ويتخالط مع بعضهم البعض الاوزبكيون والتركمان والطاجيك والتتر والكازاخ والقيرغيز واليهود . وفى بداية القرن التاسع عشر كان عدد سكان الامارات يبلغ قرابة اربعة ملايين نسمة ، وبعد مرور خمسين عاما بلغ خمسة ملايين نسمة . واكثرها ازدحاما بالسكان هى امارة بخارى - اذ كان يقطنها ثلاثة ملايين نسمة . وتليها امارة قوقند (مليون ونصف مليون نسمة) وامارة خيوا (نصف مليون نسمة) . وكانت من اكثر المناطق ازدحاما بالسكان الواحات والوديان المروية بالقرب من الانهار التى «تهب الحياة» مثل سيحون وجيحون وزارافشان . اما فى الصحارى والسهوب والجبال فكانت قبائل البدو الرحل ترعى قطعانها فى المراعى الخالية من المياه ، الضائعة وراء الافق .

وكان رعايا هذه الدول الثلاث - من رعاة السهوب والدهاقين (فقراء الفلاحين) والحرفيين وصغار التجار فى المدن - يعانون من الاضطهاد نفسه - شتى انواع الضرائب ، التى يدفعونها بشكل منتجات زراعية ونقود او العمل بالسخرة . وكانت تكلفهم غاليا

الحروب المستمرة تقريبا التى يشنها الامراء . ووجب على الفلاح ان يقوم ، اضافة الى قسم من المحصول الذى وجب عليه تقديمه الى الباى ، والعمل بالسخرة فى اراضى كبار الاقطاعيين ، بالعمل مجانا فى تطهير وصيانة المجارى وقنوات الرى ، ويحصل مقابل ذلك ، لكن ليس مجانا ، بل مقابل نقود كثيرة ، على حصة شحيحة من المياه . كما وجب على الفلاح المشاركة فى بناء وتعمير الطرق والجسور والمبانى العامة والمساجد .

وحين طفح كيل الحاجة والغضب اندلعت اعمال التمرد . وازداد حدوثها على الاخص بعد عام ١٨٢٠ . ففى الفترة من عام ١٨٢١ الى ١٨٢٥ استمرت انتفاضات عشيرة قتاى – كيبتشاق الاوزبكية ضد امير بخارى . وفى عام ١٨٢٦ انتفض الحرفيون فى سمرقند . وفى عام ١٨٢٧ هاجم اهالى مدينة خيوا والفلاحون جند الامير . وحدثت اضطرابات جماعية للسكان فى فترة ١٨٥٦ – ١٨٥٨ بجنوب كازاخستان . وفى عام ١٨٥٨ استولت العشائر الكازاخية على مدينة تركستان بعد ان بلغ بهم اليأس مبلغه بسبب جشع جباة ضرائب امير قوقند .

وثمة تسجيل وثائقى لهذا الحدث كتبه الرحالة الروسى ن . سيفيرتسوف ، الذى اسره جند امير قوقند فى اثناء الانتفاضة . وهو يعتبر الاضطهاد الاقطاعى الذى لا يطاق السبب فى اندلاع الانتفاضات الشعبية . وهناك شاهد آخر هو العالم الجغرافى ا . نيبولسين الذى اشار فى مذكرات يرجع عهدها الى عام ١٨٥٠ ، الى ان اهالى الامارات الثلاث يعيشون فى ظروف الفقر المدقع والاضطهاد والى ان التجار الاثرياء يخفون ثرواتهم بكل السبل خوفا من الوقوع ضحية للموظفين الذين يعملون فى خدمة الامير .

وليس من نافل القول ابدا التذكير بهذه الوقائع التاريخية ، لانه رغم كل وضوحها لا تلقى مع ذلك التفهم لدى الجميع ابدا . ويحاول بعض «الخبراء» * فى ايامنا ايضا تصوير وضع التخلف والظلم

---

* يمكن ان نذكر منهم الباحث الانجليزى فى الشؤون السوفييتية جفرى ويللر صاحب كتاب «التاريخ الحديث لآسيا الوسطى السوفييتية» (لندن ، ١٩٦٤) ، وكذلك اخرين وعلى سبيل المثال الكسندر بينيجسين وشانتال

الذى وجدت فيه شعوب آسيا الوسطى وكانه شيء نسبى . وهذا يتيح مسبقا وبجرة قلم التقليل من قيمة الطفرة الهائلة الى الامام التى جرت بعد الثورة .

وبينما كانت تركستان باقية فى قبضة القرون الوسطى كانت روسيا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر قد مضت فى طريق التطور الرأسمالى المكثف . وانهارت التراكيب القديمة للامبراطورية القيصرية بينما تطورت فروع انتاج جديدة وعلاقات اقتصادية جديدة ، بعثها الى الوجود تطور الصناعة الكبيرة .

لم يجلب الغاء نظام القنانة فى عام ١٨٦١ التحرر الحقيقى الى الفلاحين . فقد بقيت الارض فى قبضة الاقطاعيين ، مما حكم بالادقاع بلا امل على جماهير كبيرة من ابناء الريف . وانضم قسم منهم الى جيش العاملين المأجورين فى المدن . بينما انتقل آلاف الفلاحين المعدمين الى الشرق ، وبضمن ذلك الى كازاخستان . وجنت السلطات القيصرية منفعة مزدوجة من هذا : فمن ناحية تخلصت من اعداد غفيرة من الفقراء ومثيرى الفتن ، وبالتالى ، من الفلاحين الخطرين ، ومن ناحية اخرى ، ثبتت احتلالها للاراضى التى غزتها فى الشرق بايجادها الحضور الروسى الدائم هناك .

ومن بين الدوافع الاخرى التى جعلت روسيا تهتم بآسيا الوسطى اكثر فاكثر تتراءى ضرورة ايجاد سوق لترويج منتجات الصناعة الجارى تأسيسها حديثا ، نظرا لكون سوقها محدودة جدا ، بينما بقيت اوربا والولايات المتحدة مغلقة امام سلع التصدير الروسية ، ومنها الصادرات من مصنوعات النسيج .

ان النشاط الدبلوماسى وغيره فى مضمار التقارب بين روسيا وآسيا الوسطى قد اعطى ثماره التطبيقية حتى قبل بدء الغزو العسكرى : فلئن كان اجمالى صادرات روسيا كلها الى آسيا الوسطى فى مطلع القرن التاسع عشر لا يتجاوز مليون روبل ، نجده فى

ليميرسيه-كيلكيشى مؤلفى كتاب «مسلمون منسيون : الاسلام فى الاتحاد السوفييتى» (باريس ، ١٩٨١) . كما ونذكر مع فارقه ضئيل فنسان مونتيه صاحب كتاب «المسلمون السوفييت» (باريس ، ١٩٨٢) . - **ملاحظة المؤلف .**

عام ١٨٥٠ قد بلغ خمسة عشر مليون روبل . والعكس بالعكس ، فان قيمة السلع التى استوردتها روسيا قد ازدادت فى الـــوقت نفسه من مليونين الى عشرة ملايين روبل . واصبحت اورنبورغ ، المدينة - القلعة الروسية القديمة احد المراكز المتميزة للتبادل التجارى . فكان يجرى فيها شراء وبيع الانسجة والمعادن والجلود وعجين الورق والحرير والفرو .

وفى اواسط القرن التاسع عشر ظهرت انواع الشركات الصناعية والتجارية وشركات النقليات التى تمارس اعمالها بين روسيا وآسيا الوسطى ، والمختصة باعمال التصدير او الاستيراد .

وفيما بعد ازداد اهتمام روسيا باراضى تركستان اكثر فاكثر بسبب الظروف الخارجية . فان معاهدة باريس الموقعة عام ١٨٥٦ التى وضعت حدا لحرب القرم (١٨٥٣ - ١٨٥٦ م) واصطدم فيهـا الحلفاء الانجلو - فرنسيون ، الذين حاربوا الى جانب تـــركيا ، بالقوات الروسية ، قد اغلقت كل منفذ امام روسيا الى البلقـان وحوض البحر الابيض المتوسط . وادت شروط الصلح الثقيلـة المفروضة على روسيا بصورة غير مباشرة الى انتقال مطامعها مـــن اوربا الى آسيا الوسطى .

وسرعان ما اضيف الى هذا التغيير الاستراتيجى فى مـــوقف روسيا سبب جديد اضطرها الى ترسيخ اقدامها فى تركستان باسرع وقت ممكن : اذ ان الحرب الاهلية (١٨٦١ - ١٨٦٥) المتواصلة فى الولايات المتحدة قد حرمت روسيا من القطن الضرورى من اجل مصانع النسيج فيها . وكانت آسيا الوسطى فى عام ١٨٦٢ تزود روسيا بنسبة ٤٠ بالمائة فقط من هذه المادة الخام الضرورية لها . وبعد ان سيطر الصناعيون الروس على تركستان واستغلوا اهلها بصورة مكثفة بات بامكانهم ان يصبحوا فى غنى عن منتجى القطن الامريكى والمصرى .

وبالتالى اصطدمت الراسمالية الروسية النامية ، فـــى القرن التاسع عشر بالمشاكل ذاتها التى تواجه اوربا الغربيـة . ووجب عليها فى اطر المنافسة العالمية ، التى ازدادت مع تنامى الصناعة الكبرى ، ان تبحث عن الامكانيات من اجل تسويق سلعها ، وفـــى

الوقت نفسه عن مصادر جديدة للموارد الخام . اذن فالتوسع الروسى فى سهوب كازاخستان وفى آسيا الوسطى يماثل ما كان يجرى فى افريقيا وجنوب وجنوب شرقى آسيا ، حين تغلغلت الدول الغربية الكبرى الى هناك . لكن ثمة اختلافات معينة فى هذا المجال : فحين استوطن الفرنسيون فى الهند الصينية او مدغشقر ، وحين استولى الانجليز على الهند ، والهولنديون على اندونسيا ، كانوا يحاربون على مسافة آلاف الكيلومترات عن حدودهم ، ووجب عليهم عبور المحيط من اجل بلوغ اصقاع الغير . اما الروس فلم يكونوا ابدا غرباء بالنسبة الى جيرانهم الاسيويين ، وحتى انهم عاشوا فترة طويلة فى الامبراطورية الاتراكية-المنغولية نفسها ، التى عانت روسيا من نيرها طوال ٢٥٠ عاما باكملها . لكن الامر لا يستحق ، كما يفعل هذا البعض فى الغرب ، المبالغة فى موضوع التأثير «الاسيوى» على الروس فى فترة الحكم المغولى-التترى المديدة . ان تاريخ روسيا وحضارتها العريقة يظهران ان مقاومة الاجنبى التى دامت خلال قرون طويلة قد اتاحت لها بالذات ، ورغم كل المصائب والارزاء ، البقاء محافظة على مصداقيتها . كما يجب ان يؤخذ بعين الاعتبار ان روسيا كانت دائما ، فى ازمان خضوعها لسلطة الخانات الاسيويين وكذلك بعد التحرر منها ، تقف فى مفترق الطرق بين عالمين ، وقد ترك هذا الوضع تأثيره عليها طبعا .

وفى عام ١٥٥٢ استولى ايفان الرهيب على العاصمة التترية قازان . ومنذ ذلك الحين بدأ زحف القوات الروسية نحو الجنوب ونحو الشرق . وفى نهاية القرن السابع عشر بلغة المحيط الهادى. وكان من الطبيعى ان يرافق هذا التوسع – بمراحل السلم والحرب فيه – تكثيف العلاقات التجارية والاجتماعية والسياسية والثقافية مع القبائل والمجموعات الاثنية فى المناطق التى تم ضمّها . ولا نكران ان هذه العلاقات كانت علاقات بين الغزاة والمقهورين ، وبين الظالمين والمظلومين ، غير ان المستوطنين الروس الذين استقر بهم المقام ، وعلى سبيل المثال فى اوساط الكازاخ ، لم يكونوا جميعا يعيشون حياة بذخ البتة . فهم فى غالب الاحيان من الاقنان السابقين ، وتشبه القرى التى بنوها القرى التى غادروها فى مواطنهم الاصلية .

ان استثمار الاراضي الموجودة فى كازاخستان الحالية قد دفع القياصرة الى اقامة علاقات اقتصادية وسياسية منتظمة اكثر مع الدول المجاورة فى آسيا الوسطى . وفى النصف الثانى من القرن السادس عشر توجهت من روسيا الى هذه الامارات ثمانى بعثات رسمية . وفى القرن السابع عشر تم بموسكو استقبال اثنى عشر وفدا من خيوا وثلاثة عشر وفدا من بخارى . ويتجاوز دور هذه السفارات اطر التبادل البروتوكولى العادى بين حكام يمسكون بناصية الحكم ، وكذلك القضايا المتعلقة بتسوية النزاعات الحدودية او عقد المعاهدات التجارية . فمثلا عقدت فى القرن السابع عشر بنتيجة المباحثات بين الممثلين المخولين من قبل القيصر والامير معاهدة تتيح للتجار والحرفيين والفلاحين – من ابناء بخارى وطشقند – السكن فى اورنبورغ واستراخان وبشكيريا ، حيث كانوا يتلقون الامتيازات من السلطات الروسية .

وفى القرن التاسع عشر فقط بدأت تظهر نوايا القياصرة حيال آسيا الوسطى بالذات بشكل نشاط عسكرى ملموس . ففى نوفمبر (تشرين الثانى) عام ١٨٣٩ وجهت الى خيوا حملة عسكرية بقيادة حاكم اورنبورغ الجنرال ف . بيروفسكى . وزحف فوق الكثبان الرملية خمسة آلاف جندى يرافقهم الفا مساعد كازاخى ، كانوا يسوقون عشرة آلاف بعير محملة بالعُدد والمؤن . وبالرغم من هذه الموارد الضخمة فان الحملة انقلبت الى كارثة بالنسبة للروس . فلم يعد الى روسيا حيا سوى الفا جندى . اما الآخرون فقد هلكوا فى هجمات قوات امير خيوا او ماتوا بسبب الجوع والمرض فى ظروف الشتاء القاسية للغاية . وبالرغم من الفشل ارسلت القيادة القيصرية حملة ثانية بعد فترة قصيرة . لكن الامير طلب الصلح قبل ان تبدأ الحملة . وتعهد بان يطلق سراح الاسرى من السجون والعمل على عدم اسر ابناء روسيا لاحقا وعدم تحويلهم الى عبيد . وكانت خيوا وقت ذاك اكبر سوق للعبيد فى آسيا الوسطى .

بدأ منذ عام ١٨٦٠ ، فى عهد القيصر الكسندر الثانى ، بناء عدة حصون فى جنوب كازاخستان الغاية منها فرض الرقابة على المناطق التى جرى اخضاعها ، وكذلك تكوين قاعدة من اجل شن الغزوات الجديدة للاراضى . واطلقت تسمية «فيرنى» على الحصن

الواقع فى اقصى الشرق من بين هــــذه الحصون . وشيدت حول الثكنة والمبانى المحيطة بها بلدة صارت تسمى بعد مرور عشرات السنين باسم الما آتا عاصمة كازاخستان الاشتراكية السوفييتية .
وفى بداية عام ١٨٦٠ بدأ هجـــوم القوات القيصرية على اراضى اوزبكستان . وفى بادئ الامر شنت العمليات الحربية ضد امارة قوقند والاراضى التى استولـــت عليها من قبل . وفى خريف عام ١٨٦٢ دخلت القوات الروسية مدينة بيشبيك (فرونزه حاليا) ، وفى صيف عام ١٨٦٣ استولت على قلعة سوزاك ، وفى ربيع عام ١٨٦٤ استولت على مدينتى اوليه آتا وتركستان . وفى سبتمبر (ايلول) عام ١٨٦٤ جرى اقتحام تشيمكنت ، وفى مايو (ايار) عـام ١٨٦٥ جرى اقتحام طشقند . وبعد ذلك هُزمت قوات بخارى المتقدمة نحو طشقند . واعلن امير بخارى آنذاك حرب «الجهاد» ودعا للمشاركة فيها ابناء امارة قوقند وكذلك خيوا وتركيـا وافغانستان والهند .
وقام الجنرال كاوفمان ، الذى كان يقود الجيوش الروسية ، بسرعة جدا بالاستيلاء على مدينتى اورا - طوبه وجيزاك فى امارة بخارى وعلى قلعة يانتشيكورغان وارغم الامير عـــلى الدخول فى المفاوضات . وتنازل الاخير الى روسيا (بموجب معاهدة الصلح لعام ١٨٦٨) عن الوديان فى المجرى الاوسط لنهر زارافشان حيـــث توجد مدن خوجنت واورا - طوبه وجيزاك وكاتاكورغان وسمرقند ، ودفع الى خصومه تعويضات قدرها خمسمائة الف روبل فضى . كما تعهد بعدم جباية ضرائب على السلع القادمة من روسيا او المرسلة اليها بقدر يتجاوز خمسة بالمائة من قيمتها . وفـــى واقع الحال ان انتصار الجنرال كاوفمان قد حول الامارة الى محمية ، الامر الذى ثُبت لاحقا فى معاهدة رسمية .
وبعد اقل من خمسة اعوام حان دور امارة خيوا التى انهارت تحت ضربات الجيوش الروسية . وتخلى الامير عن القتال بان امر بفتـح بوابات عاصمته وبموجب معاهدة صلح فرضت عليه فى اغسطس (آب) عام ١٨٧٣ ، واعترف فيها بكونه «الخادم المطيـع لامبراطور روسيا كلها» . وعلاوة على ذلك تنازل له عن املاكه فى الضفـــة اليمنى لنهر جيحون ، ومنحه الحرية التامة فى الملاحة بهذا النهـــر وتعهد بدفع جزية قدرها مليونى روبل . واعلن الامير عن نيته فى

الغاء العبودية ومنـــع الفاتحين حق بناء المستودعات والمعامـــل ومنشآت الموانئ على الضفة اليسرى لنهر جيحون . وصار بامكان القوافل والتجار الروس منذ ذلك الحيـــن التنقل بحرية فى اراضى الامارة التى تضمن سلامتهم واعفاءهم من دفع الرسوم الجمركية .

وبعد مضى ثلاثة اعوام اخرى ، اى فى عام ١٨٧٦ ، استغـــل الجنرال كاوفمان فرصة الانتفاضات التى هزت البلاد بسبب طغيان ادارة الامارة ، فضم جميع الاراضى المتبقية من امارة قوقند . ومنذ ذلك الحين اصبحت بلاد قوقند سابقا جزءا من ولاية تركستان العامة التى تأسست فى عام ١٨٦٧ .

وآنذاك حـــان دور الاراضى التركمانية . فاعلـــن الكونت د . ميليوتين وزير حربية الكسندر الثانى فى عام ١٨٨٠ انـــه بدون احتلال تركمانيـــا سيبقى القفقاس وتركستان منفصلتين الى الابد . وكانت بداية ذلك نزول القوات الروسية منذ عام ١٨٦٩ على الساحل الشرقى لبحر قزوين واسست مدينة كراسنوفودسك . وفى يناير (كانون الثانى) عـــام ١٨٨١ استولـــت قوات الجنرال م . سكوبيليف على قلعة غيوك – تيبه بعد ان لقيت مقاومة عنيدة ، وبعد مضى عدة ايام استولت القوات القيصرية على قرية اسخاباد (عشق آباد حاليا) . وانضمت مناطق كثيرة من تركمانيا الى روسيا طوعا ، ومنها مرو (مارى) – المدينة العريقة التى كانت فى الماضى احدى مراحل طريق الحرير . وفى عام ١٨٨٢ تكونت فى اراضى تركمانيا مقاطعة ما وراء بحر قزوين ومركزها عشقه آباد ، التى الحقت فيما بعد باقليم تركستان .

وعندئذ اصبحت حدود الامبراطورية القيصرية مـــع فارس وافغانستان مشتركة ، الامر الذى ما كان يروق لدولة عظمى اخرى هى بريطانيا سيدة الهند . ولا يجوز القول بان المنافسة بيـــن الدولتين الامبرياليتين قـــد تكشفت فقط لـــدى اقتراب القوات القيصرية من منطقة النفوذ البريطانية . ففـــى الواقع ان روسيا وبريطانيا قد واجهت احداهما الاخرى بآسيا الوسطـــى لاسباب اقتصادية وكذلك استراتيجية قبـــل ان تمتد غزوات الجيوش الروسية الى حدود فارس . ومنذ عام ١٨٣٨ تسلل العملاء الانجليز من هرات بافغانستان الى حاشية الامراء وحاكـم بخارى ، وصاروا

يجوبون انحاء البلاد ويجمعون المعلومات التجسسية حول الامكانيات الدفاعية للقلاع العسكرية والجيوش المحلية . وكانت تساور بريطانيا رغبة شديدة فى السيطرة على المنطقة كلها . واعدت الصحف اللندنية الرأى العام لهذا فعلا ، مشيرة الى الضرورة المقدسة «لحماية الهند لؤلؤة التاج» ، واجم الروس الذين يهددون امنها . ومارس الانجليز سياسة «اغراق الاسواق بالبضائع» حقا ، بغية ان يؤمنوا لنفسهم الحلفاء ويقضوا على التوغل التجارى الروسى . ففى بخارى كانوا يبيعون الاقمشة الانجليزية باسعار ارخص من قيمة الكلفة فى سبيل سد الطريق امام السلع الروسية . لكن طرأت ظروف غير متوقعة حالت دون تنفيذ الانجليز لخططهم الاكثر عدوانية . وتأتى فى مقدمتها المقاومة الضارية التى ابداها الافغان فى اعوام ١٨٣٨-١٨٤٢ ، وحالوا دون تقدم القوات البريطانية الى ضفاف جيحون . وفى اثناء حرب القرم وضعت لندن مجددا خطة لارسال حملة عسكرية عبر جورجيا الى آسيا الوسطى ، لكنها لقيت هناك عقبة كأداء : اذ رفضت فرنسا التعاون فى تنفيذ هذا المشروع ، فاضطرت بريطانيا الى التخلى عن مقاصدها . ثم حدثت انتفاضة السباهيين * التى اهتزت لها الهند (١٨٥٧) فقيدت حركاتها وارغمتها على توجيه قسم كبير من قواتها الى اخضاع الهنود .

لقد ابدى القياصرة الروس مهارة فى تجنب الاشتباكات المباشرة مع جارتهم الاستعمارية ومنافستهم ، التى كانت تصل فى بعض الاحيان الى حافة الحرب ، وفى نهاية المطاف بلغوا الحدود الافغانية . وايامذاك طالب اللورد ويتّون ، حاكم ونائب الملك فى الهند ، بان توجه الحكومة البريطانية انذارا شديدا الى روسيا . واقترح ان يُكتب الى القيصر ما يلى : «تبذل بريطانيا كافة الجهود وتستخدم جميع الوسائل من اجل استثارة امارات آسيا الوسطى ضد روسيا والقضاء نهائيا على النفوذ الروسى بهذه المنطقة ، ان

---

* الهنود المجندون فى الجيش البريطانى . ـ **ملاحظة المترجم** .

تجرأ روسي واحد – سواء كان من العسكريين او المدنيين – على عبور جيحون والتوغل في افغانستان» * .

ونشأ بين الدولتين الامبرياليتين الوضع الخطر للسلام المسلح . وقد تواصل هذا الوضع على مدى عشرات السنين ، متميزا بصورة اساسية بالنشاط السرى الفعال للعملاء الانجليز الذين كانوا يُرسلون الى الامارات وبامير ومقاطعات الصين النائية . ولم توقع الاتفاقية المتعلقة بايران وافغانستان والتبت بين الحكومتين الا في عام ١٩٠٧ وتم حل النزاع المتأتى عن مطامع الطرفين المتنافسين . واتفقت بريطانيا وروسيا قبل كل شيء على احترام استقلال ايران (مع تقسيم البلاد في الوقت ذاته الى «مناطق نفوذ») . وعلاوة على ذلك وافقت روسيا على اقامة العلاقات السياسية مع افغانستان فقط عبر وساطة بريطانيا ، كما ان الطرفين يلتزمان داخل حدودها بمبادئ المساواة في التجارة . واخيرا اعترفت روسيا وبريطانيا بحقوق السيادة الصينية على التبت . وقد دشنت هذه الاتفاقية عصر الوفاق الطيب نسبيا بين الدولتين . وفي الوقت نفسه انها عكست «التجاهل الامبراطورى» من قبل الجانبين بالقدر ذاته لمصائر الشعوب المعنية – سواء الفرس والافغان او اهل التبت ، التى كانوا يتصرفون بها ، حتى دون ان يسألوهم رأيهم . بيد ان هذا يمثل الاسلوب العام للاستعمار المنتصر ، ولم تكن معاهدة عام ١٩٠٧ استثناء عن ذلك .

وكان لا بد وان تندلع ثورة اكتوبر عام ١٩١٧ لكى يُسمع صوت آخر – هو صوت العمال الثوريين في بتروغراد ، المتضامنين مع الشعوب المضطهَدة والمستعبَدة .

الاباطرة والامراء والمستعمرون و«الاهالى الاصليون»

مهما كانت اللغة التى يتحدث بها المدافعون عن فكرة الاستعمار فان احاديثهم ، في واقع الامر ، واحدة . فالاراضى المغتصبة تعود

---

* من كتاب سيلفن بينسيدون «سمرقند ووادى زارافشان» ، باريس ، ١٩٧٩ . – **ملاحظة المحرر** .

لهم «عن حق» ، وليس بوسع اى احد آخر التعبير عن ارادته فيها قانونا . وهذا ما حدث فى الجزائر فى زمن بيوجو * وبعده بوقت طويل ، لحد آخر خلفائه ، الذى زعم قبل بضعة اسهر من كسب البلاد استقلالها ان «فرنسا موجودة هناك فى ارضها» . كما وامكن سماع مثل هذه الاقوال الحاسمة من افواه حاكم ما لنيجيريا البريطانية السابقة او حاكم للكونغو البلجيكية سابقا . كما ولم يسمع اى شىء آخر من الجنرالات الذين كانوا يمثلون الحكم الاستبدادى القيصرى فى تركستان . وقد حدد اوفاروف احد وزراء نيقولاى الاول ، وحتى قبل ان تبتلع الامبراطورية الروسية آسيا الوسطى ، السياسة القيصرية حيال «الاغراب» ، وحسب اقواله ان الامة الروسية كانت الامة السيدة والسائدة الوحيدة ، وكان باستطاعتها وحدها رفع صوتها فى الدولة . اما فى الواقع فان «الامة الروسية» المسحوقة بنظام طغيان لا يعرف الرحمة كانت نفسها غير ذات سيادة البتة . اولم تتبع سياسة الاضطهاد والاستغلال «باسم الشعب السيد» ، الذى كان قلما يؤخذ رأيه ، فى افريقيا وآسيا «الفرنسيتين» يوم امس ؟

لقد اصبح المذهب المسيحى الارثوذكسى دين الدولة الرسمى فى جميع الاصقاع التى غزتها روسيا . اما جميع الاديان الاخرى فكانت تلقى التسامح فقط . وبقيت السلطة الاستبدادية القيصرية امينة لسياسة الهضم وفرض العقيدة الدينية السائدة على الناس قسرا ، اللذين جرت ممارستهما فى القرن الثامن عشر حيال التتر فى منطقة الفولغا . وكتب روجيه بورتال الاستاذ فى جامعة السوربون يقول : «لقد جرى حظر الهداية الاسلامية تحت خطر التهديد بالموت . اما بصدد معتنقى المذهب الارثوذكسى فانهم كانوا يعفون من الخدمة العسكرية ، ومن الضرائب لمدة ثلاث سنوات ، وفى الاماكن التى يتواجد فيها معتنقوه الجدد كان يبعد

---

* توما بيوجو دى لا بيكونرى (١٧٨٤-١٨٤٩ م) - المارشال الفرنسى الذى دبر غزو الجزائر واول حاكم فيها (١٨٤٠-١٨٤٧ م) . - ملاحظة المحرر .

عنها المسلمون الى الشرق نحو الاورال ، بغية «عدم ازعاج» العقيدة المسيحية للمؤمنين حديثا» * .

وفى الفترة ما بين ١٧٣٨ و١٧٥٥ امر رئيس اساقفة قازان بكل بساطة بتهديم القسم الاكبر من مساجد محافظة قازان . وبعد ذلك خففت يكاترينا الثانية (حكمت فى فترة ١٧٦٢-١٧٩٦ م) من حدة هذا التوجيه بشكل محسوس . وفعلا تغير الوضع فى القرن التاسع عشر تغيرا تاما - وقبل كل شىء لان محاولة فرض الديانة المسيحية باءت بالفشل - لكن لو امعنّا النظر بصورة اعمق فان التعصب واحتقار الاديان الاخرى ، وبالاخص الاسلام ، بقى عهد ذاك على حاله .

وجرت ممارسة التمييز ذاته حيال لغات الامبراطورية : اذ كانت الروسية اللغة الرسمية الوحيدة . وفى هذا المجال يثير العجب تشابه سياسة الدول الاستعمارية المختلفة . ففى الجزائر حاول المنتصرون ايضا - دون ان يحالفهم النجاح - جعل السكان المسلمين بالاكراه وبالاقناع يعتنقون المسيحية ، واعتبرت اللغة العربية حتى الاعوام الاخيرة للوجود الفرنسى لغة اجنبية . وفى آسيا الوسطى كما كانت الحال فى افريقيا وغيرها من الاماكن ، كان الموظفون الاستعماريون يغيرون خارطة البلاد والمحافظات ويقطعون اوصالها دون اعتبار للخصائص التاريخية والجغرافية ، وناهيك عن مصالح السكان المحليين .

واصبحت المناطق المرتبطة بوحدة اقتصادية واثنية ولغوية معينة جزءا من شتى الدوائر الادارية . وادى هذا التقسيم الى حدوث تعقيدات عسيرة الحل فى كافة الشئون ومنها فى مجال ذى اهمية حيوية هو توزيع المياه . ولهذا ، كان يجرى ، مثلا ، بصورة غير معقولة تماما ادارة منظومة الرى فى وادى زارافشان : ففى القسم الاعلى كانت تابعة لسلطات محافظة تركستان الموجودة فى طشقند ، وفى القسم الادنى - لامارة بخارى .

---

* من كتاب روجيه بورتال «الاقوام السلافية فى الفترة من ١٨٧١ الى ١٩٣٩ م» المنشور فى مجموعة «محاضرات فى السوربون» . باريس . مركز الاعلام الجامعى ، ١٩٨٠ . - **ملاحظة المحرر .**

ومع ذلك فان منطق هذا «التقسيم» جلي للعيان : حيث انه لدى الازدحام الكبير للقبائل والمجموعات الاثنية وشتى الاقوام يصبح هذا وسيلة دائمة للتاثير تمارسها الادارة الكولونيالية وتبقى بخير صورة على الخرافات العنصرية والنعرات القبلية وكراهية القرون بين هذه الامم وتلك .

اذن ، فغداة ثورة اكتوبر بدت الخارطة السياسية لكازاخستان وآسيا الوسطى الحاليتين ، بالتالى ، بهذه الصورة .

فى الشمال تقع المحافظة السهبية العامة ومركزها الادارى فى مدينة اومسك ، التى تضم مقاطعتين كبيرتين هما اكمولينسك وسيميبالاتينسك .

وفى الجنوب ، بالذات فى آسيا الوسطى - محافظة تركستان العامة (اصبحت التسمية الرسمية لها منذ عام ١٨٨٥ - الاقليم التركستانى) ، التى الحقت بها فى عام ١٨٩٧ المناطق الجنوبية من كازاخستان ، وما يسمى سيميريتشيه (تجرى هناك سبعة انهر تصب فى بحيرة بلخاش) ، ومركزها فى مدينة فيرنى . وطبقا للمعطيات غير الموثوق بها جدا لعام ١٩١٦ فان تعداد سكان تركستان كان يبلغ سبعة ملايين ونصف مليون نسمة .

علاوة على ذلك كانت هناك امارة خيوا (٦٤٠ الف نسمة) وامارة بخارى (٢٢٤٠ الف نسمة) ، المطوقتان من كافة الانحاء بالضياع الروسية ، المستقلتان شكليا ، الا انهما فى واقع الحال كانت فى وضع المحميات .

وثمة مسالة هامة : لقد انيطت ادارة شئون تركستان فى سانكت-بطرسبورج ليس بوزارة الداخلية بل بوزارة الدفاع . وتركزت كل السلطة المدنية والعسكرية فى هذه المناطق بيد حاكم عام يعينه القيصر . والاراضى مقسمة الى مقاطعات ومناطق («اقضية») ، يتولى ادارتها ضباط القيصر - جلهم من علية القوم . اما المستويات الادنى - مجموعات القرى («ناحية») والقرية الواحدة («آوول» او «كيشلاك») فان اهاليها احرار فى انتخاب زعمائهم : «المشايخ» و«الاكساكالات» (تعنى كلمة «اكساكال» باللغة المحلية «ذو اللحية البيضاء» - رمز الحكمة وخبرة الحياة) . اما فى الواقع فقد كانت «الانتخابات» اشبه بمهزلة منها بحدث

جدير بهذه الكلمة ، لان المرشحين الوحيدين فيها عادة كانوا من «البايات» – المالكين الاثرياء ورؤساء العوائل الاقطاعية الكبيرة الذين لم يكن بوسع اى فلاح فقير الوقوف بوجههم . وتركت السلطات القيصرية لنفسها حق النقض «الفيتو» من باب الحذر الاضافى . فبوسع الحاكم العسكرى الغاء نتائج الانتخابات ان كانت لا تروق له . وفى هذه الحالة يعمد دون اية مشاورات مع الاهالى الى تعيين شيخ القرية الذى يجده مناسبا له بقدر اكبر . ويسود الوفاق بين المستغلين من ابناء الاهالى المحليين ورجال الادارة القيصرية فى الامر الرئيسى : حيث يسعى اولئك وهؤلاء الى ان يثقلوا الفلاحين والرعاة الرحل وغيرهم من رعايا القيصر بالضرائب اكثر فاكثر .

وكان كبار الضباط – وهم يشبهون من هذه الناحية زملاءهم الفرنسيين الذين غزوا الجزائر – غالبا ما يجدون الفرصة لدى مجيئهم الى آسيا الوسطى لغرض الاثراء السريع . وبالمناسبة كان بينهم عدد كبير من الاشخاص الذين ارسلوا الى هناك عقابا لهم على جريدة ما . بعبارة اخرى ان الكثير من الضباط لم يكونوا يتصفون بالنزاهة ، وشاغلهم الاول ملء جيوبهم باكبر قدر ممكن . ولهذا الغرض ضاعفوا الضرائب الاضافية على الاهالى المحليين ، مما اتاح لهم الفرصة ليس لتغطية نفقاتهم اليومية فقط ، بل والعيش فى ظل الترف ايضا .

وبقيت فى دولتى خيوا وبخارى «المستقلتين» الاشكال الشرقية لاكثر الطغيان الاقطاعى قسوة بفضل مباركة القيصر وحمايته . وكان الخان او الامير يتمتع بحق التصرف بحياة وممات اى فرد من رعيته . اما رجال الدين – حلفاء الاقطاعيين الذين كانوا يدعمون انظمتهم الاستبدادية – فقد وضعوا كل قوة سلطتهم الدينية فى خدمة الامراء الحاكمين .

تعمد كل دولة استعمارية بعد انجاز ضم وتنظيم شئون الاراضى وتأمين الامن فيها فورا الى التنفيذ الكامل للمشاريع التى كانت السبب الاول لغزواتها – اى تحويل المساحات الخاضعة الى سوق

لتصريف منتجات مصانعها والى مورد للمواد الخام من اجل صناعتها . وعندئذ تعار اهمية قليلة جدا الى مصالح المستعمرات نفسها .

وكان القطن اهم مادة خام فى آسيا الوسطى بالنسبة لروسيا . فازداد انتاجه بصورة ملموسة بفضل التدابير المتخذة خصيصا ، سواء الاقتصادية ام الادارية . وغداة ثورة اكتوبر كانت تركستان تزود صناعة النسيج الروسية بنسبة ٥٠ بالمائة من المادة الخام . وفى الوقت نفسه اقام الراسماليون الروس مختلف المنشآت من اجل المعالجة الاولية للقطن ، ومعامل حلجه وفرز البذور ، دون اتاحة الفرصة عندئذ لكى تتطور صناعة النسيج فى آسيا الوسطى وابقاء هذا «الميدان الرفيع» للنشاط بايدى روسيا نفسها . وفى عام ١٩١٣ كانت حصة معامل حلج القطن تربو على ٨٠ بالمائة من الانتاج الصناعى كله فى تركستان . وثمة حقيقة ذات دلالة بالغة جدا تعكس المستوى الواطىء لتطور الصناعة ومحدوديته . فقد شيد الى جانب معامل معالجة القطن الخام وبذوره عدة مصانع للبيرة والصابون والطوب وورش جز الصوف : يبلغ مجموعها ٨١٨ مؤسسة صناعية وشبه حرفية فى جميع المستعمرات الروسية والامارتين . وكانت ٢٠٩ مؤسسات تقوم بحلج القطن الخام من مجموع ٤٢٥ مؤسسة موجودة آنذاك فى اراضى جمهورية اوزبكستان الحالية وتشكل كل قدرتها الصناعية . كما لم توضع الخطط لتصنيع هذه المنطقة بصورة شاملة . فمصير المستعمرة هو البقاء معتمدة على الارساليات من دولة «المتروبول» .

بحكم الاعتبارات الاقتصادية وكذلك العسكرية والاستراتيجية بذلت الحكومة الروسية جهودا فائقة من اجل تطوير طرق السكك الحديدية . واعتبارا من عام ١٨٩٩ قطع تركستان من الغرب الى الشرق خط السكك الحديدية عبر قزوين ، الذى يبدأ من كراسنوفودسك الواقعة على بحر قزوين وينتهى فى انديجان بالقرب من حدود الصين ، مارا عبر عشق آباد ومارى (مرو) وتشارجو وسمرقند وخوجنت . واعتبارا من عام ١٩٠٤ بدات حركة السير فى خط آخر عبر الاورال يربط اورنبورغ بطشقند ، وله فرع يرتبط بالخط عبر قزوين فى جيزاك شرقى سمرقند .

ونظرا لكون طريق السكك الحديدية احدث اداة للتقدم فقد

صارت تربط ما بين آسيا واوربا ، وسمرقند وباريس . وكما اشار لينين فانها تساعد على فتح هذه القارة النائمة بالنسبة الى الراسمالية ، لكنها فى الوقت ذاته تساعد على تغلغل افكار الاشتراكية الى هناك . واقيمت المحطات والمستودعات والورش على امتداد طرق السكك الحديدية . وصار يعمل هناك عدد كبير من العمال اكثرهم من الروس ، وبينهم عدد غير قليل من «الرؤوس الحامية» اى الاشخاص الذين يتمتعون بروح ثورية . انهم ارسلوا بسبب نشاطهم الهدام الى هذه الاصقاع البعيدة ، لكنهم يواصلون هناك ايضا النضال والتوعية وتنظيم رفاقهم الجدد فى العمل — عمال طرق السكك الحديدية التركستانيين ، الذين لعبوا فيما بعد دورا هاما للغاية فى المعارك القادمة ضد النظام القيصرى . وهؤلاء «البروليتاريون ابناء البلاد الاصليون» ، الذين كانوا يعملون ويشاركون فى النضال كتفا الى كتف مع العمال الروس ، واصبحوا فعلا تحت التأثير الشديد لحزب العمال الاشتراكى الديمقراطى فى روسيا وللماركسية ، باتوا يدركون وضعهم كمستعمرين يتعرضون الى الاضطهاد المزدوج من جانب الامبريالية الاجنبية ، وكذلك من جانب الاستغلاليين المحليين . وفى الوقت ذاته كانوا من بين اول من فهم بانهم يتعاملون لا مع روسيا واحدة بل اثنتين — مع روسيا القيصرية ، بحاكميها وعامليها المحليين ، وحلفائها من «بايات» و«بيكوات» ، ومع روسيا الشعبية ، بلاد الفلاحين الفقراء والعمال ، المستغَلين والمضطهَدين ، مثلهم . وهؤلاء العمال يشكلون فى جوهرهم العميق حلفاء «ابناء البلاد الاصليين» بالرغم من سياسة التفرقة والحقد العنصرى ، وبالرغم من قلة الفهم والخرافات وتباين العادات واسلوب التفكير .

وكان يعانى من شظف العيش حول هذه الفئة الضئيلة من العمال الاجراء جمهرة من الفلاحين الفقراء ورعاة الماشية الرحل ، الذين لم تتغير معيشتهم تقريبا على مدى القرون . وقد استمروا يتعرضون للقمع المتواصل من جانب الادارة القيصرية والخانات ، وملاحقات جباة الضرائب والمرابين والظلاميين الذين يدعمهم رجال الدين . ومحافظة تركستان العامة تطالبهم بدفع ضرائب تزيد ثلاثة امثال فى المقدار عن تلك التى تجبى فى روسيا . اما الوضع فى

الامارتين فهو اسوأ ، لانه تحل محل الضرائـــب المفروضة هناك «الارادة الطيبة» للحاكمين ، التي تتغير تبعا لوضعهم المالى ، وكذلك لان مقادير الضرائب تزداد فقط من عام الى آخر . وعلى سبيـــل المثال ، فرضت عشية الثورة على رعايا خان خيوا ٢٥ ضريبـــة مختلفة ، بينما فرضت على رعايا امير بخارى ٥٥ ضريبة . وكان جباة الضرائب يستخدمون شتـــى انواع الحيل لكى ينتزعوا من الفلاحين نصف المحاصيل ، واحيانا ثلثيها ، لان الامير كان يطلب فرض ضرائب جديدة دائما فى كل محافظة دون ان يلغى الضرائـب القديمة .

وحتى ان حاول الدهقان تسديد كل ما يطلبه منه الامير ، فمع ذلك لا يدعوه وشأنه . اذ وجب عليه ايضا ان يؤدى بلا مقابـــل مختلف الاعمال الشاقة . وكان عليه فى الاراضى المروية العمل مع افراد اسرته فى صيانة القنوات . ووجب على المسئول عن توزيع المياه – وتطلق عليه تسمية «ميراب» – متابعة ان يحصل كل فرد على «ايام المياه» المقررة له فقط ، وان يقوم باعمال التطهيـــر والتعمير فى قسم القناة المخصص له . اما عمل الميرابات المحليين فكان يخضع لرقابة كبير الميرابات . وفى نهاية المطاف فان كبير الميرابات هو «وزير مياه» حقيقـــى ، وبالتالى ، يعد من اهـــم الشخصيات فى بلاط الامير ، وكان يسمو على جميع تلك المراتب من موزعى المياه ، الذيـــن يطلب كل واحد منهم حصته مـــن «البخشيش» – سواء كانت نقدية ام عينية .

اما فيما يتعلق الامر بالفلاحين ، الذين لا يتخلصون ابدا مـن قبضة الديون ، فقد كانـــوا بصورة اساسية من العامليـــن بالمحاصة ، وفى اراضى الاغنياء ، الذين يجب ان يعطوهم ثلثـــى المحصول المنتج وحتى اكثر . وفـــي اراضى تركستان الخاضعة للسلطة الروسية مباشرة كانت نسبة ٦٥ بالمائة من الفلاحين هـم من الاجراء ، اى الفلاحين المحرومين من الارض تماما . ففى امارة خيوا كان الحاكم الاعلى والمالكـــون الاقطاعيون الكبار يمتلكون قرابة ٦٥ بالمائة من الاراضى المروية . بينما امتلكـــت الهيئات الدينية والدولة نسبة ١٥ بالمائة . ولم يتبق فى حوزة الفلاحيـن

العاملين فى اراضيهم سوى ٢٠ بالمائة من هذه الاراضى . وساد وضع مماثل امارة بخارى ايضا .

وعلى قمة هذا السلم كان الامير والخانات وافراد حاشيتهم يعيشون كالطغاة حياة خمول وبذخ ، بيد انها ما كانت لتستطيع اخفاء انهيار الدولة المحتوم . وغدت الدسائس والسرقة والفساد وشتى انواع الاستهتار القاعدة السائدة فى البلاط ، وكذلك فى مختلف مراتب الادارة . وكان بالمستطاع شراء كل شىء - سواء الحاجيات ام البشر . وتم شراء ذمم حتى القضاة الذين كانوا يوافقون لقاء رشوة او مبلغ معين من المال على تحويل الذنب من المجرم الغنى الى ضحيته البريئة العزلاء من وسط اجتماعى آخر .

وفى بخارى كان يجرى تنفيذ احكام الاعدام امام قلعة آرك ، او امام مدرسة ميرى-عرب . وتقوم هناك حتى الآن منارة قليان ، التى كانت تلقى من قمتها الى ارضية الشارع الحجرية النساء المتهمات بالخيانة الزوجية . وحين يتعلق الامر بجنايات صغيرة مثل عدم دفع الفلاحين للضرائب ، كان جلادو الامير يكتفون بجلد المحكومين خمسين او خمس وسبعين جلدة بالعصى ، وبعدها يحدث الا ينهض الضحية من مكانه .

وما كانت هذه الافعال تكدر ابدا العلاقات الممتازة بين الامير وممثلى جلالة قيصر روسيا كلها . وليس بوسع بلاط القيصر سوى كيل الثناء الى سلوك عليم خان الذى كان يعمد من اجل اثبات اخلاصه للعرش الى ارغام رعيته على دفع ثمن مدرعة اهداها باسمه الى الاسطول البحرى الامبراطورى ، وكان من الطبيعى ان تطلق عليها تسمية «امير بخارى» . بالمناسبة الم يتلق هذا الامير الاسيوى العلوم العسكرية فى العاصمة القيصرية سوية مع احفاد ابرز اسر النبلاء الروس ؟

وفى المناطق الخاضعة للادارة الروسية لم تكن حياة الفلاحين الفقراء ، ورعاة الماشية - البدو الرحل والحرفيين الصغار من «الاهالى المحليين» افضل حالا من ابناء جلدتهم من امارة بخارى وامارة خيوا . وبالطبع ان الاستعمار قد وضع حدا للحروب القبلية والاقطاعية المتواصلة الى ما لا نهاية والغى العبودية ، بيد انه

جلب مصائب جديدة الى افقر فئات سكان الريف ، بحرمانهم من قسم الاراضي الخاصة بهم (لصالح المستوطنين) .

لقد بدأ الاستيلاء على الاراضي ومصادرتها في سهوب كازاخستان قبل ان يتغلغل الجيش القيصري في جنوب تركستان . اذ كان القوزاق يحصلون حول التحصينات التي اقيمت في عهد بطرس الاكبر (١٦٨٢-١٧٢٥) لقاء خدماتهم الى التاج ، على املاك عمدوا الى زيادتها شيئا فشيئا بمحض ارادتهم . وفي تلك الحقبة كان عدد الروس قليلا نسبيا في هذه المنطقة التي استخدمت اساسا كمكان ينفى اليه المحكوم عليهم في الجرائم الجنائية والسياسية . لكن اعتبارا من عام ١٨٧٠ بدأ الاف الفلاحين الفقراء من روسيا الوسطى ما يشبه «الزحف نحو الشرق» التماسا للاراضي السهبية التي كان يستقر بهم المقام فيها بدون اية رخصة رسمية . واغمضت السلطات عيونها عن ذلك وفرضت الشرعية على استيطان هذه «المناطق الخالية» التي تعتبر في الواقع ملكا للقبائل الكازاخية وتستخدمها كمراع . وساد الاعتقاد في المحافظة العامة بان كل مزرعة روسيا جديدة تشكل ما يشبه «نقطة اسناد» للاستيطان ، لمواجهة السكان المحليين .

بلغت الهجرة الروسية الى كازاخستان اوجها في الفترة ما بين عام ١٩٠٦ وعام ١٩١٤ . وحصل القوزاق الذين مُنحوا امتيازات رسمية مكافأة لهم على حصة الاسد من الاراضي واقاموا ممتلكات مترامية الاطراف (كان جزء منها يؤجر ، بالمناسبة ، الى المهاجرين المعدمين) . لكن قسما كبيرا من القادمين الجدد كانوا فلاحين فقراء ، ساقهم الجوع الى دروب بعيدة عن وسط روسيا واوكرانيا وكل متاعهم ، باستثناء السماور الذي لا غنى عنه ، يوضع في خرج . وما كانت قطع الارض الصغيرة التي يحصلون عليها ليمكن ان تغير وضعهم قياسا الى ما كان عليه في مواطنهم ، لذا - وسيظهر المستقبل ذلك - فخلافا لآمال السلطات الاستعمارية ما كان بوسع القيصرية الاعتماد عليهم البتة في محاربة السكان المحليين حين يحين اوان الانتفاضة . ومهما كان ففي بداية الحرب العالمية الاولى كان الروس والاوكرانيون يشكلون زهاء نصف سكان المناطق السهبية . اما النصف الآخر فهم ليسوا فقط من الكازاخ .

ولا بد ان نذكر ، علاوة عليهم ، قبائل الرحل من ايغوريين ودونغان الذين عبروا الحدود خوفا من الملاحقات فى سينتزيان الصينية واقاموا فى كازاخستان فى الفترة ما بين عامى ١٨٧٠ و١٨٨٠ . وفى الطرف الجنوبى لهذا الاقليم استقر الاوزبكيون المحرومون من الحقوق فى ارض وطنهم . وانهمكوا بممارسة الزراعة ، عاملين فى استثمار الاراضى البكر .

صار الاستعمار الروسى والعلاقات الرأسمالية التى فرضها تخفف وتقوض تدريجيا التراكيب القديمة للمجتمع القبلى . وحلت محل العلاقات الابوية والاقطاعية التى توحد القوم فى كيان متلاحم علاقات اخرى تضطلع فيها النقود بالدور الحاسم . فاصبح الكازاخ يمارسون البيع والشراء ويتعاطون تقديم القروض ، واحيانا يغدون شركاء تجاريين للروس والاوزبيك والطاجيك ايضا . وعمق اضعاف التضامن القبلى القديم من عدم المساواة بين الاغنياء والفقراء وساعد على اظهار الاختلافات الطبقية بصورة اكثر فاكثر . وبات المستغَلون يدركون وضعهم اكثر فاكثر بجلاء متزايد . واكتسبت ملكية الارض مغزى جديدا . وقبل هذا كانت الارض فى غالب الاحيان ملكا عاما للقبيلة او مجموعة القبائل وتستخدم كمرعى ومكانا للسكنى طبقا للاحكام التى تحددها التقاليد او الاتفاق بين شتى اسر المجموعة القبلية . وعند ذاك ادى بناء مسكن شتوى دائم تحيطه الحقول المزروعة واكداس التبن الذى يستخدم كعلف للحيوانات – وهى من الاشياء الجديدة تماما – الى ان اخذ اصحابها يعتبرون انفسهم المالكين الشرعيين للاراضى الكائنة حواليهم . وفى الاحوال الاخرى كان زعماء الاسر الاقوياء – «البايات» – يعتبرون انفسهم المالكين الوحيدين للارض التى تشكل فى الواقع ملكية جماعية . وبهذه الصورة كان افراد القبيلة يغدون في اراضيهم بمعونة السلطات الاستعمارية فى وضع العاملين بالمحاصّة لدى السيد الغنى .

وانبثق وضع مماثل فى اراضى آسيا الوسطى ايضا . واضاف الاستيطان الى الاقطاعيين والاغنياء استغلاليا آخر هو الرأسمالى المهتم بتطوير انتاج القطن . ووجد بين هذا المالى من الطراز الحديث والمنتجين وسطاء يتولون شراء محاصيل القطن بابخس الاسعار ويقرضون النقود باعلى الفوائد . انهم اذ يحصلون على

القروض المصرفية بفائدة تعـادل ٨ او ٩ بالمائة يقدمون الاموال المستحصلة الى صغار المزارعين بفائدة قدرهـا ٤٠ وحتى ٦٠ بالمائة . فيغرق هؤلاء فى لجة الديون الكبيرة . ونظرا لعجزهم عن تسديد الديون يلجأون لبيع حقولهم الى البايـات الاغنياء الساعين الى زيادة رقعة ممتلكاتهم من الاراضى .

واصبح البايات ليسوا من مالكى الاراضى فقط بل ومرابيـن وكبار تجار ايضا . وغدا بعضهـم حتى صناعيين وارباب شتى المؤسسات .

اشار فريق من المؤلفين السوفييت الى انه «فى مطلـع القرن العشرين وجدت فى تركستان الى جانب طبقة الاقطاعيين الضعيفـة برجوازية التجار والمرابين وكذلك البرجوازية الوطنية الصناعية . ولا يهم انها كانت لا تزال قليلة العدد نسبيا وتابعة اقتصاديا الى الراسمالية الاحتكارية الروسية كلية . بيد انها كانت تجيد فعـلا ممارسة الاستغلال على الطريقة الرأسمالية واستندت فى هذا عـلى نطاق واسع على التقاليد الاقطاعية» * . ان هذه الملاحظة لا تتسـم بقيمة نظرية فحسب . اذ اتاح واقـع وجود اختلافات طبقية ، وبالتالى ، مصالح متناقضـة ، ادراك السلوك السياسى لمختلف عناصر السكان المحليين ادراكا افضل حين دقـت ساعة الثورة . ونجد فيما بعد ان انصار الدوائر الحاكمة التى تألبت ضدها اخذوا ينكرون او يطمسون هذا الامر . فنراهم يعلنون عدم وجود طبقات اجتماعية فى المجتمع «الاصلى» فى تركستان وكازاخستان . انهـم بعد ان استحوذوا على حق التحدث باسم «الطائفة القومية الاسلامية» كلها عمدوا الى تصوير الاخيرة ككتلة موحدة – خالية من الصدوع والتناقضات . وما برح غالبية المختصين بالشئون السوفييتية حتى الآن يعالجون هذا الموضوع . فهم يقولون «بما انه لم توجد طبقات اجتماعية فى آسيا الوسطى ، كما ان الصراع الطبقى «غريب عـن الاقطار الاسلامية» اذن استطاعت الاشتراكية تثبيت اقدامها هناك بصورة مصطنعة ، وتحت «الوصاية الروسية» . وانطلاقا مـن هذا

---

* انتصار الافكار اللينينيـة للاممية البروليتاريـة . فريق من المؤلفين . موسكو ، دار «ناؤوكا» ، ١٩٧٤ ، ص ٧٦ .

يستخلصون فكرة مؤداها ان الذين وقفوا ضد الثورة فى تركستان وكازاخستان قد عبروا بهذا حصرا عن الشعور «القومي» العميـــق لشعوبهم . وثمة عيب وحيد فى هـذه الاستنتاجات الفخمة هو انها تقوم على الاكاذيب . وسنرجع الى هذا الموضوع مرة اخرى .

بخارى لا تحتاج الى «عربة الشيطان»

عند فجر القرن العشرين الجديد ادى اغراق الاسواق بالسلـع الصناعية الى ركود الصناعات الحرفية المحليـــة وادقاع الحرفيين بسرعة . ففى بخارى وسمرقند وطشقند راحت الشحنات الصناعية الكبيرة من الانسجة تنافس المنتوج المحلى بنجاح وفى نهاية المطاف ازاحته من الاسواق . وفى بداية القرن العشرين اختفت ورشات صنع الســــلاح فى وادى فرغانـــــة ، والتى ذاع صيتها لجودة البنادق المصنوعة فيها . وتقلصت الحرف التقليدية : المعالجـــة الفنية للمعدن — مثل الطرق على المعادن وصنع الفوانيس والجرار والتدور ، وهو ما كان يصنعه على مر الدهور الصنّاع المهرة فـــى خيوا وسمرقند وبخارى . وبدلا من الاطباق والاباريق القديمـــــة المصنوعة بالطرق على المعادن سرعان ما لــــم يتبق فى الدكاكين سوى السلع الخردة المبتذلة التى تباع فى كافة ارجاء البلاد — من اوكرانيا الى المحيط الهادئ . وبقيت الصناعة الوحيدة القادرة على الحياة هى صناعة السجاد الذى تحوكه النساء .

وتحولت المدينة التى كان يطلق عليها عرب المشرق كلـــــه تسمية «بخارى الشريفة» ، وام المدن ، ومهد الفنـــون والحضارة ، الى شبح لهذه المدينة . لكن الامير يحاول — بالوسائل والاساليب البائسة — الابقاء على الاشكال الآيلة للانقراض من الحياة السابقة . فلم يسمح ببناء محطة قطار فى بخارى . ووجب تحويل طريـــــق السكك الحديـــــد — رمز الحداثة الملعون — بحيـــث يلتف حول المدينة . وفى فترة حكمه على الاقل لم تدنس ، المدينة التى يبلغ عمرها الالف عام ، وكانت تمر بها القوافل المحملة باكبر النفائس ، نفثات الدخان الاسود وقرقرة «عربة الشيطان» — وهى التسميـــة التى اطلقها رجال الدين على القاطرات . وفعلا لــــم يتغير كثيرا

المظهر الخارجي للمدينة ، ان اسقطنا من الاعتبار الابنية المتداعية المتحولة الى انقاض . وكما كانت الحال فى ايام ابن سينا مضت البغال فى الازقة الضيقة الملتوية تتهادى حاملة اصحابها النحيفين او البدينين ، الذين يرتدون الجبب المناسبة لاعمارهم ووضعهم الاجتماعى - من القماش القطنى او الحريرى صيفا والمبطنة بالقطن او فرو الماعز او الضأن شتاء . ويتنقل اكثرهم غنى على ظهور الخيل ، وتتميز ملابسهم الفخمة المزينة بالفرو ، كما فى غابر الازمان ، حين يكون وسط حشد الناس ابان اداء الصلاة فى المساجد . ويبدو ان شيئا من تلاوين الماضى ما برح قائما فى الاسواق والفنادق «كروان - سراى» فى بخارى وسمرقند حيث يفرغ ساقة الجمال والبغال حزم الشاى الاخضر والجرار الفخارية الحاوية على الزيت ، وقوالب السكر ، والتوابل ، والاكياس الكبيرة للرز ، وفى المواسم بطيخ فرغانة الكبير الحجم واللذيذ جدا الذائع الصيت فى الشرق كله . ويسعى هناك حشد الناس ذاته ، والحمالون الذين ينوؤون تحت ثقل حمولاتهم ويصرخون ابان مشيتهم ، لكى يفسحوا لهم الطريق ، وباعة السكاكر والحلوى والكعك العسلى واطباق الشواء والسمك المشوى وباعة العاديات والسجاد وفرو الضأن ، والطلاب والشيوخ (الملالى) ، الذين يعرضون على الناس الصلاة الى الله من اجلهم لقاء قروش معدودات . وتجد الازدحام ذاته فى الازقة التى تفوح منها روائح نتنة . وكما كانت الحال سابقا يسعى الى ممارسة البيع والشراء الاوزبكيون والطاجيكيون والقرهقلباقيون والتتر والهنود واليهود الذين يختلطون ببعضهم البعض فى دوامة مختلفة الالوان . وكما هى الحال سابقا تراهم يتفرقون لدى خروجم من السوق لكى يبلغوا احياءهم الخاصة بهم ، دون ان تراودهم الخواطر حول وجود التمييز العنصرى البالغ القدم ، مما يتراءى لهم وكأنه شىء طبيعى ، وكما كانت الحال دائما فبعد مضى نصف ساعة من غروب الشمس ، فى اللحظة التى يدعو فيها المؤذن الناس الى اداء صلاة المغرب تغلق ابواب المدينة الاثنا عشر وتسلم مفاتيحها الاثنا عشر لكى تبقى فى حوزة كبير حراس الامير .

وبدا للوهلة الاولى ان الحياة الدينية تمضى فى مجراها

السابق . فهناك كثير من المؤمنين يؤدون صلاة الجمعة ، وفرائض الصلاة اليومية الخمس فى مساجد احياء المدينة . لكن الغى منصب «الرئيس» — اى الموظف المعين لرصد الحماس الدينى لرعايـــا الامير والذى يتمتع بحق فرض الغرامات وحتـــى انزال العقوبة الجسدية بمن يخالف قواعد الدين . لكـــن القضاة واصلوا اصدار الاحكام وفق قوانين الشريعة القديمة ، كما واصل العلماء كالسابق حل الخلافات بين الناس باعطاء تفسيرهم للقانون . ورجال الدين كانوا يتولون ادارة المساجـــد ويفرضون رقابتهم على العتبات المقدسة والمزارات . ولـــم تكن تمارس بدونهم اية مراسيم فى الحياة الاجتماعية — سواء حفلات الختان والزفاف او الجنازة . لكن ما قيمة هذه «الحضارة» التى كانوا يحاولون تصوير انفسهم كحماة لها ؟ وماذا بقى منها سالما منـــذ تلك الازمان حين كانت سمرقند وبخارى مركزين عظيمين للمعارف فـــى عهد تيمور واولغ بيك ؟ لقد حافظت بخارى حتى اواسط القرن التاسع عشر ، رغم الانهيار والركود ، على سمعتها كمركز فكرى . وبحلول عام ١٨٦٠ كان ما زال يوجد فيها قرابة المائتى مدرسة دينية . ووجدت المؤسسات العلمية الاخرى فى خيوا وسمرقند ، لكن عدد الدارسين فيها غالبا ما كان لا يتجاوز البضع عشرات . وكـــان المسلمون فى السهوب الشمالية والقفقاس والفولغا وغيرها من المناطق يتوجهون بابصارهم على مدى عشرات السنين الى مراكز المعرفة الاسلامية هذه ، التـــى كانوا يسافرون اليها لطلب العلم ويأتى اليهم منها المعلمون مـــن اجل مؤسساتهم التعليمية . لكن فى بداية القرن العشرين وتحت تأثير الافكار الحديثة التى ظهرت فى الشرائح الاجتماعية الجديدة ، المتعلقة بتطور الصناعة والمشاركة بالتجارة مع روسيا ، لم تعـد الاسر الاسلامية الغنية تبعث باولادهـــا الى بخارى لطلب المعارف التى بدت لهم آنئذ ميتة وعديمة النفع .

وفعلا ، كان الفقه وقواعد القرآن يمثلان موضوعى الدراســة الاساسيين . فتجد الطلاب يحفظـــون ، ويرددون الى ما لا نهاية الاشعار وسور القرآن المكتوبة باللغة العربية الكلاسيكية التى بات المعلمون والطلاب يفقهون مغزاها بقدر اقل فاقل مع كل جيـــل جديد . وكانت هذه «الدروس» التى تتواصل خلال اعوام لا يمكن

ان تختتم سوى بتخريج الملالى الاكثر جهلا من سابقيهم . فما الذى كانوا يستطيعون تقديمه من المعارف الى الآخرين ؟ وفى القرى لم يكن يستطيع القراءة والكتابة سوى شخص واحد او اثنين . اما فى القرى النائية فلم يوجد من يجيد القراءة والكتابة عموما . وفى المدن فحتى بين الموسورين كان الكثيرون لا يستطيعون كتابة اسمهم ولهذا كانوا يحملون خواتم يمهرون بها تواقيعهم . اما فى اوساط النساء فكانت المرأة التى تجيد القراءة امرا نادرا يثير العجب ، وكأنها معجزة يصعب تصديقها .

اما الوضع فى المناطق الخاضعة للسيطرة الروسية المباشرة فلم يكن افضل ابدا . وفى عام ١٩١٥ خصصت لاغراض الرعاية الصحية والتعليم فى المستعمرات نسبة ٣ر٢ بالمائة من ميزانية الدولة ، ولاغراض الامن والادارة نسبة ٧ر٨٦ بالمائة . لذا فليس من العجب ان كان عدد الناس الذين يحسنون القراءة والكتابة بعد سقوط القيصرية يعادل ٢ بالمائة من الاوزبيك و٧ر٠ بالمائة من التركمانيين و٥ر٠ بالمائة من الطاجيك و٢ر٠ بالمائة من القيرغيز والقرەقلباق . وعمليا ساد الجهل المطبق اوساط البدو الرحل .

وكان لا بد وان يثير الوضع الناشئ احتجاج الناس الطليعيين فى ذلك الزمن . وقام المنورون التركستانيون والكازاخيون من كتّاب وفلاسفة وعلماء بفضح الاستعمار الروسى والظلاميين الحائزين على تأييد رجال الدين . وقد ابدى هؤلاء المنورون رهافة حيال افكار التقدم والحرية والاشتراكية ، التى جاء بها الثوريون الروس المتعلمون ، اكثر مما ابدوه الى افكار النزعة الاسلامية والنزعة الاتراكية التى غدت راية البرجوازية الوطنية وبعض «المجددين» • او دعاة «التجديد» ، فدعوا الشعب الى تعميق ثقافته ، وفى الوقت ذاته الى اتاحة الفرصة لانفسهم من اجل امتلاك ناصية العلم والافكار الحديثة بمعونة اللغة الروسية . ونذكر من المنورين العالم الاثنوغرافى والمؤرخ والكاتب الاعلامى والرحالة الكازاخى تشوكاز

• دعاة «الاصول الجديدة» – المشتركون فى الحركة البرجوازية الليبرالية والاصلاحيون . اعضاء حزب الشورى الاسلامى وحزب خيوا الفتاة وحزب بخارى الفتاة . قاموا بعد ثورة اكتوبر بتنظيم الحركة المضادة للثورة فى آسيا الوسطى . – **ملاحظة المحرر** .

ولى خانوف (١٨٣٥-١٨٦٥) ، والكاتب والفيلسوف الطاجيكى احمد دونيش (١٨٢٧- ١٨٩٧) الذى عاش فى بخارى ، وكذلك زكيرجان فرقاط (١٨٥٨-١٩٠٩) الشاعـــر والمفكر والكاتب الاعلامـــى الاوزبيكى الامين لمبادئ الاسلام وفى الوقت نفسه الداعية الى الاصلاح والى تعلم اللغة الروسية وآدابها والذى سخر فى اشعاره الهجائية من علية القوم ، وطبعا الشاعر والفيلسوف الكازاخى اباى كونانبايف (١٨٤٥-١٩٠٤) شاعر الحرية والتقدم الذائع الصيت .

لكن بعد ان باتت العاصفة المحققة قريبة جدا من كان يعير فى القصور الانتباه الى هذه الاصوات ، ان لم يكن لغرض ارغامها على السكوت ؟ ومن كان يعنى بتهدم البلاد من الداخل- بما تعانيه من الاملاق والجوع والجهل ؟

وكان بوسع الارستقراطيين الروس والامير والخانات والبايات مواصلة الاعتقاد بان تلك الحياة التى يتمتعون بها ، وهم يتأملون جمال القبب الزرقاء والذهبية الشامخة فى السماء المتألقة فوق ابنية المدارس والمساجد فى بخـــارى وسمرقند ، ستبقى سعيدة الى الابد .

بيد ان العودة الى الواقع ستكون قاسية بالنسبة لهم .

القسم الثانى

عاصفة على تركستان

انتفاضات فى «سجن الشعوب»

ما انفك البرق يومض فـــى سماء المناطق الشرقية مـــن الامبراطورية ، وكذلك فى وسط قسمها الاوربى ، منذ امد بعيد ، حتى هدرت العاصفة فى عام ١٩١٧ .

وفعلا ، فقد ساد هدوء نسبى فقط فى المستعمرات الروسية ، وكذلك فى امارتى خيوا وبخارى على مدى العقود التى سبقـــت الثورة . فالصراعات الداخلية بين الاقطاعيين ، ودعوات الامير او الخان الى شن الغزوات والنضالات التـــى تغرقها القوات القيصرية بالدم ، كما حدث مثلا فى انديجان عام ١٨٩٨ ، والمظاهرات الجارية تحت الشعارات الاجتماعية والمعادية للاستعمار ، مثل «اضطرابات الكوليرا» فى طشقند عام ١٨٩٢ ، كانت تتعاقب الواحدة تلـــو الاخرى . وبالرغم من عدم حدوث ايـــة انتفاضات فى المدن او الارياف على نطاق واسع ، قادرة على تغيير الوضع القائم ، فان الوضع فى آسيا الوسطى لم يكـــن هادئا تماما كما يؤكدون فى سانكت-بطرسبورغ . وكما هى الحال فى الجزائر المستعمرة حيث كان عشرات آلاف الفلاحين يطردون من اراضيهم ، فان تغلغـــل الرأسمالية القيصرية اوصل غالبية الفلاحين (الدهاقين) الى الفقر . وكان بعضهم يتوجه الى الجبال للخلاص من الجوع والفاقة ، من اجل ممارسة عيشة «قـطّاع الطرق الاخيار» المترعة بالاخطار . فكانوا يهاجمون الاغنياء وموظفى القيصر او الامير ، ومزارع المستوطنين القوزاق الاثرياء . واستمرت مثـــل هذه الغارات طوال السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر فـــى ثلاث مقاطعات — فرغانة ،

سمرقند ، سيحون حيث بلغ الاستغلال الاستعماري فيها ابسع صورة .

اما في المدن فقد كانت البروليتاريا المحلية قليلة العدد ولم تتميز بمستوى وعي سياسي عال . الا ان ثورة ١٩٠٥-١٩٠٧ غدت بالنسبة لها مدرسة سياسية ممتازة . وشارك العمال من الاهالي المحليين لاول مرة الى جانب الكادحين الروس العاملين في المصانع الخاصة وفي ورش السكك الحديدية ، في المظاهرات والمسيرات التي جرت بطشقند وفيرني (ألما-آتا) وغيرهما من المدن . وشارك الاهالي المحليون لاول مرة في الاضرابات الى جانب المهاجرين الروس والاوكرانيين والبيلروس والبولونيين .

لقد اتسمت هذه النضالات المشتركة باهمية سياسية كبيرة رغم ضيق نطاقها . واستبقت - مع وجود الخرافات التي بقيت ردحا طويلا من الزمن وروح «روسيا العظمى» التي فضحها الشيوعيون وناضلوا ضدها بلا كلل - التحالف التاريخي بين الثوريين الروس والمحليين في النضال ضد الطغيان القيصري والاقطاعيين الاستغلاليين المحليين . وكان الروس وغيرهم الذين يساهمون في الاعمال المشتركة ويطرحون المطالب الاقتصادية والسياسية ، يدركون شيئا فشيئا ان مصالحهم وآمالهم مشتركة - مهما كانت قوميتهم ودينهم ولغتهم . وغالبا ما يبدي المختصون في الابحاث السوفييتية تجاهلا لهذا العامل الهام للنضوج السياسي ، او انهم حين يتناولونه بالبحث رغم كل شئ يصورونه وكأنه «حجة دعائية» . لان شغلهم الشاغل هو اظهار انه وجدت وما زالت قائمة وستبقى العداوة المتأصلة بين الروس وغيرهم .

وبينما كانت ثورة ١٩٠٥ تهز اركان روسيا عمدت السلطات في بطرسبورغ الى ابداء التفاؤل . وساد البلاط الاعتقاد بان الروس ، الذين استقر بهم المقام في الاطراف ، لن يعمدوا الى الانتفاضة ، لانهم سيتذكرون بانهم روس قبل كل شيء . ويجب ان تدفعهم الروح الوطنية قبالة «خطر الاهالي المحليين» الى البقاء مخلصين لحكومة«هم» ولامة«هم» .

وهذا الاعتقاد يعني التقليل من اهمية الوعي السياسي للعمال الذين اثرت الدعاية الثورية فيهم بالغ التأثير . وما كان الخمسمائة واربعون الف روسي في اطراف الامبراطورية (حسب معطيات عام

١٩١٧) يمثلون البتة اى تكتل غير متمايز ، يتالف من الاستغلاليين الاستعماريين حصرا . نعم ، كان بينهم القوزاق الذين يديرون املاكهم المترامية الاطراف مثل قياصرة صغار ، والصناعيون والتجار الاثرياء ، بيد ان غالبية العمال والفلاحين المهاجرين الى هناك كانوا يمارسون الاعمال الشاقة ذاتها التى مارسوها فى مواطنهم . فعلى سبيل المثال ، فى القرى القديمة الكائنة فى اراضى سيميريتشيه التى جرى استيطانها منذ امد بعيد كان خمس الاثنى عشر الف اسرة من الفلاحين المستوطنين ، البالغ عددهم حوالى ٨٠ الف شخص ، لا تمتلك اية ارض . ولم يوجد فى حوزة نصف هذه الاسر المالكة حتى «أربان» واحد ، اى اقل من خمسة هكتارات . وفى نهاية المطاف وجب على ثلثيها ممارسة اعمال اضافة الى عملها فى الزراعة ذات الموارد الضئيلة من اجل ان تقيم اودها . ويجرى تشويه الواقع كثيرا حين يعمد بعض المؤلفين الغربيين الذين تعوزهم «الحجة» الى تصوير الامر كما لو ان جميع الروس القاطنين فى آسيا الوسطى كانوا يجنون المنافع من الاستيطان ولهذا اصبحوا مدافعين عنه بالبديهة . لكن ان كانوا جميعا اصحاب امتيازات فكيف تفسر عندئذ ضراوة نضالاتهم الاضرابية ، وما هو سبب عنف معاركهم الثورية ؟ اذ كانت قوات القيصر لا تقمع نضالات الدهاقنة والبدو الرحّل فقط : من اوزبيك وتركمان وقيرغيز وطاجيك او كازاخ — ، بل كانت تضطر احيانا الى مواجهة الفلاحين الروس الثائرين .

وهكذا فبالرغم من ان الاضطهاد والاستغلال الاستعماريين يتوخيان تحقيق الاهداف ذاتها فى جوهر الامر ، فانهما لا يتسمان فى الوقت ذاته بسمات متشابهة على الاطلاق مهما كانت الرايات التى يتظللان بها وفى الاصقاع جميعا . ففى ايام الامبراطورية البريطانية كان يوجد فى الهند ٩٠ الف انكليزى . وكان جميع رعايا صاحبة الجلالة سواء رجال اعمال ام موظفين او ضباطا يعيشون فى بحبوحة ويحيط بهم «بويات» يتقاضون اجورا زهيدة . وكانوا جميعا من الجنتلمانات الذين يلعبون «البولو» ويمارسون صيد النمور ، ولم يوجد بينهم اى فلاح ، واى عامل ، ناهيك عن عامل فقير . . . فهم يعتقدون ان الاعمال التى تليق بـ«الاهالى المحليين»

لا تليق بالانسان الابيض ، المخلوق من اجل تزجية الوقت بصورة انبل !

ان وضع الروس فى آسيا الوسطى مغاير لذلك تماما . ويمكن مقارنته بوضع الاوربيين الذين وفدوا للاقامة فى الجزائر ايام الفترة الاستعمارية . وبالرغم من انهم عاشوا بشكل افضل من «الاهالى المحليين» الا انهم لم يكونوا جميعا البتة اغنياء «يرفلون فى ابهى حلة» . ففى الجزائر اصبح خطأ ومأساة هؤلاء الناس بالذات فى انهم نسوا هذه السمة الرئيسية لحياتهم وباتوا يصدقون فى حلول اللحظة التى تتطابق فيها مصالحهم مع مصالح السادة المستعمرين .

بدأ منذ مطلع القرن العشرين فى آسيا الوسطى نشاط حزب العمال الاشتراكى الديمقراطى الروسى (الذى غير اسمه فى عام ١٩١٨ بمبادرة لينين الى حزب البلاشفة الشيوعى الروسى) ، الذى سادت فيه كلمة البلاشفة منذ المؤتمر الثانى . ومنذ تلك اللحظة بالذات بدأ التطور المكثف للدعاية الماركسية .

وفى بادئ الامر لم يكن النشطاء الحزبيون - وجلهم من الروس - كثيرى العدد (حوالى الف وخمسمائة فى جميع مناطق كازاخستان الحالية) ، الا انهم ابدوا نشاطا واندفاعا كبيرين . وما كان يمكن ان يحدث غير هذا اذا ما عرض المرء نفسه عن قصد الى خطر اعمال الاضطهاد المستمرة والقاسية من جانب السلطات .

بالاضافة الى ذلك وجب عليهم دوما تجاوز حاجز الريبة التى كان يبديها ابناء جلدتهم والاهالى المحليون على حد سواء . وتقع جريرة ذلك ، من ناحية ، على عقدة التفوق «الروسى العظيم» التى ولدها النظام الاستعمارى ، ومن ناحية اخرى - عدم ثقة المظلومين على مدى القرون . وبغية اذابة هذا الجليد قام الحزب بعمل توعية دؤوب ، دفاعا عن مطالب المستغَلين ولفضح السياسة القيصرية فى بث التفرقة وممارسة الاضطهاد القومى . واعلن فى برنامجه ان غايته تحقيق المساواة التامة بين المواطنين جميعا بغض النظر عن العرق والدين والجنس ، ومنح كافة الشعوب فى الامبراطورية حق تقرير المصير ، واستخدام كل شعب لغته القومية فى التعليم وغيره من ميادين الحياة الاجتماعية .

اذن ، لم «يهمل» الثوريون الروس الذين عملوا فى آسيـــا الوسطى وقتذاك المسالة القومية ، كما يحاول بعض المؤلفين فى الغرب تصوير ذلك فى الوقت الحاضر . فقد طرحت هذه المسألة ونوقشت فى الجرائد والنشرات التى كان يصدرهـــا البلاشفة فى روسيا وكذلك فى تركستان منذ اعوام ١٩٠٥-١٩٠٧ .

وعمل البلاشفة على فضح سياسة القيصرية فى ممارسة القمع والروسنة ، وفى الوقت ذاته اجروا مناقشات مع ممثلى الفئات العليا للمجتمع «المحلى» ، منتقدين سياستهم القومية المتعصبة والاصلاحية . وشرح البلاشفة قائلين ان الاغنياء المحليين اذ يطرحون موضوعة المجتمع الاسلامى «اللاطبقى» يتسترون على مشاركة الاستغلاليين المحليين فى شئون السلطات القيصريـــة ويلتزمون الصمت عن التضامن الطبيعى الذى يجب ان يوحد مـــا بين جميع المستغَلين بغض النظر عن انتمائهم القومى .

وبهذه الصورة طُرحت جميع القضايا الاساسية منذ زمن الثورة الروسية الاولى . وكان يقاوم القيصرية تياران – فمن جهة ، لينين وحزبه يعتقدان ان من غير الممكن الحديث عن اى استقلال وتقدم فعلى بدون ثورة اجتماعية يقوم بها الكادحون مهما كانت تبعيتهم الاثنية ، ومن جهة اخرى ، اولئك الذين رفضوا اتّباع طريـــق الانقلاب الاجتماعى الجذرى ، وانكروا وجود مصالح متناقضة داخل المجتمع «المحلى» وتكتلوا تحت شعار القومية البرجوازية والنزعة الاسلامية والنزعة الاتراكية . بيد ان خيار هذا المعسكر او ذاك لم يكن يسيرا حتى بالنسبة لمن كان يدرك ضرورة الصراع . وكانت سيطرة التقاليد الابوية فى مجتمع حافظ من نواح كثيرة على السمات الاقطاعية عامل كبح بالنسبة لحركة الجماهير ، سواء فى المستعمرات الروسية ام فى الاصقاع المستقلة شكليا ، الخاضعة لسلطة البايات المباشرة ، وكذلك لنفوذ الملالى الدينى ، الدين كانوا يعارضون بضراوة اية فكرة جديدة . ولم ينبثق دفعة واحدة البتة ادراك وحدة مصالح كافة الكادحين ، من روس وغيرهم ، حتى لدى العمـــال المحليين الذين كانوا يعانون انفسهـــم من الاستغلال الراسمالى الحديث . وكانت الخاصية الرئيسية للانسان فى الوسط المحلى هى تبعيته ، سواء كان فقيرا ام غنيا ، الى جماعة واحدة ، والتى تم

فيها على اساس وحدة التقاليد والاخلاق والعادات والدين تحقيق وحدة ترفض «الغرباء» ، باعتبارهم من ابناء امة مضطهـِدين بالدرجة الاولى .

كما كان وضع الكادحين الروس لا يقـــل عن هذا صعوبة . وبالرغم من عدم تمتعهم باية امتيازات اقتصادية قياسا الى من عاش فى روسيا (كان عامل السكك الحديدية فى تركستان يتقاضى اجرة العمل نفسها التى يتقاضاها العامل فى موسكو) ، فان وضعهم لا تجوز مقارنته بوضع اصغر موظفى القيصر ، وكانوا يعيشون فى المجتمع الاستعمارى القائم على اساس احتقـــار «الاهالى المحليين» وعلى مسلّمة تفوق الاوربيين . اذ يفرق مـــا بين «الاهالى المحليين» والروس ليس فقط الاختلافات فى مجال الثقافة واللغة والعادات ، بل وكذلك الاختلافات الاقليمية البحتـــة . وكان الروس الذين يقطنون فى ذلك القسم من المركز السكنى الذى تطلق عليـــه تسمية «المدينة الجديدة» ، لا يتصلون تقريبـــا بابناء الاهالى المحليين ، الذين يعيشون فى الاحياء البائسة بالمدينة القديمة . ولا تستثنى عن ذلـــك المناطـــق الريفيـــة : اذ كان «الاهالى المحليون» والروس يعيشون فى قرى مختلفة . وساعد هذا الوضع فقط ، من ناحية ، على اشاعة تفكير الدولة العظمى ، ومن جهـــة اخرى - على ابراز الخصائص المحلية . وقد شن البلاشفة ضد هذين التيارين بالذات ، اللذين ترجع جذورهما الى المجتمع الرأسمالى والاستعمارى ، نضالا مليئا بالصعوبات ، واحيانا بالاخطاء المأساوية ايضا ، استمر فترة طويلة حتى بعد الثورة .

فمنذ يونيو (حزيران) عام ١٩٠٧ ، وفى اعقاب اخماد الثورة ، بدأت فترة الرجعية القاسيـــة ، التى ساعدت الخاضعين لسيطرة الاستعمار فى الاجابـــة عن السؤال البسيط والاساسى فى نفس الوقت : من هم الاصدقاء ، ومن هم الاعداء ؟ وانصب القمع على الثوريين والديمقراطيين فى كافة انحاء الامبراطورية . ففى الفترة من ١٩٠٧ الى ١٩٠٩ ، وحتى بموجب الارقام الرسمية المخفضة بلا ريب ، صدرت الاحكام على ٢٦ الف شخص لاسباب سياسية ، وحكم بالاعدام على اكثر من ٥ آلاف شخص .

وفى تركستان والمحافظة السهبيـــــة العامة وحد الموظفون

القيصريون سوية مع الدوائر الحاكمة فى امارة خيوا وامارة بخارى من اجل اضعاف الموجة الثورية بدعم البايات . فنجدهم يشاركون معا فى اعمال القمع . ووجهت اكثر الاعمال قسوة ضد البلاشفة . فجرى الغاء الحلقات الثورية واغلاق الصحف فى طشقند وبيشبيك وعشق آباد وبتروبافلوفسك وسيميبالاتينسك وغيرها من المدن . ومُنعت جميع المطبوعات الماركسية او التقدميـــة . ومن مجموع خمسمائة شخص من نشطاء حزب العمال الاشتراكى الديمقراطى الروسى الذين عملوا فى تركستان لم يتسنّ سوى لمائة شخص النجاة بانفسهم والاختفاء . وقمعت بقسوة تلك «الحريات» الهشة القليلة التى منحها القيصر الى رعايـــاه من «الاهالى المحليين» تحت ضغط الثورة . ولم يعط النظام الجديد الذى اقره الدومـــا اية حقوق انتخابية الى الاهالى المحليين . وراحت السلطات تعتقـــل وتسجن وتنفى العمال الثوريين والدعـــاة فى اوساط الفلاحين . وانهالت البعثات التأديبية على القرى الثائرة . والى جانب ذلك اشتدت سياسة الروسنة بالاكراه .

واعطت نبضة جديدة الى الحركة الثورية الحرب العالمية الاولى التى فضحها لينين باعتبارها امبرياليـــــة ولصوصية ، ودعا الى تحويلها الى حرب اهلية ، موجهة ضد الحكم الاستبدادى والاضطهاد القيصرى . وقد اشتد فحسب الاستغلال والنهب اللذان مارستهما الادارة الاستعمارية بعد دخول روسيـــا الحرب . ففُرضت ضرائب جديدة على الفلاحين الفقراء والمعدَمين والرعاة – البدو والحرفيين والعمال . وصارت تقل شيئا فشيئا الحبوب المنقولة من روسيا ، بينما ازدادت اسعارها . وتفاقم الوضع بسبب رداءة المحصول ، وبالتالى ، بسبب الجوع .

واصدر القيصر قرارا غدا بمثابة فتيل الاشعال فى برميـــل بارود . ففى يوم ٢٥ يونيـــو (حزيران) عام ١٩١٦ صدر الامر بتعبئة جميع الذكور من رعايا الامبراطورية لاداء الخدمة العسكرية الالزامية . ووجب على تركستان تهيئة ٢٥٠ الف مجنـــد كان من المقرر استخدامهم فى وحدات المؤخرة على الجبهات الاوربية . وبلغ غضب الشعب ذروته بسبب الاجحاف السائد لدى انتقاء الافراد الى

القوات . ولم تكن هناك اية فرصة للفقراء تجنبهم التجنيد القسرى ، اما الاغنياء – ابناء البايات او كبار التجار – فكانوا يتحايلون فى التهرب من الخدمة فى الجيش ، برشوة موظفى القيصر او دفع البدل . واندلعت اولى شرارات الانتفاضة في خوجنت وطشقند . وانتشر اللهيب من هناك الى المراكز السكنية الاخرى والارياف . وهبت لاقتحام الابنية الرسمية حشود الفلاحين الفقراء الذين انضم اليهم الفقراء من الحرفيين والحمالين وعمال المياومة والعاطلين ، وكذلك عمال المصانع المسلحين احيانا بالعصى لا غير . واخذوا يستولون على قوائم المدعوين للخدمة ويمزقونها ويحرقونها . وفى بعض الاحيان كان اليأس يبلغ بهم حد قتل الموظفين الروس و«المحليين» الذين كانوا يحاولون مقاومتهم .

وسرعان ما انتشرت الانتفاضة التى هزت فرغانة ، وكذلك مقاطعتى سيحون وسمرقند ، الى مناطق شاسعة . وجذبت اليها البدو الرحل فى السهوب وكذلك المجموعات الاثنية القاطنة فى جنوب سيبيريا . وعموما بلغ عدد المشتركين فيها اكثر من ١٠ ملايين شخص من مختلف القوميات . وبلغت الانتفاضة نطاقا كبيرا فى كازاخستان . وتولى قيادتها هناك البطلان الوطنيان للشعب الكازاخى أ . إيمانوف وأ . جانغيلدين .

لقد تميزت انتفاضة عام ١٩١٦ قبل كل شيء باتجاهها المعادى للاستعمار . لكن نظرا لكونها عشوائية وبالرغم من غياب قيادة موحدة وبرنامج موحد لها ، فانها اتسمت مع ذلك بطابع اجتماعى ساطع . ففى غالبية الاحوال كان الثائرون يفرقون ما بين اعدائهم – موظفى القيصر والكادحين الروس ، الذين ما كانوا يكنون لهم البغض . وفى الوقت نفسه لم يرحم الثائرون ابناء جلدتهم من الذين كانوا يجنون المنفعة من الاستغلال الاستعمارى .

لا مراء فى ان هذه الحقائق لا يجوز اعتبارها شاهدا دامغا على ظهور الوعى الاممى على نطاق واسع . الا انها تنفى استنتاج بعض المؤرخين الذين يرون ان الحقد بين العناصر والاباطيل موجودة فى «طبيعة الانسان» ، بموجب قانون ما غير مدون . وتكشف تجربة الثورة كل زيف هذه الموضوعات المتشائمة .

وتطورت الاحداث بصورة عاصفة ايضا فى اوساط المستوطنين

الروس . ان العمال والفلاحين الفقراء الروس لا يدينـــون فقط الثائرين على الحكم الاستبدادى «للغرباء» ، بل ويعمدون احيانا الى العمل سوية معهم . فيرفض الجنود والضباط – من البلاشفـــة والمتعاطفين معهم – المشاركة فى اعمال القمع . وفى قوقند رفضت كتيبة باكملها محاربة الثائرين تحت تأثير ف . فيلكنشتين احـــد نشطاء الحزب .

وبعد سحق الانتفاضة تمكنت السلطات القيصرية فى نهايـــة المطاف من تنفيذ مرسوم التجنيد الاجبارى فى الجيش . وبذلك وجد عشرات آلاف الاوزبيك والطاجيـــك والكازاخ والقيرغيز والتركمان انفسهم منجرين الى العاصفة الثورية ، التى لاحت تباشيرها الاولى فى روسيا المحاربة .

وتنفيذا لامر السلطات القيصرية اقتيد عنوة الى المناطق المحاذية للجبهة عشرات آلاف الفلاحين ورعاة السهوب فى تركستان ، وصاروا يعملون فى المراكز الصناعية اما فى مد طرق السكك الحديدية وبهذا تمرسوا فى السياسة جنبا الى جنب مع الثوريين الروس . واخذوا باتصالهم مع شغيلة القوميات الاخرى ، ومع الجنود الذين باتوا يوما بعد يوم يكرهون الحرب القيصرية اكثر فاكثر ، يدركون الاسباب الحقيقية لفقر واضطهاد شعبهم . كما تنامى لديهم ادراك باية وسيلة سيتمكنون من النضال فى سبيل تحررهم .

النجمة الحمراء الظافرة فى تركستان

فى ١٢ مارس (٢٧ فبراير حسب التقويم القديم) عام ١٩١٧ انتصرت الثورة فى بتروغراد . وبعـــد يومين وصل النبـــأ الى تركستان ، لكن الحاكم العام كوروباتكين يحول دون انتشـــاره رجاء تغير الوضع لصالح القيصر . ولكن بلا طائل – فقد اجتـــاح الاعصار كافة ارجاء البلاد . . .

وفى ١٦ مارس نشرت كافة صحف تركستان البرقيات الواردة من العاصمة . وعقد عمال السكك الحديدية اجتماعات عفوية فى مرائب القاطرات . وورد فى الشعارات مطلب تشكيل سوفييتات الكادحين فى جميع المدن والقرى . وتم بسرعة تكوين السوفييتات من قبل العمال الثوريين فى طشقند وعشق آباد وتشارجو وغيرها

من الاماكن . ومن المهم الاشارة الى ان الروس لم يكونوا اكثر الاطراف اهتماما بالاحداث الجارية . اذ كان «الغرباء» ، طبعا ، اكثر الناس فقرا وتعرّضا للاستغلال ، وصاروا يتابعون التغيرات المرتقبة باهتمام بالغ . وفتح الخطباء البلاشفة امامهم آفاق الحياة الجديدة والحرة . فاقترحوا على الفلاحين الاستيلاء على الاراضى ، التى سلبها منهم المستوطنون الروس الاغنياء والبايات . وفى نهاية المطاف اكتسب صياغته ذلك الامل الغامض الذى لم يجرؤ احد على تصديقه .

وفى ١٨ مارس احتفلت سمرقند بسقوط القيصرية باقامة مظاهرة ضخمة وبهيجة . ومضى الروس والاوزبيك والطاجيك واليهود وابناء جميع القوميات القاطنة فى المدينة جنبا الى جنب مع جنود الحامية مرددين انشودة جديدة بالنسبة لغالبيتهم هى «نشيد الاممية» . وحدث الشيء نفسه فى بيشبيك وفى اوش . وفى خوجنت اجتمع العمال والفلاحون القادمون من مختلف الاماكن بالقرب من ثكنة الحامية وتآخوا مع الجنود ، المستعدين للذهاب معهم الى اجتماع عُقد فى مدينة «الاهالى المحليين» . واستُقبل بالتصفيق فى كل مكان الخطباء الذين كانوا يهتفون بشعارات البلاشفة .

ولم يكن بوسع امارة بخارى ايضا تفادى الاندفاعات الحماسية التى اجتاحت كافة ارجاء الامبراطورية القيصرية السابقة . وقام عمال السكك الحديدية هنا بفعاليات واسعة النطاق . ففى يوم ٢١ مارس عقد فى بخارى «الجديدة» اجتماع حضره ستة آلاف شخص . وبعد مضى عدة ايام قام الثائرون بنزع سلاح شرطة الامير وباقتحام السجن وباطلاق سراح السجناء السياسيين منه . وكان بين من اطلق سراحهم رجل لا يكاد يقف على قدميه . اذ كان ما يزال يعانى من آثار الخمسة وسبعين جلدة التى انهال بها عليه الجلادون من اتباع الامير عليم خان بسبب افكاره العاطلة . واسمه صدر الدين عينى ، الذى اشتهر فيما بعد باعتباره مؤسس الادب الطاجيكى السوفييتى . وقد الهمته مغادرة سجن الامير ، ولقاء الثورة ، لنظم قصيدة «انشودة الحرية» ، التى لُحنت لها فيما بعد موسيقى مستوحاة من الحان «المارسيلييز» ، الذى كانت تُسمع ايقاعاته الحماسية سابقا ابان الاضرابات والمظاهرات والصدامات الدموية مع القوزاق . وفيما بعد صار «المارسيلييز» يتردد اكثر من مرة ،

ومع كلمات عيني ، في بخاري التي هبت من اجل طرد الامير من العرش .

لم تقرر ثورة فبراير ١٩١٧ اي شيء رغم الآمال العظيمة التي اثارتها : فقد استمرت الحرب ، وانتظر الفلاحون كحالهم سابقا الارض المنشودة ، بينما انتظرت الشعوب المضطهَدة انسام الحرية . ومع ذلك ظهرت حريات سياسية كثيرة مع سقوط نظام القيصرية . وصار بامكان البلاشفة عندئذ مخاطبة الجماهير الشعبية وتنظيمهم من اجل المعارك الثورية المقبلة . وفي الوقت نفسه حصلت البرجوازية المحلية في مناطق «الاطراف» السابقة للامبراطورية القيصرية – من اوكرانيا حتى القفقاس وآسيا الوسطى – على حق تأسيس احزابها الوطنية .

وفي ابريل عام ١٩١٧ نشرت الحكومة المؤقتة مرسوما يقضي بتشكيل لجنة تركستان في طشقند ، والتي انتقلت اليها كافة السلطة في تركستان . وقد تراسها ن.شيبكين عضو حزب الكاديت . وفي مايو ، وبعد تشكيل الحكومة الائتلافية في بتروغراد ، اجريت بعض التعديلات على قوام هذه اللجنة : فقد انضم اليها المناشفة والاشتراكيون الثوريون ، لكن دون ان يطرأ اي تغيير على سياستها . وفي بتروغراد وطشقند وجميع المدن الاخرى في الامبراطورية ، حيث شارك مئات آلاف العمال والفلاحين والجنود ، الذين استولت على عقولهم الموجة الثورية ، في الاطاحة بالقيصرية ، كانوا ينتظرون من الحكومة القيام باعمال ملموسة ، وليس العبارات الفخمة الجوفاء التي كان يطلقها السياسيون البرجوازيون الموجودون في السلطة .

وكانت خيبة امل الجماهير الشعبية هذه محسوسة في تركستان بقدر اكبر مما في الاماكن الاخرى ، لانه لم تنَفّذ هناك بعض التدابير التي من شانها ان تحسن وضع العمال . وبينما حقق العمال في روسيا مطلب العمل ثماني ساعات في اليوم ، كان عمال تركستان في عام ١٩١٧ يعملون فترة اثنتي عشر ساعة في اليوم . ولم يتحطم النظام الاستعماري بالرغم من الوعود والبيانات حول «المساواة بين جميع شعوب الامبراطورية» . وفي جوهر الامر

بقيت الحكومة المؤقتة ملتزمة بسياسة الاضطهاد والاجحاف والاستغلال . ففي «بيان الحقوق» الموجه الى «الشعوب الاصلية» لم يمض ابعد من الاعتراف بـ«حق الفرد» و«المساواة بين جميع رعايا الامبراطورية السابقة» . انه بيان شكلي صرف ، لا يلزم باشياء كثيرة ، نظرا لعدم اشارته الى المساواة وحقوق الشعوب . ونشير بهذه المناسبة الى انه بعد مرور اربعين عاما قدمت الحكومة الفرنسية على لسان غي موليّه * الى الجزائريين ، الذين هبوا للنضال من اجل حقهم في الوجود كأمة مستقلة ، حججا من هذا النوع . اذ عرضت عليهم «المساواة في الحقوق مع الفرنسيين» ، بينما رفضت الاعتراف بشرعية طموحهم الى الاستقلال .

لقد عجلت ثورة فبراير ١٩١٧ بتوحيد ممثلي البرجوازية المحلية . ان اصحاب الاطيان والتجار الذين جمعوا الثروات وارباب الاعمال والصناعيين هم في الوقت نفسه خصوم وحلفاء الراسمالية الروسية . انهم خصومها ، لان وجود المستعمرين المهين لهم ، يحول بينهم وبين ان يكونوا اسيادا حقيقيين ويشكل عقبة امام مطامعهم السياسية والاقتصادية في آسيا الوسطى وكذلك في المقاطعات الاخرى من الامبراطورية . كما انهم حلفاء الرأسمالية الروسية لانهم بحاجة الى العمل في جبهة موحدة ضد الحركة الشعبية الموجهة ليس ضد الاضطهاد القيصري فقط ، بل وضد ذلك النظام الاجتماعي الذي هم مدينون له بوضعهم . وفيما بعد صاروا يقفون بلا تردد الى جانب الضباط والموظفين القيصريين والقوزاق — مالكي الاراضي والفئات الاخرى التي تجني المنافع من الاستعمار . اذ لا يوجد خيار : ففي مواجهة الثورة الاشتراكية كانت البرجوازية الوطنية تعتبر حراب الجيش الروسي افضل حماية لها .

كانت الامم المختلفة تتواجد في آسيا الوسطى ، كشأنها في المناطق الاخرى من الامبراطورية السابقة ، في خليط متشابك من القبائل والجماعات القومية ، التي تتوحد وتتحطم او تتخاصم مع بعضها البعض طبقا للظروف . وكان الانتماء الى الاسلام او الانتماء

---

* غي موليّه — الشخصية السياسية الفرنسية ورئيس الوزراء (١٩٥٦–١٩٥٧) . — **ملاحظة المحرر .**

الى اسرة الشعوب الاتراكية يعتبران العنصرين الهامين الوحيدين للتوحد ، وارتكزت عليهما بالذات ايديولوجيا وشعارات البرجوازية الوطنية : النزعة الاسلامية او النزعة الاتراكية ، او ربما الاثنتان معا . وكما يحدث فى التاريخ فى غالب الاحيان لبس رداء الدين التمرد على الاضطهاد الاجنبى والسعى الى المحافظة على الوجـــه القومى . فنجد ان البرجوازية المحلية تسعى بتمجيدها الاسلام الى ان تجمع حولها ، بغض النظر عن الانتماء الى فئات اجتماعيـــة مختلفة ، جميع الاوزبيك والتركمانيين والكازاخ والتتر ، وممثـل الشعوب «الاسلامية» الاخرى .

وفى مايو عام ١٩١٧ افتتح بموسكو المؤتمر الاسلامى الذى حضره بضع مئات من المشتركين القادمين من «المقاطعات الاسلامية» للامبراطورية - من ضفاف الفولغا ، ومن القرم والقفقاس ، ومن المحافظتين العامتين السهبية والتركستانية والاماكن الاخرى . وتعكس القرارات الصادرة عنه اضاليل وتناقضات التيارات المختلفـــة الممثلة فيه . فمثلا يطالب احد القرارات الصادرة بمنح «الحكـــم الذاتى الاقليمى القومى» فى «جمهورية ديمقراطية تقوم على اساس فيدرالى» . لكن بعد مرور عدة اشهر طرحت فى المؤتمر الاسلامى الثانى فقط مسألة «الحكم الذاتى الثقافى القومـــى» . وكان هذا الشعار (المماثل للشعار الذى طرحه البوند اليهودى) عبارة عـن خطوة كبيرة الى الوراء بالقياس الى مطلب الحكم الذاتى الاقليمى الذى طُرح سابقا .

وكان من اكبر المنظمات القومية البرجوازية المتنفذة فـــى آسيا الوسطى - «الشورى والاسلام» و«الشورى والعلمـــاء» . ووضعت المنظمة الاولى هدفا لها تأسيس تركستان ذات الحكـــم الذاتى ضمن روسيا الجديدة - البرجوازية والليبرالية ، القادرة على ضمان الملكية الخاصة للارض ووسائل الانتاج . كما اقترحت منظمة «الشورى والاسلام» التى كانت واقعة تحت تأثير جماعـــة «الجديد» اجراء اصلاحات فى المجتمع الاسلامى ، وبضمن ذلك فى نظام التعليم . وضمت منظمة «الشورى والعلماء» فى صفوفها غلاة المحافظين وعارضت بشدة كل تجديد . وكان انصارهـا يؤكدون على ان الاجوبة عن كافة الاسئلة ، سواء ما يتعلـــق بالفرد ، او

المجتمع كله – فيما اذا كان الامر يتعلق بالملكية وبالاخلاق أو الفقه – قد وردت فى النصوص المقدسة للقرآن الكريم والشريعة . وكان العلماء يعارضون باسم الاسلام اية خطة لاصلاح زراعى ما ويطالبون بحل اللجان الفلاحية التى انبثقت فى كل مكان تقريبا وتعالت فيها المطالبة بضرورة اعادة توزيع الاراضى والمياه . وعملت «الشورى والاسلام» و«الشورى والعلماء» فى جبهة موحدة دائما ، حين وجب الامر ادانة مفهوم تقسيم المجتمع الى طبقات ، باعتباره «مذهبا شيطانيا» . فمثلا ورد فى احد قرارات فرع منظمة «الشورى والاسلام» فى انديجان : «ان الدين الاسلامى الحنيف لا يقسمنا الى طوائف وطبقات ، ولهذا لا مكان للصراع الطبقى بيننا» .

وفى كازاخستان كانت مجموعة اخرى هى «الاش-اورطة» (الاش – الجد الاسطورى للكازاخيين) ، التى تأسست فى يوليو عام ١٩١٧ ، تتخذ مواقف مماثلة ، مع التأكيد على الحكم الذاتى وتوحيد جميع القيرغيزيين . اى فى واقع الحال جميع الكازاخيين ، لان السلطات الروسية كانت لحد قيام ثورة اكتوبر تطلق خطأ تسمية «القيرغيزيين» على ساكنى كازاخستان . وفى المؤتمر التأسيسى لمنظمة «الاش-اورطة» اعرب بجلاء عن سعى الزعماء التقليديين والبرجوازية الوليدة الى سد الطريق امام النهوض الثورى : فقد عارض المؤتمرون كافة التغييرات فى النظام الزراعى القديم ، الذى كان يؤمن للاغنياء افضل الاراضى الزراعية والمراعى . كما دعوا الى الابقاء على الجهاز الدينى والحقوقى الخاضع لسيطرة رجال الدين باشكاله القديمة .

وفيما بعد وقفت غالبية قادة احزاب «الشورى والاسلام» و«الشورى والعلماء» و«الاش-اورطة» فى صفوف من حارب الثورة – سواء الروس او غيرهم – من اجل الابقاء على امتيازاتهم . فتحالفوا فى البداية مع الحكومة المؤقتة ، ومن ثم مع الحرس الابيض وجميع قوى التدخل الاجنبى المعادية للثورة : من انكليز والمان وفرنسيين ويابانيين وامريكان وغيرهم . . . لذا يعتبر اكذوبة فظة السعى الى تصوير هذه الجماعات – كما يفعل ذلك شتى الكتّاب المعادين للسوفييت ومنهم الكسندر بينيغسون ،

وشانتال ليميرسيه ـ كيلكيجه - بصفتها «الحركات الوطنية حقا» الوحيدة ، المناهضة للبلاشفة ، الساعين الى ان يفرضوا على شعوب آسيا الوسطى ارادة مناقضة لطموحاتها .

وفور قيام ثورة فبراير شرع الفلاحون والاجراء الزراعيون والعمال والكسبة يتساءلون حول : ما معنى هذا كله بالنسبة لهم؟ وما الذى كسبوه ؟ ويصف الكاتب الاوزبكى ايبيك ، فى كتاب يتضمن سيرة حياته ، حالتهم النفسية وصفا شيقا . فكتب يقول : «تمادى البايات ومالكو الاراضى والتجار فى غيّهم اكثر من السابق . واتخذت المآدب الفخمة والافراط فى اللهو نطاقات لم يعرف لها مثيل . وصار رجال الدين يتلقون موارد ضخمة من الاوقاف . بينما بقى الشعب على حاله بلا نعل وملبس . وكان الفقراء والمعدمون يسعون فى طلب لقمة الخبز» * . وكما كان يرى يلامان ، البطل الكازاخى الذى وصفه عبد جميل نوريسيسوف ، فان الثورة قامت فعلا ، لكن لم تبلغ نهايتها . وحسب تعبيره انها مثل البحر الذى تضطرب امواجه بعنف وبلا انتظام قبيل هبوب العاصفة الحقيقية . . .

وفيما بعد ، فى اكتوبر ، ستهب «العاصفة الحقيقية» التى ينتظرها .

فى السابع من نوفمبر (٢٥ اكتوبر حسب التقويم القديم) عام ١٩١٧ وعند الساعة ١٠ صباحا اعلنت اللجنة الثورية ـ العسكرية لدى سوفييت بتروغراد ، مقر الانتفاضة المسلحة ، نداء «الى مواطنى روسيا !» ، كتبه لينين الذى وصل الى العاصمة سرا . وجاء فى النداء نبأ حل الحكومة المؤقتة .

وفى مساء اليوم نفسه افتتح المؤتمر الثانى لسوفييتات العمال والفلاحين والجنود لعموم روسيا .وكان ٣٩٠ مندوبا من مجموع ٦٤٩ مندوبا اعضاء فى الحزب البلشفى . وحضر المؤتمر مندوبون عن سوفييتات طشقند وسمرقند ومنطقة ما وراء بحر قزوين وبتروبافلوفسك والاورال ، وكذلك سوفييتات المقاطعات الشرقية

---

* ايبيك . «طفولتى» . موسكو . ١٩٦٧ ، ص ٢١١ .

الاخرى . واعلن المؤتمر فى جو من الحماس البالغ انتقال السلطة كاملة الى ايدى السوفييتات . وفى الليلة نفسها (فى الساعة ٢ من ليلة ٧ على ٨ نوفمبر) جرى اقتحام القصر الشتوى ، واعتقـــال اعضاء الحكومة المؤقتة . وافلح رئيسها الكسندر كيرينسكى فى الهرب .

وتنفيذا لاقتراح لينين صادق المؤتمر فورا على مرسوميـــن اصبحا بالنسبة لشعوب روسيا والعالم اجمع رمزا لتدشين العصر الجديد . واولهما – مرسوم السلام . وهو يدعو جميـع البلدان المتحاربة الى البدء فورا بمفاوضات من اجل عقد معاهدة صلـــح بموجب شروط ترضى الجميع ، «بدون ضم الاراضى ودفع الغرامات الحربية» . وثانيهما مرسوم الارض الذى ينتزع ملكية الارض من اصحاب الاطيان – الارستقراطيين والبرجوازيين . وتوضع اراضيهم وكذلك اراضى الكنيسة واللوازم والمنشآت الزراعية تحت تصرف الفلاحين بلا مقابل ، بينما تنتقل الاراضى كلها الى ملكية الدولـة وتعتبر ثروة للشعب كله . وطبقا لمرسوم الارض حصل فلاحو روسيا على ١٥٠ مليون ديسياتينا * من الاراضى . كما تم اعفاؤهم من تسديد ٧٠٠ مليـــون روبل ذهبى سنويا مقابـــل استئجار الاراضى . والغيت ديونهم المستحقة لاستغلالهم الاراضى والتـــى بلغت آنذاك ٣ مليارات روبل .

وبعد مضى اسبوع ، فى ١٥ نوفمبر ، اصدر مجلس مفوضى الشعب «بيان حقوق شعوب روسيا» . ويعلن فيه ما يلى : اولا – المساواة والسيادة لجميع شعوب الامبراطورية القيصرية السابقة ؛ ثانيا – حقها فى تقرير المصير بحرية ، لحد الانفصال وتأسيس دول مستقلة ؛ ثالثا – الغاء جميع الامتيازات وجميـع القيود ذات الطابع الدينى او القومى ؛ رابعا – الاعتراف بحق التطور المستقل لجميع الاقليات القومية والمجموعات الاثنية .

وفى الثالث من ديسمبر وقـــع لينين رئيس مجلس مفوضى الشعب ، وستالين مفوض الشعب لشئون القوميات ، البيان «الى جميع المسلمين – الكادحين فى روسيا والشرق» . وهذا البيان ، الذى اعلن للشعوب المسحوقة ان سياسة الاضطهاد القومـــى

---

* وحدة المساحة فى روسيا قبل الثورة . – **المعرب** .

والثقافي والديني ، التي عانوا منها ، قد ولّت ، ودعا الى اقامة السلطة الثورية الجديدة في كل مكان والدفاع عنها : «ايها المسلمون في روسيا ، ايها التتر في منطقة الفولغا والقرم ، ايها القيرغيز والسارطيون في سيبيريا وتركستان ، ايها الاتراك والتتر في ما وراء القفقاس ، ايها التشميتشمينيون واهل جبال القفقاس ، وجميع من دُمرت مساجدهم واماكن العبادة لهم ، ودُنست معتقداتهم الدينية وعاداتهم من قبل القياصرة وظالمي روسيا ! منذ الآن تُعتبر معتقداتكم وعاداتكم ومؤسساتكم الوطنية والثقافية حرة وذات حصانة . فابنوا حياتكم في وطنكم بحرية وبلا عقبات . انكم تتمتعون بالحق في هذا . واعلموا ان حقوقكم ، وكذلك حقوق جميع شعوب روسيا ، تصان بكل قوة الثورة وهيئاتها ، وسوفييتات نواب العمال والجنود والفلاحين . . . ايها الرفاق ! ايها الاخوة ! لنمض بعزم وبحزم نحو السلام الشريف والديمقراطي . اننا نحمل في راياتنا تحرر الشعوب المظلومة في العالم» .

ان بعض الاختصاصيين لا يرغبون في ان يروا في هذا النداء، الذي تذكرنا كلماته الحماسية بنداءات اليعاقبة ، سوى مناورة دعائية وتكتيكية قام بها لينين والبلاشفة من اجل ان يربطوا شعوب الشرق الى الثورة : ويجرى الزعم ان السلطة الجديدة اغرتهم بالاستقلال ، اما في الواقع فانها ارادت ابقاءهم في اسر التبعية القديمة لكن باشكال جديدة . وهذه كلها عبارة عن تفسيرات «مسيسة» مبتذلة لوقائع تاريخية هامة ، لم تحلل تماما تحليلا موضوعيا .

فلم تتضمن بيانات وافعال قادة الحزب البلشفي حتى اشارة الى مثل هذا النوع من «التكتيك» . بل بالعكس ، انها تتفق بشكل رائع مع جميع الاحكام النظرية للبلاشفة بصدد «المسألة القومية» .

وفي بداية عام ١٩١٦ حدد لينين في موضوعاته «الثورة الاشتراكية وحق الامم في تقرير المصير» تحديدا لا لبس فيه الاسس التي تقوم عليها سياسة البلاشفة في هذا المجال وهي :

«ليس بوسع بروليتاريا الامم المظلومة الاكتفاء بالعبارات العامة والمبتذلة والمكررة لاي برجوازي معاد للعنف والتي يعلن

فيها معارضتها لضم الاراضى ويدعو فيها الى المساواة بين الامم عموما . وليس بوسع البروليتاريا التزام الصمت عن مسألة «مزعجة» جدا بالنسبة للبرجوازية الامبريالية هى **حدود** الدولة ، الرازحة تحت نير الاضطهاد القومي . ولا مفر للبروليتاريا من النضال ضد ابقاء الامم المظلومة قسرا ضمن حدود الدولة المذكورة ، وهذا يعنى النضال من اجل حق تقرير المصير . ويجب على البروليتاريا ان تطالب بالحرية والانفصال السياسى للمستعمرات والشعوب والامم التى تضطهدها امتـ«ها» . والا فان امية البروليتاريا تبقى جوفاء ومجرد كلام ؛ ويستحيل عندئذ احلال الثقة والتضامن الطبقى بين عمال الأمتين المظلومة والظالمة . . .» * .

ويشير لينين الى ضرورة ان يؤكد الثوريون بلا اية قيود حق الشعوب المظلومة فى تقرير المصير لحد انفصالها بحرية ، وكذلك يحذرهم من «اية اعمال خداع وخيانة واحتيال تمارسها البرجوازية . لان برجوازية الامم المظلومة تحول دائما شعارات التحرر الوطنى الى خداع العمال : فهى تستغل هذه الشعارات فى السياسة الداخلية من اجل اجراء اتفاقات رجعية مع برجوازية الامم السائدة . . . ؛ اما فى السياسة الخارجية فانها تسعى الى عقد صفقات مع احدى الدول الامبريالية المتنافسة من اجل تحقيق مآربها اللصوصية . . .» ** .

لكن الاعتراف بحق جميع الشعوب فى تقرير المصير والانفصال بحرية لا يعنى ان يغدو هذا بمثابة التزام مبدئى : فيشير لينين الى ان المسألة الرئيسية بالنسبة للماركسيين هى مصالح الكادحين ونضالهم فى سبيل الاشتراكية ، وانطلاقا من هذه العوامل بالذات يجب ان تبحث قضية وجوب او عدم وجوب الانفصال . وكتب لينين فى عمل آخر له : «لا ريب فى ان **حق** تقرير المصير هو شيء ، اما **جدوى** تقرير المصير والانفصال هذه

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٧ . ص ٢٥٧ .

** المصدر ذاته ، ص ٢٥٧ – ٢٥٨ .

الامة او تلك ، فى هـذه الحالة او تلك ، فهـى شىء آخر» * .

لذا فان لينين حين يفند التفكير «الامبريالى» ، الذى يؤثر حتى على وعى شغيلة «الامة الظالمة» ، يدعو الثوريين فى البلدان المظلومة الى «النضال **ضد** ضيق الافق القومى والانغلاق والتقوقع والانعزال ، والى مراعاة الكل والشامل ، والى اخضاع المصالح الخاصة للمصالح العامة» . واضاف يقول : «ان الافراد الذين لا يتمعنون فى القضية يجدونها مسألة «متناقضـــة» ان يصر الاشتراكيون الديمقراطيون مـــن الامم الظالمة على «حريـــة **الانفصال**» ، اما الاشتراكيـــون الديمقراطيون من الامم المظلومـــة فانهم يصرون على «حريـــة **الانضمام**» . بيد ان شيئا من التفكير يظهر عدم وجود طريق **آخر** الى الأممية ، والى تلاحم الأمم ، وعدم وجود طريـق آخر نحو هذا الهدف من الوضع **المذكور** ولا يمكن ان يوجد غيره» ** .

ان هذه الموضوعات تتناقض كل التناقض مع تلك التـــى يدافع عنها قادة الاممية الثانية . فيعتقد هؤلاء بخلاف البلاشفة ان «المسألة القومية» تتحدد باطر الشعوب «المتحضرة» فـى اوربا . انهم لا يدينون الاستعمار قطعا ، بل يكتفون باذانة «تجاوزاته» ، وحتى يرون انه يمهد للشعوب المحتلة «الطريـــق نحو التقدم والحضارة» .

ويصبح هذا الاختلاف الخطير حول القضايا المبدئية احـــد الخطوط الرئيسية للقطيعة بين الاشتراكيين والشيوعيين ، حيـن تم تأسيس الاحزاب الجديدة المرتبطة بالاممية الثالثة . ويغدو احد الشروط الاساسية للقبول فى هذه المنظمة الموافقة على بند يثير الكثير جدا من المناقشات ، وبالذات البند الثامن الذى صاغـــه لينين بالشكل التالى : «يجب على كل حزب يرغب فى الانضمام الى الاممية الثالثة ان يفضح بلا هوادة الاعيب امبرياليى «بلده» فى المستعمرات ، وان يؤيد فعلا لا قولا كل حركة تحرريـة فـــى المستعمرات» *** . لكن اعلان الفكرة الجديدة فى المؤتمرات شىء ،

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٤ ، ص ٢٠٩ – ٢١٠ .
** المصدر ذاته . المجلد ٣٠ ، ص ٤٥ .
*** المصدر ذاته . المجلد ٤١ . ص ٢٠٧ .

وجعلها امرا مألوفا من اجل ادراك سلوك النشطاء الحزبيين ، ومنهم اولئك الذين ينتمون الى «الامة المهيمنة» ويعيشون فى المستعمرات هو شىء آخر . ان اجتثاث الاوهام القديمة التى ترك آثارها فى وعى الكثيرين المجتمع الاستعمارى-الاستغلالى هو مهمة عسيرة جدا ، وتتطلب معالجتها سنوات كثيرة .

يجد بعض المؤلفين المتعة ، لدى نبش اوراق الارشيف وانتزاع مواضع منتقاة من النصوص للاشارة اليها ، فى ابراز قول شخصية سياسية ما اشارت الى وجود «روح استعمارية» صلبة فى صفوف العمال الروس ابان ذلك العهد ، والى اتخاذ عمال المستعمرات «مواقف معادية للروس ومترعة برهاب الاجانب» . ولا يمكن ان يدهش لهذا سوى من يريد الاندهاش ، لان من الواضح تماما الا يكون الأمر بصورة مغايرة . فان اعضاء الحزب الثورى والمتعاطفين معه – لا سيما الحزب الماركسى الذى يريد اعطاء رفاقه الاعداد النظرى – لا يأتون اليه «مطهرين» من الاوهام القديمة ومعصومين الى الابد من الافكار التى غُرست لديهم فى الوسط الاجتماعى الذى خرجوا منه . ولا بد لهم من النضال فترة طويلة جدا – ضد انفسهم فى غالب الاحيان – من اجل التخلص من الريبة ، وكذلك من النعرات العنصرية والقومية الموروثة عن الاستغلال والاشتباكات والحقد على مدى القرون .

صدى هدير اكتوبر فى سمرقند

فى صباح ١٠ نوفمبر عام ١٩١٧ عوت بشدة صفارات الرأب المركزى لطرق سكك حديد طشقند . وكان فى انتظار هذه الاشارة رجال السكك الحديدية وعمال المدينة لكى يندفعوا للاستيلاء على الابنية التى شغلها ممثلو الحكومة المؤقتة . وسار الى جانب الروس فى صفوف الثائرين المتطوعون الاوزبكيون المسلحون المحليون الذين كانوا يعملون مع الروس فى طريق السكك الحديدية وشتى المصانع . وبعد مرور اربعة ايام من المعارك الضارية تم الاستيلاء على القلعة العسكرية ، آخر مركز محصن لانصار كيرينسكى ، واعتقلت صنائعه فى تركستان .

لقد ادى انتصار البلاشفة فى طشقند ، اهم مركز صناعى وسياسى وثقافى فى آسيا الوسطى ، الى اكساب الثورة القوة ، وساعدها على الانتشار فى كافة انحاء تركستان وكازاخستان . فازاح الكادحون الثوريون ، الذين الهمهم مثال اهالى طشقند ، ممثلى الحكومة القديمة المحليين واستولوا على السلطة فى المدن الرئيسية خلال نوفمبر وديسمبر عام ۱۹۱۷ . اما فى منطقة ما وراء بحر قزوين (تركمانيا الحالية) حيث كان عدد البلاشفة كثيرا وتمتعوا بتأييد اكثرية الجنود ، فقد حدث الانقلاب بسرعة فى مراكز طرق السكك الحديدية والمراكز النفطية .

لم يقف الفلاحون والبدو فى القرى والسهوب بعيدا عن الحركة . وكان اول ما قاموا به هو الامتناع عن دفع ضرائب الارض وغيرها التى كانت تستحصلها منهم فى البداية السلطات القيصرية ، ومن ثم الحكومة المؤقتة .

وبحلول فبراير عام ۱۹۱۸ اقيمت السلطة السوفييتية فى غالبية مدن آسيا الوسطى . وفى بداية مارس استولى البلاشفة فى فيرنى (ألما-آتا) على المدينة بفضل دعم فوج القوزاق الثانى فى منطقة سيميريتشيه الذى انتقل الى صفوفهم ، وسرعان ما حصلوا على تأييد مؤتمر الكادحين المسلمين الذى عقده الكازاخيون والاويغوريون . وفى مارس ۱۹۱۸ اضحت هذه المنطقة كلها تحت سيطرة السلطة السوفييتية .

تعرضت السلطة الجديدة الوليدة الى الهجوم من كافة الجوانب : من الخارج - الدول الاجنبية التى ارادت خنق الثورة فى مهدها ، من الداخل - جميع قوى الرجعية الروسية . واعتبارا من نوفمبر عام ۱۹۱۷ عمد الاتامان * دوتوف على راس رجاله القوزاق ، الذين انتقلوا الى جانب البيض ، الى الاستيلاء على اورنبورغ ، فقطع طرق المواصلات بين القسم الاوربى من روسيا وآسيا الوسطى . واستجابة لنصيحة وبدعم عملاء بريطانيا اعلن دوتوف الحكم الذاتى فى هذه المنطقة وتشكيل حكومة محلية . وفى ديسمبر عام ۱۹۱۷ عقد فى كازاخستان مؤتمر «الاش-اوردي» ، الذى

* القائد القوزاقى . - المعرب .

شارك فيه بصورة اساسية البايات ورجال الدين . فشكل ايضا حكومة حكم ذاتى يتراسها بوكيخانوف عضو حزب الكاديت . وفيما بعد شرح بلا مواربة فى رسالة بعث بها الى الاميرال كولتشـــاك القائد العام لجيوش الثورة المضادة ان الغاية من تشكيل حكومة «الاش-اورطة» هو قبل كل شىء الحيلولة دون «زحف البلاشفة» الى مناطق السهوب . وسرعان ما حصل بوكيخانوف عـــلى دعم قوات البيض ، المحتشدة فى منطقة سيميريتشيه ، وكذلك على دعم القوات الانكليزية والامريكية .

اخذ وضع القوات الثورية يتدهور باستمرار : ففى ينايـــر ١٩١٨ استولى الرومانيون حلفاء دول التدخل على بيسارابيا . وفى مارس استولى فيلق غزو انكليزى على مورمانســـك واقام هناك الحكومة الروسية الشمالية . وفى ابريل قام اليابانيون بانزال فى فلاديفوستوك . وسرعان ما انضمت اليهـــم وحدات امريكيـــة وانكليزية وفرنسية وايطالية . وفى مايو عبر فيلق الجيشــــس التشيكوسلوفاكى سيبيريا بعد مبارحته منطقة الجبهة . وبعـد ان انضم التشيكيون الى الثورة المضادة استولوا بالاشتراك مـــع وحدات الحرس الابيض على سامارا وزلاتوأوست وتشيليابينسك واومسك . وادت نجاحات الثورة المضادة الى ظهور حكومات اخرى ذاتية الحكم وهيأت الجو لدكتاتورية الاميرال كولتشاك الذى اعلن نفسه فى نوفمبر عام ١٩١٨ «حاكما عاما لروسيا» .

واحتل الالمان اوكرانيا بعد فرض سيطرتهم على بولونيـــا وفنلندا ومنطقة البلطيق وبيلوروسيا .

وتواجد الانكليز فى اذربيجان . وكانت لديهم اسباب خاصة تدفعهم الى الاهتمام بهذا البلد : اذ كانوا يمتلكون القسم الاكبر من رؤوس الاموال المستثمرة فى حقول نفط باكو . وفى اغسطس عام ١٩١٨ فرضوا فى باكو الحكم الدكتاتورى لمنطقة بحر قزوين الوسطى (وضمت هذه الحكومة «المستقلة» الاشتراكيين الثوريين اليمينيين والمناشفة والحرس الابيض) . وقامت السلطات الجديدة بالاشتراك مع الغزاة الانكليز باعدام ٢٦ مفوضا فى باكو عـــلى راسهم س. شاؤميان رئيس مجلس مفوضى الشعب فى باكو . وفى ١٥ سبتمبر استولت على باكو القوات التركية التى وضعت عملاءها

فى السلطة من جماعة «المساواة» والقوميين البرجوازيين المعادين للسوفييت . ولاحت تباشير خطر جديـــد فى الجنوب : اذ صار يستعد للهجوم القوزاق الذين كوّنوا تشكيلات لهم فـــى ايران وسلحتهم بريطانيا . وفى صيف عام ١٩١٨ كانت ثلاثـــة ارباع الامبراطورية السابقة قد اصبحت عمليا خاضعة لسلطة الحرســـ الابيض والغزاة الاجانب .

وخيم على الثورة خطر مميت ، وغدا الدفاع المسلح عنها المهمة الاولية ، لكن القادة البلاشفة سعوا فى هذه الفترة ايضا الى شرح اهداف السياسة التى اعدها الحزب من اجل حل «المسألة القومية» .

وفى يناير (كانون الثانى) عام ١٩١٨ طرحت فى جدول عمل المؤتمر الرابع لسوفييتات تركستان فى طشقند مسألة «المحتوى الفعلى للحكم الذاتى» ، وعرض المندوب توبولين موقف البلاشفـة وهو : ان شعب البلاد هو السيد الحقيقى لهذه البلاد التى يناقش فى المؤتمر موضوع الحكم الذاتى لها . ولا يجوز الاكتفاء فقـط بالكلام عن تقرير المصير ، ولا بد من متابعة هذه الفكرة فـــى الممارسة اليومية . ان البلاشفة يحاربون والسلاح بيدهم ضـد الثورة المضادة ، مهما كان مصدرها — البرجوازية الروسيـــة او المحلية . وفى الوقت نفسه فانهم يعتـــرفون بحق شعب هـــذه المنطقة فى الحكم الذاتى بل ويعترفون ايضا بحقه فى الانفصـــال التام ان رغب فى ذلك . . . وقال البلاشفة ان اراضى تركستان قد احتلت بالقوة ، واذا ما كانت رغبة هذا الشعب ، المتجسدة فـــى الاستفتاء هى الانفصال عن روسيا ، فاننا سنحمى حق السيادة له فى الانفصال . واشار توبولين الى ان وضع هذا الحق موضـــع التطبيق غير ممكن بعد ولن يصبح ممكنا ما دامت الثورة المضادة تهدد البلاد . واشار عندئذ الى وجوب الشروع فورا بتهيئة الجو لاحقاق هذا الحق .

ان خطاب توبولين يتناقض بحدة مع خطاب بافلوشينكو-النائب فى السوفييت ايضا وعضو مجموعة «المناشفة-الامميين» الذيـــن كانوا يحتجون على تعريف «سيد البلاد» الذى اطلقه المندوب البلشفى على «الاهالى المحليين» . ونوه بافلوشينكو بانهم يعتبرون انفسهم الطليعة المتنورة للثورة وواجبهم — توّلى قيادة الجماهير الكادحة

المسلمة ، التى يعوزها النضوج السياسى ، للمضى فى الطريق الصائبة . ولم يقترح المناشفة-الامميون شيئا سوى قيادتهم فى هذه «الطريق الصائبة» .

انهما اسلوبا كلام مختلفان يستبقان المناقشة التى قسمت الناس فى فترة «تصفية الاستعمار» فى بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وغيرها من الاماكن الى انصار الاستعمار «المتنور» المتسم بسمة الوصاية الابوية وانصار استقلال الشعوب المستعمرة بلا حدود .

وبتأثير الدعاية القومية النزعة وتحت عبء الاوهام الباقية فى الجماهير الفلاحية ، التى تكاد تنهض لدخول معترك الحياة السياسية ، لم تخمد الريبة القديمة من كل ما هو «اجنبى» والتمسك الشديد باكثر احكام الاسلام تعصبا وبمن سعى الى اظهار نفسه بمظهر المدافع عنه . لكن تطور الثورة ساعد فى نهاية المطاف على تحول الغالبية الكبيرة من هؤلاء الناس الى المعسكر الذى ينتمون اليه من حيث جوهرهم نفسه . وفعلا ، وعلى الرغم من المستوى السياسى الواطئ ، كان من العسير اقناع شعوب السهوب الكازاخية وتركستان بان تحالف قادة «الاش-اورطة» مع الاتامان القوزاقى دوتوف والاميرال كولتشاك او الافعال المشتركة لحزب «الشورى والاسلام» مع بقية الجنرالات البيض سيفسح لهم الطريق نحو الحرية والتقدم .

ومع اتساع رقعة النضال ، حيث شمل آسيا الوسطى كلها وكازاخستان ، ادى سلوك الزعماء القوميين اليمينيين الى ان انتقلت الى صف البلاشفة افقر جماهير الاهالى الاصليين وكذلك الكثير من ممثلى المثقفين الوطنيين التقدميين القليلى العدد ، الذين كانت قد اغرتهم سابقا شعارات «الاش-اورطة» والمنظمات الاخرى المماثلة لها .

فى نهاية عام ١٩١٨ كانت الحرب الاهلية تعصف كالسابق فى تركستان المطوقة من كافة الانحاء والمنعزلة عن روسيا . وقام الاقطاعيون والمستوطنون الروس هناك وفى الاراضى الكازاخية بتنظيم نشاطات معادية للثورة ، سرعان ما ايدتها حركة «البصمجية» (من الكلمة الاتراكية «باصماك » اى شن الهجمات

والغارات) ، الذين استنهضهم البايات ورجال الدين ، وكانوا يدعون الفلاحين الى «الجهاد» ضد البلاشفة .

وصار البصمجية يهاجمون القرى ويتلفون المحاصيل ، ويضرمون النيران في المستودعات والورش ويقتلـــون من يقف الى جانب الثوريين ، او يتعاطف مـــع الافكار الجديدة ، ويبثون الرعب في القرى . ومارسوا نشاطهم على مدى زهاء عاميـــن (من ١٩١٨ الى ١٩٢٠) بصورة فعالة جدا فـــي وادى فرغانــة . وكان يتزعـــم تشكيلاتهم افراد مثل ايرغاش القائد السابق لقوات «حكومة قوقند المستقلة ذاتيا» التى لم تعمر طويلا ، وكذلك مضامين-بـــك ، المدير السابق لميليشيا مدينة مارغيلان . وكون المستوطنون - اصحاب الاراضي الكبار وكذلك الفلاحون الاغنيـــــاء - الكولاك «جيشا فلاحيا خاصا بهم» تولّى قيادته ك . مونستروف . وبعـد الاستيلاء على مدينة اوش انضم هذا الى قوات البصمجية بقيـادة مضامين-بك . وسرعان ما انضوى تحت لواء الاخير شتى اصناف القوى المعادية للبلاشفة : من استجاب لنداء «الجهاد» ، وكذلـك من كان يحارب في سبيل الابقاء على امتيازاته الاقطاعية ، ومن زعم انه يسعى الى التخلص من النير الروسى ، ومن كان يدافع عـن «شرعية» الحكم القيصرى . واعلن مضامين-بك عن تشكيل الحكومة المؤقتة الاتحادية في فرغانة ، التى انضم اليها خليط من ضبـاط القيصر والكولاك والبايات ورجال الدين .

وفى الواقع ان حركة البصمجية التى يصفها «الخبراء» المعادون للسوفييت بانها حركة احتجاج شعبية صميمية لم تكن تحظى ابدا بدعم واسع وفعال فى اوساط الجماهير . وسرعان ما صار الفلاحون الاوزبكيون والتركمان والطاجيك يميزون الاهداف التى يتوخاهـا مضامين-بك وحلفاؤه . وما كان هذا يتطلب فطنـــة كبيرة . اذ كان رؤوس البصمجية يعيدون بكل بساطة في الاراضى المحتلة ، التى يفرضون سيطرتهم عليها مؤقتا ، الانظمة القديمة - اى حكم الاقطاعيين وملاّك الاراضى الكبار . وعمد هؤلاء ، بغية اعادة كل شيء الى حاله سابقا واظهار سطوتهم ، الى ممارسة اعمال القمـع الدموى ضد الفلاحين الفقراء والاهالى الريفيين حكـم المشتبه في تعاطفهم مع النجمة الحمراء .

وبالرغم من انقطاع الاتصال عن آسيا الوسطى لفترة طويلة (اعيدت حركة النقل بواسطة السكك الحديدية عبر اورنبورغ في ربيع عام ١٩٢٠ فقط) فان مجلس مفوضى الشعب وقيادة الحزب البلشفى كانا يواصلان باهتمام بالغ متابعة المعركة السياسية والايديولوجية الجارية هناك . وقدمت موسكو بالحاح التوصية للنضال بلا هوادة فى سبيل تصفية كافة التراكيب القديمة ، واعارة اهتمام بالغ الى الخصائص القومية ، والعناية الدائمة بجذب السكان الى قضية الثورة ، والقضاء بالحديد والنار على كافة مظاهر روح الدولة العظمى .

وفى مارس عام ١٩١٨ ارسلت اللجنة المركزية للحزب البلشفى ومجلس مفوضى الشعب مندوبهما المطلق الصلاحيات ب . كوبوزيف الى آسيا الوسطى . وكانت مهمته تنحصر فى مساعدة الشيوعيين المحليين على مواصلة النضال المسلح ضد الثورة المضادة وتقديم النصح لهم فى تأسيس جمهورية تركستان الاشتراكية السوفييتية ذات الحكم الذاتى ، التى تتحد وفق الاصول الفدرالية مع روسيا السوفييتية . وولدت الجمهورية الجديدة فى المؤتمر الخامس لسوفييتات العمال والفلاحين والجنود والدهاقنة فى تركستان . ولم يكن من قبيل الصدف ان ظهرت كلمة «الدهقان» (اى الفلاح المعدم) فى تسمية المؤتمر ، ولم يكن هذا لاعتبارات ديماغوجية . فهذه الصيغة تتضمن توجها سياسيا دقيقا هو : ان الثورة الاشتراكية هى ثورة الجماهير الفقيرة واكثر المعذبين سابقا . وكان عدد مندوبى الدهاقنة فى المؤتمر كبيرا . بالاضافة الى ذلك كان من المقرر ان يشارك اربعة من ابناء القوميات المحلية فى اعمال مجلس مفوضى الشعب للجمهورية .

وبعد شهرين عقد المؤتمر الاول للمنظمات الشيوعية فى تركستان . واصدر المؤتمر قرارا يؤكد على ضرورة مشاركة الكادحين من شتى القوميات على اوسع نطاق فى ادارة شئون حياة الجمهورية على جميع الاصعدة ، وزيادة نشاط الشيوعيين بين مختلف القوميات ، واصدار الصحف باللغات القومية ، واخيرا استحداث مفوضيات (قوميساريات) للشئون القومية فى المقاطعات والنواحى .

في يوليو عام ١٩١٨ اعلنت كافة اللغات السائدة في آسيا الوسطى كلغات رسمية الى جانب الروسية .

لكن «الشياطين القديمة» وروح «روسيا العظمى» لم تمت البتة . وبالرغم من صعوبة الاتصال مع تركستان ، فقد كانت الحكومة البلشفية برئاسة لينين تدرك هذا حق الادراك . ففي برقية موجهة الى حكومة طشقند في يوليو عام ١٩١٩ اكدت اللجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا على ضرورة جذب اهالى تركستان فورا الى ممارسة الادارة على قاعدة تناسبية واسعة والى التوقف عن مصادرة ممتلكات المسلمين بدون موافقة المنظمات الاسلامية الاقليمية . وفي اكتوبر عام ١٩١٩ تشكلت لجنة شئون تركستان لدى اللجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا ومجلس مفوضي الشعب في روسيا الاتحادية التي لعبت دورا كبيرا في تعزيز السلطة السوفييتية في اوزبكستان . وجاء في قرار صدر بهذا الشأن ان تقرير مصير شعب تركستان والغاء اى اجحاف قومي وكافة امتيازات فئة قومية على اخرى يمثلان اساس كل سياسة الحكومة السوفييتية الروسية ويعتبران مبدأين لكل عمل هيئاتها . وبنتيجة هذا العمل فقط يمكن ان يزال نهائيا عدم ثقة الجماهير الكادحة المحلية بعمال وفلاحي روسيا ، والتي غذتها السيطرة القيصرية على مدى الاعوام .

كما جلبت اللجنة معها رسالة من لينين الى «الرفاق الشيوعيين في تركستان» . ويعيد لينين فيها الى الاذهان في سطور معدودات ، ذات الافكار العميقة بصورة مدهشة ، الرهان العظيم في المعركة الجارية والوسائل التي يمكن بواسطتها تحقيق النصر فيها اى : «ان اقامة علاقات صائبة مع شعوب تركستان تتسم الآن بالنسبة لجمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفييتية باهمية ، يمكن القول بلا مبالغة ، انها اهمية تاريخية – عالمية هائلة . وسيتسم باهمية تطبيقية بالنسبة الى آسيا كلها وجميع المستعمرات في العالم وبالنسبة الى الوف وملايين الناس موقف جمهورية العمال والفلاحين السوفييتية من الشعوب الضعيفة التي كانت مظلومة حتى الآن . وارجوكم جدا ايلاء هذه المسألة اهتماما خالصا ، – ببذل كافة الجهود بغية ان تتخذ عن طريق المثال ، وبالعمل ، مواقف رفاقية من شعوب تركستان ، وبان

يثبت لهم بالافعال صدق رغبتنا فى اجتثاث كافة آثار الامبريالية لروسيا العظمى من اجل النضال بتفان ضد الامبريالية العالمية . .»*.

ان فشل الثورة المضادة والتدخل الاجنبى فى محافظة تركستان العامة سابقا ، وسقوط «حكومتى» قوقند وعشق آباد تحت ضربات الحرس الاحمر ، وهزيمة الحرس الابيض فى مقاطعة ما وراء بحر قزوين ، ادى الى تحويل قواعد محاربة السلطة السوفييتية فى آسيا الوسطى الى دولتى خيوا وبخارى المستقلتين .

وكانت امارة بخارى وامارة خيوا تهزهما الانتفاضات الشعبية ايضا منذ ربيع عام ١٩١٧ ، بيد ان حكامهما واصلوا مقاومة الموجة الثورية . وقد ساعد على هذا بالدرجة الاولى الدعم السياسى والعسكرى للحرس الابيض الذى كان متخندقا هناك ، وكذلك اخلاص الاهالى للقوى المحافظة الداخلية ، ومنها رجال الدين - الاصوليين ، الذين بقى نفوذهم شديدا فى اوساط الشعب . وتلقى جنيد خان حاكم خيوا وعليم خان امير بخارى المساعدات المادية من الدول الاجنبية ، ومنها بريطانيا . واقام رجال الحرس الابيض الذين استقر بهم المقام فى خيوا صلة مستمرة بالمنظمة السرية المعادية للسلطة السوفييتية فى طشقند ، والتى كانت بدورها ذات ارتباط وثيق باجهزة المخابرات الامريكية والبريطانية والفرنسية . وكان لهذه الاجهزة عملاء فى تلك الانحاء .

وبالرغم من ان الجانب السوفييتى اقترح مرارا الصلح فان جنيد خان واصل سياسته العدوانية . وفى يونيو عام ١٩١٩ بدأ يشن الغارة الفتاكة تلو الاخرى على مقاطعة جيحون واقام صلات دائمة مع الاميرال كولتشاك ، القائد العام للثورة المضادة .

واتبع السياسة ذاتها عليم خان فى بخارى . وفى مارس عام ١٩١٨ فشلت محاولة حزب بخارى الفتاة للاطاحة بالسلطة الاقطاعية بمساعدة الحرس الاحمر فى تركستان . وكان قادة الحزب يعولون على ان تقود انتفاضتهم الى قيام ثورة عامة فى الامارة .

بيد انهم بالغوا فى تقدير قواهم ونفوذهم : فلم يهب وراءهم

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٩ ، ص ٣٠٤ .

الكادحون الذين ما برحوا خاضعين لسيطرة البايات ورجال الدين . كما وباءت بالفشل انتفاضات الفلاحين الفقراء في القرى . وانتفاضات الحرفيين والعمال في شتى المراكز السكنيـــة . وكذلك فشلت الانتفاضة التي قام بها الحزب الشيوعي البخاري في «المدينـــة القديمة» . وانهال الامير باعمال القمع الدموى على المشتركين في هذه الحركات بلا تردد .

وفي ابريل ومايو عام ١٩١٩ جاءت من افغانستـــان الى بخارى بضع مئات الجمال المحملة باحمال ثقيلة . فقد جلبت السلاح الذى قدمته بريطانيا بغية مساعدة الامير عليم خان في تسليح ٥٠ الف رجل قام بتجنيدهم . كمـا ارسلت لندن اليه ٢٨ الف بندقيـــة ومرشدين عسكريين بريطانيين . وفي نهاية صيف عام ١٩١٩ بلغ عدد هؤلاء المرشدين في بخارى ٦٠٠ رجل . كما وجد بين مستشارى الامير ، وكذلك خان خيوا ، «لاجئون» روس - من الضباط وكبار موظفي القيصر والمناشفة . ومنهم - اوسيبوف وزير الدفاع السابق لتركستان (وهو برابورتشيك قيصرى تسلـــل الى صفوف حزب البلاشفة) ، الذى امر في ليلة ١٩ يناير عام ١٩١٩ (بمشاركـــة ممثلي البعثات الاجنبية في طشقند) ابان محاولة الانقلاب الفاشلة باعتقال ومن ثم اعدام اعضاء حكومة جمهورية تركستان ، والمفوضين التركستانيين ، وغيرهم من رجال الحزب والسوفييتات .

لكن بـــالرغم من ذلك كانت ايام امــارتي بخارى وخيــوا معدودات . فقـــد ادت هـزيمة كولتشاك ودينيكيــــن ، وسحق آخـــر وحدات الثـــورة المضادة في آسيـــا الوسطى مـــن قبل الجيش الاحمر ، الذى كان يتولى قيادته في هذا القطاع ميخائيل فرونزه ، الى العزل التام لكلتا الدولتين الاقطاعيتين اللتين تتنامى فيهما الحركة الثورية بصورة جامحة . وتصاعد النضال المسلح في الارياف وفي خيوا وغيرهـــا من مدن الامارة حيث تأسس الحزب الشيوعي الخوارزمي بقيادة النشطاء المحليين . وفي وقت لاحـــق انضم اليها القسم الاكثر راديكالية من حزب خيوا الفتاة ، المدين بوجوده مثل الحزب المذكور ، الى جماعـــة «الجديد» ، وقد اطيح بسعيد عبد الله (الخان الجديد الذى حل محل جنيد) في فبراير عام ١٩٢٠ . وفي ابريل اعلن «الكورولتاى» (مؤتمر ممثلي الشعب)

الاول قيام جمهورية خوارزم الشعبية السوفييتية . واعلن عن اتخاذ تدابير ديمقراطية - مصادرة ممتلكات الخان وحاشيته وكبار مالكي الاراضي ، وفرض المساواة في الحقوق بين جميع القوميات ، لكن دون ذكر اى شيء عن الاشتراكية . وكانت الحكومة التى تشكلت بعد سقوط الخان تتألف من الشيوعيين ، وكذلك اعضاء «الجديد» المعتدلين ، الذين وقفوا موقف العداء من الايغال فى المسيرة الثورية الى الامام ، وكذلك من التعاون الوثيق مع تركستان السوفييتية .

وجرت الاحداث فى بخارى بالصورة ذاته . وقد تأسس الحزب الشيوعى هناك فى سبتمبر عام ١٩١٨ . وشارك شيوعيوا بخارى مشاركة فعالة فى المعارك ضد الامير ، وشرحوا برنامجهم الثورى الخاص بهم ، فزادوا بقدر ملموس من نفوذهم على حساب تيار «الجديد» . وفى صيف عام ١٩٢٠ بلغ عدد اعضاء مجموعات وخلايا الحزب ٥٠٠٠ شيوعى بينهم دهاقنة وحرفيون وعمال وجنود الامير . وعلاوة على ذلك حظى الحزب الشيوعى بتأييد عشرين الف نصير للحزب . ووجد ١٥٠٠ نشيط فى ٢١ خلية حزبية فى الحى القديم فقط بمدينة بخارى . وعلاوة على ذلك شكل النشطاء فى سمرقند (خارج حدود الامارة) بمساعدة الرفاق من تركستان السوفييتية وحدات عسكرية التحق بها جل الثوريين الهاربين من جيش الامير .

ولم تخف حدة المناقشات والمجادلات بين الشيوعيين وجماعة حزب بخارى الفتاة ، بالرغم من الاحكام التى اصدرتها «لجنة تركستان» . وكان حزب بخارى الفتاة يتحرق رغبة فى الاطاحة بالطغيان ، فدعا فرونزه الى عدم الانتظار اكثر ، والى القضاء عليه بقوة السلاح . لكن القادة السوفييت لم يرغبوا فى العمل بلا احتراس وبدون ترو وجعل انفسهم فى وضع المعتدين . فلن يتدخل الجيش الاحمر الا اذا ما طلبت منه ذلك حركة ثورية شعبية جماهيرية واسعة التمثيل فعلا . وبينما كانت الصحف البلشفية تنتقد قادة حزب بخارى الفتاة لعجلتهم ، اخذت تلومهم على تسمية انفسهم بـ«الديسمبريين الاسيويين» ، دون ان يتفهموا واقع ان «الجماهير المستغَلة» يمكن لدى التدخل الخارجى قبل الاوان ، وبسبب قلة ادراكها ، ان تخلط بين محرريها والغزاة الاجانب .

ورغم الجدل واستمرار الخلافات فان البلاشفة وجماعة حزب بخارى الفتاة صاروا يوحدون جهودهم فى اللحظة اللازمة من اجل الاطاحة بنظام الامير . وبدأت الانتفاضة المسلحة بقيادة شيوعيى بخارى بالاستيلاء على مدينة تشارجـــو . فايدت الوحدات الحمراء بقيادة فرونزه الثائرين ، وسقطت عاصمة الامير فى سبتمبر عام ١٩٢٠ . وهرب الامير واتباعه الى افغانستـــان . وفى اكتوبر اعلن مؤتمر نواب شعب بخارى (الكورولتاى الاول) قيام جمهوريـــة بخارى السوفييتية الشعبية . وكما هى الحال فى خيوا لم يكن المقصود بعد اقامة جمهورية اشتراكية .

ومنذ ذلك الحين انتصرت الثورة عمليا فى كافة انحاء آسيـــا الوسطى . وفى المؤتمر الثانى عشر للحزب الشيوعـــى الروسى (البلشفى) الذى عقد فى ابريل عام ١٩٢٣ اورد ستالين فى خطابه حول المسألة القومية السبب فى تمكن الثورة من تحقيق النصر فى بحر متلاطم من الاخطار . وقد يبدو خطابه هذا عجيبا ، نظرا لان لينين نفسه انتقد بشدة اتجاه صاحبه «التوفيقى» حيال روح «روسيا العظمى» . لكن العجب يغدو اقل ان لم نحبس انفسنا فى المنهج المانوى ، كما يحدث هذا فى احيان كثيرة اليوم للبعض ، وسنحاول الحكم على شخصية الابعاد التاريخيـــة بكل تعقيدهـــا وديناميكا تطورها . وسوف لن نتحدث هنا عما يسمى فترة عبادة الفرد . فالمقصود شيء آخر تماما . اذ كان ستالين فى عصر الثورة وتأسيس الاتحاد السوفييتى احد الذين رسموا عن معرفة اكبر السياســـة القومية للبلاشفـــة . وقدر ستالين فى خطابـــه شعوب الشرق السوفييتى حق قدرها . فقال مخاطبا مندوبى المؤتمر : «لا تنسوا ، او لم يكن لدينا فى مؤخرة كولتشاك ودينيكين وفرانجل ويودينيتش ما يسمى «الغرباء» ، ولم تكن لدينا الشعوب المظلومة سابقا التى قوضت مؤخرة هؤلاء الجنرالات بتعاطفها الصامت مع البروليتاريين الروس . . . لما اسقطنا اى احد من هؤلاء الجنرالات . وبينما كنا نزحف نحوهم بدأ الانهيار فى مؤخرتهم . لماذا ؟ لان هؤلاء الجنرالات اعتمدوا على عناصر المستوطنين من القوزاق ، ورسموا امام الشعوب المضطهَدة آفاق اضطهادهم اللاحق ، واضطرت الشعوب المظلومة الى المجيء الى احضاننا ، بينما رفعنا عاليا راية تحرير هذه الشعوب

المظلومة . وهذا ما قرر مصير هؤلاء الجنرالات ، وتلكم هى جملة العوامل التى حجبتها نجاحات قواتنا ، لكنها قررت كل شىء فى نهاية المطاف» * .

لكن بعد هزيمة الحرس الابيض لم يسد السلام دفعة واحدة . ففى عام ١٩٢١ اخذ انور باشا ، احد قادة حزب تركيا الفتاة ، وزير الدفاع السابق لدى السلطان (ونسيبه) ، والمغامر الذى كان يحلم بـ«الامبراطورية الطورانية» (التى تضم جميع الشعوب ذات الاصل الاتراكى - المنغولى) ويوقع نداءاته بصفته «القائد العام لجميع الجيوش الاسلامية ، ونسيب الخليفة ووكيل النبى» ، فى العمل سرا فى تنظيم ومحاولة توحيد عصابات البصمجية المشتتة تحت امرته . وبعد عدة اشهر ، فى اغسطس عام ١٩٢٢ ، لقى انور باشا مصرعه فى معركة مع وحدات الجيش الاحمر . بينما واصل الامير السابق سعيد عليم-خان بمساعدة الاقطاعيين والمستوطنين الروس السابقين المختفين فى تركيا وايران وافغانستان تقديم الدعم الى شراذم البصمجية المتناقصة فى العدد كثيرا ، التى كانت تسعى تائهة وسط الجبال والصحارى ، لكنها تشن بين الفينة والفينة هجمات ارهابية على المدن والقرى فتقتل الاهالى وتهاجم ، ضمنا ، النساء اللواتى كنّ يرفضن وضع الحجاب لاظهار ارادتهن فى الانعتاق والمساواة . لكن ولّت تلك الازمان حين كان رجال الدين يرغمون الفلاحين ، الذين يتجرأون على خرق قوانين الامير ، على الارتعاد خوفا تحت سطوة التهديد بغضب الله . واخذ المتطوعون الاوزبيك والطاجيك والتركمان الذين انتظموا فى سرايا الميليشيا الشعبية يطاردون زمر اعداء الثورة ، المتبقين عندئذ فى بعض الاماكن . وجرت آخر هجمة بصمجية بدعم المخابرات البريطانية فى افغانستان عام ١٩٣١ . اذ تسللت الى طاجيكستان عصابة بقيادة ابراهيم بك احد الاقطاعيين الهاربين مع عليم خان . لكن كان فى انتظارها الهلاك

---

* ى . ستالين . الجوانب القومية فى بناء الحزب والدولة . تقر فى المؤتمر الثانى عشر للحزب الشيوعى (البلشفى) فى روسيا . لينين وستالين . مجموعة مؤلفات لدراسة تاريخ الحزب الشيوعى البلشفى) . المجلد ٢ ، بارتيزدات ، ١٩٢٦ ، ص ٥٨٣ .

واسر الفلاحون ابراهيم بك الذى زعم انه حاول تحريرهم . وكان ابراهيم بك قد اصدر قبل فترة وجيزة من قيامه بآخر هجمة له ، وكانت فيها نهايته ، ما يشبه «البيان الى الشعوب القاطنة فى اراضى تركستان وتترستان وكازاخستان وقيرغيزيا وتركمانيا واوزبكستان وطاجيكستان» باسم «سمو الامير عليم خان» . وجاء فيه بين امور اخرى ان جميع الشعوب عاشت فى فترة حكم الامبراطور الروسى والامير عليم-خان فى سعادة وطمأنينــــة فى اراضيها ، ومارست ديانتها بحرية ، لكن منذ ان جرت الاطاحة بهما ، بدأ اجبار الناس على العمل باستخدام الماكينات ، وارغامهم على زراعة القطن ، وتم تغيير منظومة الرى التقليدية ، وتحولت المساجــــد الى نواد ومستشفيات ، اما النساء اللواتى كان ثمن الواحدة منهن الف روبل فقد بدأت الحكومـــة تسجلهن فى الكمسومول وترغم الازواج على التخلى عنهن .

وترد فى هذه الوثيقة افكار عهد ولّى منذ امد بعيد . لكن تعداد «الدعاوى» حيال السلطة السوفييتية لوحده يتيح رؤية الدرب الهائل الذى قطعته الشعوب المتحررة حتى ذلك الوقت . كما وتبين الوثيقة بصورة لاارادية المحتوى العميق للثورة الظافرة فى الشرق السوفييتى : فلم يكن هذا انتصـــار «الروس» على «الغرباء» ، بل انتصار الفلاحين والعمال والفقراء من جميع القوميات على الماضى المشترك الذى اتسم بالتخلف والادقاع والقهر .

مولد جمهوريات جديدة

يعتبر اى موقع للعمل فى كازاخستان ، وكذلك فى الجمهوريات الاربع بآسيا الوسطى – تركمانيـــا واوزبكستان وقيرغيزيـــا وطاجيكستان – سواء كان مصنعا او منشأة او كولخوزا او جامعة ، بمثابة عالم متعدد الاوجه ، يعمل ويتعاون فيه الرجال والنساء من ابناء عشرات القوميات . وفى كل مكان – فى غرفة الاستقبال لدى مدير المؤسسة او مدير الجامعة – يسمع الزائر حتما اقوالا تردد بافتخار واضح : «يعمل هنا ابناء عشرين او اربعين او خمسين قومية مختلفة» .

لكن اروع ما فى الامر لا يكمن فى هذا . اذ توجد امثلة عن

الجماعات المتعددة القوميات فى اماكن اخرى ايضـــا ، ومنها المدن الكبرى والمصانع فى البلدان الرأسمالية . اما الاختلاف فيكمن فى الصفة الخاصة للعلاقات البشرية القائمة ، وفى التعاضد والتعاون النموذجيين بين الرجال والنساء ، الذين كان اسلافهم ، منذ اقدم القرون وحتى فترة قريبة ، يتصادمون فى نزاعات مهلكة : فقد كان الاوربيون يحاربون الاسيويين ، والتركمان ضد الاوزبيك ، والطاجيك ضد القيرغيز ، والبدو ضد اهـــل الحضر ، والمسلمون ضد اليهود والمسيحيين ، وشعب ضد جميع الشعوب الاخرى او جميع الشعوب ضد شعب واحد . ولا يسع المشاهد ، اذا لم تصبه غشاوة الحقد على الاتحاد السوفييتى ، حين يتجول فى جمهوريات آسيا الوسطى ، سوى ان يذهل من جو الطمأنينة والتعاون الودى المميز للعلاقـــات بين المواطنين فى هذه الجمهوريات المتعددة القوميات .

ويحاول عتاة المختصين فى الشئون السوفييتية الذين «ليس بالامكان خداعهم» ، والذين ينطلقون من عدم امكان اقامة علاقات جوار وعلاقات طائفية بدون نزاعات ، اثبات العكس وهو ان العداء والضغينة بين الشعوب والجماعات الاثنية موجودان فى المجتمـــع السوفييتى بصورة مستترة ، وبالتالى فلا مناص من وقوع اصطدامات على هذا الاساس . لكن لا تتوفر لديهم اية واقعة ملموسة تدعـــم دعاواهم . وما كان بوسعهم ان يجدوا فى آسيا الوسطى او فى اية منطقة اخرى من الاتحاد السوفييتى ، ولهذا الامر مسوغاته ، اى «غيتّو» – محجر – تجمع فيه الاقليات القومية (سواء كانوا من المهاجرين او من الفئات الاخرى) ، كما يلاحظ هذا فى غالبية الدول الاستعمارية السابقة فى اوربا الغربية او امريكا الشمالية . كما اخفق مراسلو وكالات الانباء الغربية ، المتعطشون لتضخيم الاباطيل المعادية للاتحاد السوفييتى ، فى العثور على اصغر حادثة جديرة بالتعليق ، يمكن ان تقع بين فئات السكان المتباينة القوميات ، او اية اضطرابات تشبه باقل قدر ، مثلا ، الاشتباكات الدموية بين رجال البوليس البيض والعاطلين عن العمل الملونين فى الولايات المتحدة ، وكذلك فى بريطانيا ابان الفترة الاخيرة . واخفقوا فى ان يجدوا باى مكان امثلة لمقالاتهم عن وقوع هجمات عنصرية او غيرها من الجرائم على هذا الاساس ، والتى يمكن ، بالعكس ، مطالعـــة

اخبارها فى الصفحات الداخلية لجرائدنا . وقد غدت هذه الوقائع لكثيرة عندنا الى حد انها اصبحت من الاخبار اليومية ، ومألوفة الى درجة انها لا تثير انتباه القارئ . كما لا توجد فى الاتحاد السوفييتى نزاعات قومية او اقليمية بهذا النطاق او الحدة كما فى الاماكن الاخرى ، فلا توجد فيه : اولستر ، ولا توجد بورتو ريكو ، ناهيك عن سويتو وهارلم والاباما ، وحتى لا توجد مشكلات مثل تلك القائمة فى كورسيكا .

بينما لا يوجد بلد آخر فى العالم تتوحد فى اراضيه مثل هذه الكثرة العددية من القوميات المتباينة . ومن كان ينتمى سابقا الى امة ظالمة او مظلومة ، متقدمة او متخلفة ، صار يتمتع الآن بحقوق متكافئة ، ويتسم فى جوهر الامر بمستوى معيشة وامكانيات متكافئة فى التعامل مع الثقافة . ولا يوجد فيه بشر غير مرغوب فيهم لمجرد انهم من السود والصفر والملونين والهنود او العرب .

وفى الفترة حين «كان الانفراج قائما فى جدول العمل اليومى» وسمح لبعض الصحفيين العاملين فى «الصحافة الكبرى» بكتابة الحقيقة جزئيا عن الاتحاد السوفييتى ابدى المراسل الخاص لجريدة «موند» دهشته فى مايو عام ١٩٦٩ من التغيرات المذهلة الجارية فى آسيا الوسطى فى الميدان الروحى وكذلك فى الميدان المادى . فكتب جان مارابينى يقول : «ان الحكماء الاوزبكيين الذين حولوا ارضهم الى جنات عدن يبدو اليوم جذلهم بارتياح قائلين «اذن كنا على حق» . اذ ان الرمال السوداء والهضاب الصخرية والتربة الطينية السبخة ، التى كانت ملاذا للافاعى واحالتها الرياح الدائمة الى ارض جافة قفراء ، تتحول شيئا فشيئا الى مزارع القطن ، والى حدائق وبساتين كولخوزية تحيطها الاشجار ، والى جانبها تنمو القرى العامرة . وغدت الواحات المنعزلة المنفردة تتنامى اكثر فاكثر ، وتتحول تدريجيا الى مجمع اخضر موحد تبعث فيه اساطير الاولين الى الحياة بكل معنى الكلمة . ولم نشهد مثل هذه التحولات فى اى مكان طوال فترة التاريخ الحديث حتى فى كاليفورنيا . . .» * .

---

* جان مارابينى . معجزة اوزبكستان . «موند» ، ١٧ مايو ١٩٦٩ .

ومعجزة الارض هذه لا تتمثل فقط في آلاف الهكتارات من مزارع القطن والبساتين المنبثقة وسط الصحراء ، بل وكذلك في البحيرات والقنوات والسدود والمجامع الصناعيـــة والمدارس والجامعـــات والمختبرات ومراكز الابحاث التي شيدتهـــا يد الانسان . وهذه جميعا — نتاج التعاون بين ملايين البشر ، الذين تجاوزوا الحزازات والخرافات ، وتوحدوا من اجل بناء بيتهم المشترك .

في لحظة انتصار ثورة اكتوبر كان ما يجمـــــع بين شعوب كازاخستان وتركستان وامارتي بخارى وخيوا هو فقط وحدة الدين والتقاليد الاسلامية ، التي كانت بالمناسبة متباينة جدا تبعـــا للمنطقة ، وكذلك التراث المشترك المتبقي عن الفقر والاضطهاد ، وكذلك ، في نهاية المطاف ، وحدة السعي المشترك — وغير المدرك دائما — الى التحرر من الاضطهاد المزدوج اى الاجنبي والاقطاعي . وبخلاف هذا لم تكن ثمة روابط كثيرة تقرب ما بينها . كما لم يساعد على التقارب حاجز اللغة ، بالرغم من سيادة اللهجات الاتراكية الاصل . وعاش في منطقة شاسعة الاطراف الاوزبيك والقره قلباق والكازاخ والقيرغيز والتركمان والتتر والاويغور (بالقرب من الحدود الروسية — الصينية) والدونغان واليهود والكالميك والاكراد والطاجيـــك (الذين يتحدثون مثل شعوب بامير باللهجة الفارسية) والبلوجيون والتشاليون (يهود بخارى) وبعض القوميات الاخرى . . .

ووجب قبل كل شيء اقناع ملايين رعايا الاستعمار والاقطاع السابقين بان الماضي قد ولّى ، وان بوسعهم الآن تقرير مصيرهم بانفسهم ويجب على كل واحد ان يشيد «بيته القومي» ، دون احتراب بل بالتعاون مع جميع الشعوب الاخرى في الامبراطورية السابقة . وقد دافع لينين عن هذا المبدأ باصرار معارضا رأى بعض قادة الحزب البلشفي الذين كانوا يخشون ان تتمزق هذه الرقعة المترامية الاطراف الى دول كثيرة صغيرة وكبيرة غير قادرة على الصمود بوجه الضربات الموحدة لاعداء الثورة المحليين والاجانب ان اعترف بحق الشعوب في تقرير المصير والانفصال . ورأى لينين في هذا احدى الوسائل الرئيسية لسحق البرجوازية المحلية والاقطاعيين ، بان يبرهن عملا الى الشعوب المستعبدة سابقا صدق نوايا السلطـــة

الجديدة ، التى وعدت بالقضاء على كافة اشكال الاضطهاد المتسم بروح «روسيا العظمى» . وعلاوة على هذا استطاعت شعوب الشرق بهذه الوسيلة فقط الانضمام طوعا لاحقا الى الدولة السوفييتية المتعددة القوميات والتوحد فى كيان جديد . لكن كيف سيكون هذا الاتحاد ؟ لقد دعا قسم من القادة البلاشفة ومنهم ستالين الى اقامة اتحاد بين الجمهوريات ذات الحكم الذاتى ضمن جمهورية روسيا الاتحادية . بينما عارض لينين ذلك ، واصر على الالتزام الصارم بمبدأ المساواة بين الشعوب وحق كل واحد منها فى تقرير مصيره بنفسه. واكد على ان من المهم جدا التفريق بين العلاقات القائمة على اساس الحكم الذاتى ، داخل روسيا الاتحادية ، والعلاقات المنبثقة عن المعاهدات المعقودة بين روسيا والجمهوريات الاخرى ذات السيادة ، التى بوسعها الخروج من الاتحاد بحرية . وشرح قائلا ان المقصود هو تبرير امانى الشعوب ، بالرد على تطلعها الى الاستقلال ، وفى الوقت نفسه اقامة اتحاد من جمهوريات متكافئة فى الحقوق . ان التقارب الحقيقى بين الشعوب يفترض ان تزال من العلاقات بين القوميات كافة اشكال الاجحاف السياسى والاكراه ، والاعتراف ليس بالاقوال فقط بل وبالافعال بالمساواة بينها وحقها فى السيادة . وقد كرس قادة الدولة السوفييتية الجديدة انفسهم لتحقيق هذه المبادئ عملا . ووجب عليهم قبل كل شيء الشروع مجددا فى تحديد الحدود التى تتأسس ضمنها الجمهوريات المنبثقة حديثا وحيث تكون غالبية سكانها من اصل واحد ويتحدثون باللغة ذاتها ، والذين بعثرتهم الغزوات الروسية الاستعمارية والحروب الاقطاعية فى مناطق ادارية تكونت بصورة مصطنعة . ان هذه المهمة بالغة التعقيد حيث لا توجد اية منطقة ينتمى سكانها الى مجموعة اثنية واحدة فقط . فالاوزبيك مثلا موزعون كالتالى : كان يعيش ٦٦٫٥ بالمائة منهم فى محافظة تركستان العامة ، و٢٢٫٢ بالمائة فى امارة بخارى و١١٫٣ فى امارة خيوا . ويلاحظ التوزيع ذاته للتركمان : ٤٣٫٢ بالمائة فى تركستان ، ٢٧ بالمائة فى بخارى ، ٢٨٫٨ بالمائة فى خوارزم . وكان ٤٧٫٧ بالمائة من الطاجيك يقطنون فى تركستان و٥٢٫٣ بالمائة فى امارة بخارى . وفى الاماكن التى تحتشد فيها الاوزبيك باكبر قدر كان يقطن ايضا عدد كبير من الطاجيك والتركمان والكازاخ

وغيرهم . اما فى الاماكن التى يغلب على سكانها الطاجيك والتركمان او الكازاخ فقد وجد ايضا الكثير من ابناء القوميات الاخرى . فما الذى ينبغى عمله من اجل ان يشعر كل فرد بانه «فى بيته» ، ولكى لا تحس اية اقلية قومية بانها كبش فداء ؟ وكيف يتم هذا «التقسيم» الذى يجب ان يراعى الخصائص الاثنية واللغوية وفى الوقت ذاته مصالح وطموحات الجميع ؟

وقد بنى هذا الصرح على مراحل وبحذر كبير ، رغم ان هذا لم يخلُ من تعقيدات ومجادلات . فبينما كانت تدور رحى الحرب الاهلية اعطى المؤتمر الخامس لسوفييتات تركستان فى ابريل عام ١٩١٨ الى هذه المنطقة ، بحدودها القديمة ايام الاستعمار ، وضع جمهورية ذات حكم ذاتى ضمن روسيا الاتحادية . وفى ديسمبر عام ١٩٢٢ وبعد مناقشات دامت عدة اسابيع فى المؤتمرات الوطنية لسوفييتات جمهوريات اوكرانيا وبيلوروسيا واذربيجان وارمينيا وجورجيا حدد ٢٢١٥ مندوبا فى المؤتمر الاول لسوفييتات الاتحاد السوفييتى ، الذين اجتمعوا فى قاعة مسرح البولشوى ، القاعدة التى تتوحد على اساسها فى اراضى الامبراطورية السابقة الجمهوريات السوفييتية الوليدة او التى كانت تنتظر تأسيسها . والمقصود كما جاء فى البيان الذى اقره مندوبو المؤتمر ان يتم القضاء جذريا على الاضطهاد القومى ، وان يخلق جو الثقة المتبادلة وترسى اسس التعاون الاخوى بين الشعوب . والدولة الاتحادية فقط قادرة على ان تضمن فى آن واحد الازدهار الحر للشعوب ، وحماية مكتسبات الثورة ، والتطور الاقتصادى لكل واحدة من الدول الجديدة والاتحاد كله عموما . وحتى تلك اللحظة لم تكن تتمتع بعضوية الاتحاد السوفييتى الجمهوريتان الشعبيتان السوفييتيتان (ولم تطلق عليهما آنذاك بعد تسمية الاشتراكيتين) فى بخارى وخوارزم ، المرتبطتان بمعاهدات مع تركستان . وفى فترة ١٩٢٠-١٩٢٤ نشطت الظروف هناك للانتقال الى وضع جمهورية اشتراكية . واتخذ قرارا بهذا فى ديسمبر عام ١٩٢٤ المؤتمر الخامس لسوفييتات جمهورية بخارى . وعندئذ بات الوضع مناسبا لتعليم حدود الدول القومية الجديدة . ان انتهاء الحرب الاهلية ، وسحق عصابات البصمجية بصورة اساسية ، والهزيمة السياسية للتيارات القومية المتطرفة اليمينية ،

وتنامى مشاركة الجماهير الشعبية فى الحياة الاقتصادية والسياسية كانت تعنى جميعا ان الظروف اللازمة قد نشأت من اجل استحداث الكيان القومى الجديد . لكن القادة البلاشفة تجنبوا اتخاذ قرارات عاجلة . واصر لينين على ضرورة تفادى القيام باى عمل يفرض من «فوق» بصورة بيروقراطية وبدون اجراء مشاورات مع جميع الاطراف المعنية . كما انه لم يكل من تحذير بعض القادة القليلى الصبر جدا من مغبة الارتجال فى ميدان حساس كهذا .

اذن ، وجب ان يتيح تعليم حدود الجمهوريات القومية لجميع الفئات الاثنية ، كبيرها وصغيرها ، فرصة التطور «فى بيتها» بلا اكراه . واكد البلاشفة على انه وجدت الى جانب شوفينية «روسيا العظمى» ، التى بقيت بصفتها الخطر الرئيسى ، مظاهر «ثانوية» للنزعة القومية يمكن ان تغدو عقبات فى طريق الازدهار الحر للشعوب الصغيرة ، التى كانت القيصرية تضطهدها قبل ذلك . فمثلا ، كان البعض يرى ان من غير المسموح به منح الحكم الذاتى الى الاقليات التى تواجه المطامع التزعمية ، والمتسترة احيانا وراء الحجج «الثورية» لممثلى القومية السائدة . وهذا بالذات ما كان يتصف به سلطان غلييف احد زعماء الحزب والدولة ، الذى انزلق فيما بعد الى المواقع القومية للبرجوازية الصغيرة وسار فى طريق محاربة الحزب والسلطة السوفييتية ، الذى رفض باسم التتر فى مناطق الفولغا منح البشكيريين حق تكوين امتهم وتأسيس جمهوريتهم ، مفسرا هذا بانهم فى طور الاندماج مع التتر وبالتالى فان الدولة البشكيرية ليس لها حق الوجود . بينما حلم آخرون معه بتأسيس «الحزب الشيوعى الاسلامى» الذى يتلاءم حسب قولهم اكثر بقدر كبير فى مضمار التعامل «المباشر» مع شعوب الشرق وسيجد صدى اكبر لديهم من الحزب البلشفى اللااسلامى - فهو اممى فى جوهره ومتعدد القوميات فى قوامه . وقد ادانت اكثرية البلاشفة مضامين هذه الاقوال حيث تجلت الميول القومية الاتراكية مثل العلامات المائية على الورق بصورة غير واضحة تماما ، والتوجه الخطر بالنسبة الى التطور القومى بحد ذاته لدى الشعوب «الاسلامية» التى حررتها الثورة ، وكذلك بالنسبة الى التلاحم الضرورى بين الجمهوريات السوفييتية ، وبالنسبة الى مستقبل الحركة الثورية العالمية

اجمالا . كما وجد آخرون تلبسوا مسوح المدافعين عن «اوزبكستان الكبرى» و«خوارزم الكبرى» . و«قيرغيزيا الكبرى» . وكان يجمع ما بينهم كونهم يعتبرون من الامور الثانوية الوجود القومي لابناء القوميات التى يمكن ادخالها ضمن «منطقتهم» . ومن جانب آخر كان هناك بعض الروس الذين ما انفكوا يبدون روح «روسيا العظمى» الباقية : فكانوا يطالبون مثلا بفصل مقاطعتي الاورال وكوستاناى عن كازاخستان وبضمهما الى روسيا الاتحادية . كما تعالت فى لحظة قيام الاتحاد السوفييتى اصوات فوضوية الاتجاه دعت بذريعة وجوب «تجاوز الفكرة القومية» الى اقامة «اتحاد كومونات» خيالى مزعوم خال من اية حدود بين القوميات والدول .

وكان قادة الثورة يدركون كل الادراك انهم لن يستطيعوا معالجة مسائل معقدة بهذا القدر ، دون ان تؤخذ بنظر الاعتبار تركة الماضى ، وكذلك مصالح وطموحات جميع الشعوب والجماعات الاثنية . اما العمل باسلوب آخر ، وعن طريق الاكراه ، فيعنى تحويل آسيا الوسطى وكازاخستان الى برميل بارود . . .

وبدت مهمة تأسيس دولة جديدة من اجزاء بعد الثورة مهمة فائقة الصعوبة . وسبب ذلك هو التخلف الاقتصادى ، والوعى الاجتماعى غير العالى بقدر كاف بعد ، وانعدام الكوادر الوطنية الكامل تقريبا ، وكثير من العقبات امام «تطبيق النظام السوفييتى» ، اى تأسيس سوفييتات مؤلفة من فلاحين وعمال فى المناطق التى ما برح يسودها قانون البايات . وينبغى ان نضيف الى ذلك خطر التقدم بسرعة مفرطة الى الامام ، بدون مراعاة الاوضاع الواقعية القائمة . ووجب فى بعض الاحيان النكوص الى الوراء نظرا الى ان المسألة الاساسية تكمن فى عدم الابتعاد عن الناس لحظة واحدة ، وفى تهيئة الفرصة الى الفلاحين لاكتساب ادراك وجوب معالجة قضايا الريف منذ الآن فصاعدا بمشاركة وبواسطة ممثليهم المنتخبين . وهذا مفهوم جديد تماما بالنسبة الى الدهاقنة فى الواحات ناهيك عن البدو فى السهوب . لهذا ينبغى المرور بمراحل بينية : فتأسست السوفييتات فى قرى تركمانيا وقيرغيزيا وكازاخستان ، وكذلك فى اوساط البدو فى المناطق شبه الصحراوية ، على اساس قبلى احيانا . وانتخب لرئاستها الشيوخ الذين احتفظوا بمكانتهم كـ«حكماء» ،

والزعماء الاقطاعيون السابقون «بعد اعادة تربيتهم» ، ووافقوا على التعاون مع السلطة الجديدة . وطبقـــا للعادات السائدة كانت الاجتماعات الانتخابية تعقد للرجال والنساء على حدة ، كما ان النساء كن يدلين باصواتهن فى شتى الدوائر الانتخابية . وشارك فى انتخابات عام ١٩٢٥ نسبة ٥٠,٦ بالمائة من الناخبين فى كازاخستان ، ومن ٤٠ الى ٤٦,١ بالمائة فى آسيا الوسطى . وبعد مضى اربعة اعوام ، اى فى سنة ١٩٢٩ ، ازدادت النسبة الى ٦٠ بالمائة فى كازاخستان ، و٦١ بالمائة فى اوزبكستـــان ، حيث شاركت النساء فى الانتخابات بنسبة ٤٧ بالمائة .

وبغية الا تشعر اية مجموعة اثنية بالغبن مهما كان بدأ استخدام كافة لغات الكلام على قدم المساواة ، ولم تتمتع اية واحدة منهـــا بامتياز ما — سواء فى المجال الادارى ، ام فى الحياة اليومية .

والمسألة العاجلة الاخرى التى تقتحمها السلطة الجديدة هى تقدم الكوادر الوطنية بسرعة فى المناصب القياديـــة فى الحزب والدولة . ولغرض تنفيذ القرارات المتخذة ، وبغية ان يشعر ابناء البلد المستعمَر بانهم اسياد مصيرهم ، كان من الضرورى تكوين جهاز دولة «ثورى ووطنى» فعلا . وكما كتب لينين فى عام ١٩٢٢ يقول «ان ما ندعوه بجهازنا هو فى الواقع ما برح غريبا عنا تماما ويمثل خليطا برجوازيا وقيصريا لم تتوفر اية امكانية لتغييره فى خمسة اعوام لدى غياب المساعدات من البلدان الاخرى ولدى هيمنة «المشاغل» العسكرية ومكافحة الجوع» * . وجاء الى هناك من روسيا والاماكن الاخرى نشطاء محنكون ، لم تتضمن مهمتهم قيادة الكوادر المحلية بل مساعدتها فى معالجة المسائل السياسية والقضايـــا التنظيمية .

وقد لعب اعداد ومن ثم تخطيط حدود الدولة القومية دور المعجل فى تأسيس جهاز الدولة الجديد ، وكذلك فى اكسابه صبغـــة قومية اكثر . وفى عامى ١٩٢٣ و١٩٢٤ ازداد بهذه الصورة تمثيل الكوادر الوطنية فى الهيئات الادارية بالجمهورية الاوزبكية من ١٧ الى ٢٣ بالمائة فى هيئات الادارة المركزية ومن ٢٥ الى ٤٣ بالمائة فى

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٥ ، ص ٣٥٧ .

الادارة على نطاق المقاطعات . وبلغت ٩٠ بالمائة فى هيئات الادارة فى المناطق .

ثم شرعت السلطات الجديدة بحذر فى تكوين جهـــاز القضاء الحديث . ولم يكن الناس فى غالبية القرى مهيئين بعد لاستبداله بقضاة يطبقون مجموعة القوانين المدنية الجديدة . فحتى فى صفوف الشيوعيين انفسهم كان يوجد عدد كبير من المؤمنين (٤٤ بالمائة فى الحزب الشيوعى البخارى فى عام ١٩٢١) ، ولم تتوفر الثقة فى انهم سيقبلون بارادتهم مثل هذا التغيير الاساسى . لهذا واصل القضاة الاسلاميون اداء وظائفهـــم فى آن واحد مع القضـــاة السوفييتيين . وكان يرد على الذين يعربون عن عجبهم وقلة الصبر بالقول : «سيقارن الناس ويقررون» . وفعلا صار الناس يعلنون خيارهم بسرعة جدا . اى نظام افضل ؟ ففى المحاكم العاملة تحت ظل راية «النجمة الحمراء» لا حاجة لاعطاء اى «بقشيش» ، ولا حاجة للخوف من اية محسوبية — بسبب الانتماء الى هذه الاسرة او تلك او هذه العشيرة او تلك — ولا حاجة عمليا لدفع نفقات المحكمة . وبعد مضى عدة سنين اخذت منظومة المحاكمات المدنية تتسع بقدر اكبر ، بينما اصاب المحاكم الشرعية الاضمحلال التام واخذت تختفى تدريجيا ، كما ان بعض القضاة الشرعيين اكتسبوا «صفة جديدة» فى المحاكم السوفييتية .

وظهرت مشكلة مشابهـــة حين تم افتتاح اولى المؤسســـات التعليمية . واخذت تنافس «الكتاتيب» ، والمدارس الدينية الصغيرة البائسة ، حيث كان المعلمون الاسلاميون على مدى القرون يرغمون تلاميذهم على تكرار سور القرآن الى ما لا نهاية والتى لم يكن يفهمها فى غالب الاحيان التلامذة وكذلك المعلم نفســـه . لكن الكتاتيب بقيت طوال سنين عديدة وهى تنافس المدارس الحديثة . بيد ان المعلمين السوفييت اظهروا تفوق اساليبهم فى التعليم . وراحوا يقدمون للناس تلامذة تعلموا القراءة والكتابة فى خلال عام واحد ، بينما كان هذا يتطلب فى «الاسلوب القديم» ما لا يقل عن سبعة اعوام .

لقد رافقت هذه التغييرات اخطاء واشتباكات . اذ مـــا برحت باقية روح «روسيا العظمى» — روح ابداء الاستخفاف السافر او

فى غالب الاحيان الروح الابوية المستترة . واحيانا كان النشطاء غير العارفين بالعادات والنزعات المحليـــة يفكرون بانهم يفعلون حسنا حين يهاجمون الدين والتقاليد الاسلامية ، غير انهم كانوا فى الواقع يسيئون الى مشاعر المؤمنين ويقوضون المسألة ، التى بدا لهم انهم يدافعون بهذا عنها . وحدثنى يوسف براغينسكى ، من قدماء رجال الحزب الشيوعى السوفييتى ، الاختصاصى المعروف فى الادب الطاجيكى الاستاذ بمعهد الاستشراق فى موسكو قائلا : «كنت قبل ان يرسلنى الحزب الى طاجيكستان اعمل فى باكـــو باذربيجان . وآنذاك كنت من النشطاء الشباب المندفعين واعتقد باننى افعـــل الصواب حين اهاجم الدين . لكن حدث مرة ان استدعيت الى القيادة الحزبية فقال لى احد المسئولين : «لئن اردت الاحتفاظ بالبطاقـــة الحزبية فاوقف تهجماتك على الدين . ويجب ألا يحدث هذا ابدا هنا فى اذربيجان ، البلد الاسلامى» . ويتعين عليّ الاعتراف باننى لم افهم هذه الملاحظة جيدا وقتذاك . لكن كان لغرض مواجهة رجال الدين الرجعيين الذين حاولوا استثارة الجماهير ضدنا ، من الضرورى تأسيس «مجالس رجال الدين الحمر» الذين يقفون ، بالعكس ، فى مواقع الدفاع عن الثورة والسلطة السوفييتيـــــــة . وكنت اعرف احدهم – وهو طاجيكى اسمه شريف مخدوم ، العالم الفقيه المعروف فى تلك الايام ، كان يصدر الفتاوى المدعمة باقوال من القرآن الكريم ، شارحا ان القرارات الصادرة بشأن الاصلاح الزراعى هى قرارات عادلة ولا تتناقض مع احكام الاسلام . وكان ابن مخدوم – واسمه شكر – من تلاميذى . وهو اليوم عالم معروف ، وشيوعى . وانا اقول هذا كله بغية التأكيد على انه لو كانت مسألة الموقف من الدين هامة جدا ، فان الاهـــــم اكثر مسألـــــة الموقف من المؤمنين» * .

وسرعان ما لاحظ الحزب ان قوام اعضائه من ابناء القوميات اخذ يرفد بسرعة من النشطاء – المنحدرين من آسيـــا الوسطـــــى وكازاخستان : لانه بذلت فى هذا المنحى جهود فائقة ، وكذلك لان

* من حديث مع الاستـــــاذ يوسف براغينسكى فى موسكو . – **ملاحظة المحرر .**

المسألة غدت اسهل لازدياد عدد العمال المحليين (ازداد عددهم بنسبة ١٣٥ بالمائة فى اوزبكستان فى الفترة بين ١٩٢٦ و١٩٣٢). وبحلول عام ١٩٣٢ كان الحزب الشيوعى فى اوزبكستان يضم ٥٦,٩ بالمائة من الشيوعيين من الكوادر القومية . بينما بلغت هذه النسبة ٤٧,٤ بالمائة فى الحزب الشيوعى فى طاجيكستان ، و٤١,٤ بالمائة فى الحزب الشيوعى فى تركمانيا ، و٤٦,٢ بالمائة فى الحزب الشيوعى قيرغيزيا و٥٦,٦ بالمائة فى الحزب الشيوعى فى كازاخستان . وفى عام ١٩٢٤ – قبل رسم حدود اراضى الجمهوريات الجديدة – كان الحزب التركستانى يضم من حوالى ١٥ الف عضو ٤٢ بالمائة من الاوزبيك و٤٠ بالمائة من الروس و٥,٩ بالمائة من الطاجيك و٤,٥ بالمائة من الكازاخ و٢,٨ بالمائة من التتر و٤,٨ بالمائة من ابناء القوميات الاخرى . وآنذاك كان الحزب ما يزال «ريفيا» جدا ، كما يعكس هذا قوامه القومى : ٦٧ بالمائة من الفلاحين مقابل ٢٠ بالمائة فقط من العمال . وبعد مضى نصف قرن اى فى عام ١٩٨١ صار الحزب الشيوعى فى اوزبكستان يضم ٥٦٨٢٤٠ عضوا منهم ٢١٠٩٥٧ عاملا (٣٧,١ بالمائة) و١٤٧٦٩٨ فلاحا (٢٦ بالمائة) و٢٠٩٦٥٨ من فئة المثقفين (٣٦,٩ بالمائة) .

من المبادئ الى تجسيدها فى الواقع

انه لشىء جدير بالثناء حقا الاعلان عن المساواة بين الشعوب والافراد ، بيد ان اكثر المبادئ نبلا تبقى مجردة ان لم تتخذ التدابير التطبيقية من اجل تجسيدها فى الحياة . فعلى مدى سنوات طويلة من وجود الامراطورية الفرنسية كان الجزائريون والملغاشيون والكونغوليون والفيتناميون يقرأون على واجهات الابنية العامة – طبعا ان كانوا يحسنون القراءة – الشعار الفخور للجمهورية : «حرية – مساواة – اخوة» . بيد ان هذه الصيغة الرائعة لم تغير شيئا على مدى الاجيال فى وضعهم «كرعايا من منطقة ثانوية الاهمية» ، وكاجانب فى بلادهم نفسها ، حكم عليهم بالبقاء «متخلفين» الى الابد . والمساواة «القانونية» بين الشعوب ، المعلنة فى المرسوم البلشفى الذى نشر فور قيام ثورة اكتوبر ما كان

بعد ذاته ليغير شيئا بعد من وضعهم المجحف فعلا . وفي الواقع عن اية مساواة فعلية يمكن الحديث ان كانت روسيا واوكرانيا مثلا قد ولجتا عصر الصناعة ، بينما كانت آسيا الوسطى وكازاخستان ما زالتا تعيشان بصورة اساسيـــة في عصر المحراث الخشبي وحياء البداوة ؟

لقد حدد البلاشفة مهمتهم في برنامجهم (وبضمن ذلـــك في المؤتمر العاشر للحزب عام ١٩٢١ وفي المؤتمر الثاني عشر عام ١٩٢٣) القضاء باسرع ما يمكن على التركة الاقتصادية والثقافيـــة المنظام الاستعماري ورفع مستوى تطور الجمهوريات تدريجيـــــا وبصورة متناسبة ، بغية التوصل الى المساواة الحقة في كافـــة الميادين . وهذا يفترض وجوب تقديم الامم الاكثر تقدما في الاتحاد تضحيات معينة لخير الاقل تطورا . وهذا يعني مثلا بالنسبة الى روسيا انها ستتقاسم خلال اعوام مواردها معها ، وبهذا يتباطأ تقدمها نفسها ورفع مستوى معيشة سكانها ، من اجل تقديم المساعدة الى الجمهوريات الاقل تطورا ، والتي تحتاجها لغرض تجاوز تخلفهـــا التاريخي .

وتجسد هذا الخط في الخطة الخمسية الاولى (١٩٢٩-١٩٣٢) التي نفذت قبل الاوان . وجاء في توجيهات المؤتمر الخامس عشر للحزب البلشفي ان هذه الخطة «يجب ان تعير اهتماما خاصا الى قضايا النهوض باقتصاد وثقافة الاطراف القومية المتخلفة والمناطق المتخلفة ، انطلاقا من ضرورة القضاء على تخلفها الاقتصادي والثقافي تدريجيا ، وبالتالي مراعاة تحقيق وتيرة اسرع لتطورها اقتصاديا وثقافيا ، انطلاقا من الربط بين حاجات ومتطلبات هذه المناطق وحاجات ومتطلبات الاتحاد» * . وقد التزم الاتحاد السوفييتي بهذا النهج التزاما صارما المغاية على مدى اكثر من نصف قرن ، بالرغم من الحرب المدمرة التي اسفرت عن وقوع ضحايا بشرية فظيعـــة (اكثر من ٢٠ مليون شهيد) ودمار لا نظير له (١٧١٠ مدن و٧٠ الف

---

* الحزب الشيوعي السوفييتي في قرارات المؤتمرات والكونفرنسات والاجتماعات الكاملة للجنة المركزية . القسم الثاني . موسكو بوليتيزدات . ص ٣٤٣ . — **المحرر** .

قرية و٣١٨٥٠ مؤسسة صناعية و٤٠ الف مستشفى وغير ذلك من المؤسسات الطبية) . وفى فترة الخطة الخمسية الاولى ازدادت التوظيفات فى الصناعة بمقدار ٢,٧ مرة على نطاق الاتحاد السوفييتى كله ، اما الارصدة المخصصة لتطوير الصناعة الاوزبكية فهى من الناحية النسبية اكثر بصورة ملحوظة ، لانها تضاعفت فى خلال هذه الفترة بمقدار ٣,٨ مرة . وفى المناطق القديمة من الاتحاد السوفييتى ازداد الانتاج الصناعى بمقدار الضعفين ، بينما ازداد خلال الفترة ذاتها فى آسيا الوسطى بمقدار ثلاثة وحتى اربعة امثال . وفى نهاية الخطة الخمسية الثانية (١٩٣٣-١٩٣٧) ازداد انتاج الصناعة الثقيلة بالقياس الى مستواه فى عام ١٩١٣ بمقدار ٨,٥ مرة فى عموم الاتحاد ، ولكن بمقدار ١٤,٦ مرة فى كازاخستان ، وبمقدار ١١٤ مرة فى قيرغيزيا و١٧٧ فى طاجيكستان . ان هذه الارقام المذهلة تعطى صورة عن الجهد الهائل الذى بذل من اجل ان تفلت المستعمرات القيصرية السابقة من مستنقع التخلف . وفى فترة ١٩٢٤-١٩٢٥ لم تتجاوز عوائد اوزبكستان فى ميزانيتها عن نسبة ٣٨ بالمائة . وفى تركمانيا كانت النسبة اقل وهى - ١٠ بالمائة . بينما خصص الباقى من الميزانية الاتحادية للبلاد . وبدون هذه المساعدات ما كان بوسع الجمهوريات الآنفة الذكر ابدا مجابهة النفقات الطائلة اللازمة لتمويل المؤسسات الصناعية الكبرى .

وحدثنى اناتولى ايفانوفيتش لوكيانوف مدير سكرتارية هيئة رئاسة السوفييت الاعلى فى الاتحاد السوفييتى قائلا : «اليوم ايضا حين غدت الجمهوريات كافة متطورة ، لا توجد مساواة شكلية تجاه ذلك القسم الذى تسهم به فى الميزانية الاتحادية من الاموال المستحصلة من قبلها كمداخيل من شتى المؤسسات والضرائب . ومن الضرورى ان يؤخذ بنظر الاعتبار وضع كل جمهورية ، وكذلك المشاريع التى تهم الاتحاد كله . فمثلا ، ان الميزانية الاخيرة التى ناقشها السوفييت الاعلى ولجانه المعنية على مدى الشهرين الاخيرين تنص على احتفاظ جمهورية روسيا الاتحادية بنسبة ٣٧ بالمائة من مداخيلها ، واوكرانيا - ٥٥ بالمائة ، واوزبكستان - ٩٢,٣ بالمائة . اما فيما يتعلق الامر بتركمانيا وكازاخستان ، فانهما لم

تسهما بشيء في الخزانة الاتحادية ، محتفظتين بكل الاموال من اجل تنفيذ مشاريع التنمية الخاصة بهما» • .

وفي السنوات الاولى للثورة جرى تحويل مؤسسات صناعية باكملها من وسط روسيا الى آسيا الوسطى وكازاخستان من اجل تشغيل ميكانزم التصنيع . وفي عام ١٩٢٢ نقلت الى طشقند عدة معامل ورق وثقاب وخياطة . وجاءت الى سمرقند ونصبت فيها ماكينات صنع الاقلام وحياكة الملابس . ووردت الى بخارى معامل نسيج وورق وصابون وجلود . وتم في موسكو ونيجني نوفجورود وكولومنا تفكيك مصانع الاقمشة القطنية والسكر وغيرها من اجل ارسال معداتها الى كازاخستان . بيد ان هذه العملية ، كما اظهرت الخبرة ، انطوت على ازعاجات خطيرة . . . فقد اضيفت الى الصعوبات التكنيكية لنقل هذه المعدات وتشغيلها مسألة غياب الايدى العاملة الماهرة والطاقة الكهربائية في الاطراف . وبهذا نفذت عمليات معاكسة حين وضعت تحت تصرف الجمهوريات الاسيوية في روسيا نفسها مجموعة من المعامل . وكانت تنتج هناك السلع التى تلبى حاجات واذواق اهلها ، ويجرى اعداد كوادر العمال القومية المؤهلة .

بيد ان مثل هذا الوضع لا يمكن تواجده الا بصورة مؤقتة . لان تطور الصناعة الجاد يتطلب اقامة المصانع المحلية بسرعة . وفي المرحلة الاولى يقع الاختيار على الصناعة الخفيفة لتكون محور التنمية ، على عكس ما يجرى في المناطق الاكثر تطورا بروسيا الاتحادية . وبمراعاة الظروف المحلية ، ووجود الايدى العاملة وتوفر المواد الخام ، تم قبل كل شيء تطوير انتاج النسيج وصناعة المواد الغذائية . وفي الحقيقة ظهر ان هذا الاختيار ممكن حيث اصبح من المستطاع عندئذ الارتكاز على الجمهوريات الاتحادية التى كانت – مثل روسيا واوكرانيا – تمتلك وسائل انتاج قوية . وفي المرحلة الثانية فقط شرعت جمهوريات الشرق باقامة الصناعة الثقيلة . ومنذ ذلك الحين بدأت تنمو باستمرار الارصدة التى توجه الى هذا القطاع . ففي اوزبكستان ، مثلا ، تلقت المصانع من المجموعة «أ» (انتاج

• تم حديث المؤلف مع ا . لوكيانوف في مايو عام ١٩٨٢ . – **المحرر** .

وسائل الانتاج) ٣٤,٧ بالمائة من كافـــة التوظيفات فى صناعـــة الجمهورية ابان فترة الخطة الخمسية الاولى ، بينما تلقت ٧١,٩ بالمائة ابان الاعوام الثلاثة والنصف من الخطة الخمسية الثالثـــة (١٩٣٨-١٩٤٢) التى اوقفها العدوان الهتلرى .

وفى اواخر الثلاثينيات ، اى خلال فترة اقل من عشرين عاما ، تغير وجه آسيا الوسطى . فتم فى اوزبكستان تشغيل او الاستعداد لتشغيل محطات كهرمائية وكهرحرارية كبيرة ومصانـــع للمواد الانشائية وعشرات المؤسسات الجديدة للصناعة الغذائية ومصنع للآلات الزراعيـــة فى طشقند والمجمـــع الكهروكيميائيـــى فى تشيرتشيك والكثير من المؤسسات الصناعية الاخرى . وفى الوقت نفسه تطورت بوتائر سريعة صناعـــة النسيج على قاعدة الثروة الرئيسية للجمهورية اى القطن .

وحدث تطور سريع مماثل فى كازاخستان ايضا ، فشيد هناك ، حيث كانت تمتد السهوب فى زمان ما ، حوض قرقنده العمـــلاق لاستخراج الفحم ومجامع التعدين والميتالورجيـــا فى زيريانوفسك واوست-كامينوغورسك ولينينوغورسك . وتأسست مجامع صناعة النحاس فى بلخاش ، ومصنع الرصاص فى تشيمكنت ومصانـــع الكيمياويات فى أكتيوبنسك ومصانع المعلبات فى سيميبالاتينسك ومحطات كهرحرارية جديدة وعشرات المؤسسات الاخرى . وبالمقارنة مع عام ١٩١٣ ازداد انتاج الفحم فى عام ١٩٣٩ بمقدار سبعة امثال ، وانتاج المنتجات الكيمياوية بمقدار ٤٩,٢ مرة . واصبحت كازاخستان غداة الحرب العالمية الثانية منطقة ذات صناعة متطورة جدا بعـــد ان كانت اقليما تقليديا تمارس فيه الزراعة وتربية الماشية على نطاق واسع .

لقد ربط خط سكك حديـــد «توركسيب» ما بين تركستان وسيبيريا فى اقصر طريق . وجرى مد الخط فى سنوات الخطـــة الخمسية الاولى وفى فترة قصيرة قياسيا ، واصبح شريانا ذا اهمية حيوية فى المنطقة .

وتحققت جميع هذه المنجزات ، التى هزت بنية المجتمع القديم ، فى فترة زمنية قصيرة جدا . وسرعان ما اصبح مئات آلاف الدهاقين والبدو الرحّل من عمال المصانع . وبينما ازداد عدد العمال بروسيا

فى عام ١٩٣٦ قياسا الى عام ١٩١٣ بمقدار ثلاثـــة امثال ، ازداد عددهم فى كازاخستان بخمسة امثال ، وفى اوزبكستان بستة امثال ، وفى تركمانيا بحوالى تسعة امثال . وفى قيرغيزيا ازداد عدد العمال خلال الفترة ذاتها بمقدار ١٦ مرة . وفى عام ١٩٣٦ المذكور كان ابناء القوميات فى آسيا الوسطى وكازاخستان يشكلون نصف عدد عمال الصناعة هناك البالغ عددهم مليونين و٢٠٠ الف عامل .

وشخصت امام السلطة السوفييتية فى الارياف مهمـــة نادرة المثال اكثر من اقامة صناعة حديثة فى مكان خاو . فقد وجب اقناع ملايين الفلاحين ، جلهم من الاميين ، واعتادوا التفكير بمصالحهم الشخصية فقط ، بالمشاركة فى امر جديد تماما هو التحويل الثورى للزراعة على اساس انتقالها الى النظام التعاونى الاشتراكى . بينما اصاب القرى الانهاك والادقاع ابان عقود من الاستغلال وعانت من كل عواقب الحرب الاهلية . وفى عام ١٩٢١ اعطت الزراعة فى آسيا الوسطى فقط ثلث منتوج ما قبـــل الحرب : اذ تقلصت الاراضى الزراعية بحوالى النصف ، بينما اصاب الخراب قرابة خمسين بالمائة من منشآت الرى . ونقص عدد رؤوس الماشية بمقدار ثلاثة امثال . والفلاحون فى آسيا الوسطى ، شأنهم فى العالم اجمـــع ، اناس عمليون ولا تؤثر فيهم كثيرا الخطب والوعود ، غير المدعمة بالافعال . وتطلب تحسين حياة الفلاح (الدهقان) اجراء اصلاح زراعى جذرى قبل كل شيء . وكان تخلف الجماهير السياسى والاجتماعى ، وتواصل نفوذ الزعماء والملالى التقليديين ، ونشاط عصابات قطّاع الطرق (البصمجية) ، يملى التزام الحذر فى هذه المسألة وابداء المرونة . لهذا السبب جرى الاصلاح على مراحل متعاقبة وخلال فترة طويلـــة نسبيا . ففى عام ١٩١٨ تمت مصادرة اراضى العائلة القيصرية وكبار المستوطنين والرأسماليين الروس وموظفى الادارة الاستعماريـــة والبايات المتورطين فى ممارسة اعمال مضادة للثورة ، ووزعت على الفلاحين . اما فى جمهوريتى بخارى وخوارزم السوفييتيتين الشعبيتين فلم تمض المسألة ابعد من مصادرة اراضى الامير والخان وعدة اقطاعيين كبار وتسليمها الى الفلاحين الفقراء . وفى نهاية الحرب الاهلية فقط حين استقر الوضع نوعا ما ، بالرغـــم من استمرار

البصمجية بنشاط فى شن الغارات على القرى ، بدأ اعتمادا على قرارات المؤتمر التاسع لسوفييتات عموم تركستان (سبتمبر ١٩٢٠) ومراسيم اللجنة التنفيذية المركزية لجمهورية كازاخستان (فبراير وابريل عام ١٩٢١) ، العمل فى تطبيق الاصلاح الزراعى - المائى فى فترة ١٩٢١-١٩٢٢ . وكان الهدف الاساسى للاصلاح الجديد هو مساواة الفلاحين المحليين والروس فى الحقوق فى الارض والمياه . فسلمت الى السكان الاصليين الاراضى المصادرة من المستوطنين - الكولاك الروس ، واخذ منهم الفائض من الماشية والبذور والادوات الزراعية . وفى سياق تنفيذ الاصلاح فى تركستان صودر من الكولاك ما يربو على ٢٣٢ الف هكتار من الاراضى ، سلمت الى حوالى ١٣ الف استثمارة للفلاحين الاجراء الفقراء . وفى كازاخستان وزع على السكان الاصليين ما يربو على ٤٧٠ الف هكتار من الارض . وكانت المرحلة التالية من التحولات الزراعية هى تنفيذ الاصلاح الزراعى - المائى فى اعوام ١٩٢٥-١٩٢٩ . وتنفيذا لمراسيم الهيئات التنفيذية فى جمهوريات اوزبكستان وتركمانيا وكازاخستان انتقلت ملكية جميع الاراضى والمياه الى الدولة . وبذلك فرض الحظر على شراء وبيع وتأجير الاراضى والموارد المائية ، وتمت مصادرة ملكيات مالكى الاراضى الكبار والتجار والمرابين دون ان يستثمروها بانفسهم . وحدد الاصلاح الزراعى الحد الاقصى لقطعة الارض التى يستثمرها الفرد . وصودر كل ما يتجاوز الحد واصبح ملكا عاما . وفى نهاية المطاف تم تحويل بعض اراضى الاوقاف الى الارصدة التى كونها الاصلاح الزراعى . وقد اتاحت هذه التدابير اخلاء ما يربـــو على ٢٨٠ الف هكتار من الاراضى المروية بآسيا الوسطى والتى سرعان ما وزعت على ١٢٣ الف اسرة من الفلاحين ، واستثمارات الدهاقنة المعدمين او الفقراء . وكلفت هيئات السلطة السوفييتية بتوزيع المياه . واحتفظت الدولة بقسم من الارض لغرض اقامة مزارع تعاونية فيها اصبحت فيما بعد مزارع نموذجية .

ان اعمال الاصلاح الزراعى لم تحل مسألة الارض نهائيا بالرغم مما احدثته من تغييرات عميقة . فقد حال نقص الاراضى «الخالية» دون تلبية حاجات الجميع : اذ بقى بعض الدهاقنـــــة بلا شىء او بالقليل جدا . وكان نصف الاراضى الموزعة ضئيلة المساحة جدا .

وفى هذه الظروف اخذ الفلاحون الاغنياء والبايات فى العهد البائد يستطيعون كالسابق استغلال افقر الفلاحين وفرض ارادتهم عليهم . وفعلا ، فلا يكفى اعلان مرسوم لكى يصبح سارى المفعول مثل القانون . ووجب النضال فى سبيل تنفيذه . وكان يجب على السلطات اقامة صلة حية مع اهل الريف . وقد ساعدت على ذلك لجان الفقراء التى ما انفكت تحارب البصمجية وساعدت بنشاط على تنفيذ الاصلاح الزراعى وتحقيق الانتقال تدريجيا الى النظام التعاونى . وبدأ الاخير من تكوين هيئات بسيطة جدا هى : تعاونيات لبيع وشراء المنتجات الزراعية ، وبصورة اساسية القطن ، وللتسليف وتوزيع المياه وصيانة القنوات والسواقى ، ولاستخدام المعدات والماكينات الزراعية التى تقدمها الدولة .

وابدى الفلاحون اقبالا على الانضمام الى التعاونيات لان الدولة كانت تمنحها الافضليات ، مثلا ، فى تقديم القروض . واعتبارا من عام ۱۹۳۰ ظهرت اولى الكولخوزات حيث وحد الفلاحون على اساس جماعى اراضيهم ومعدات عملهم وماشيتهم المخصصة للعمل . ومنذ ذلك الحين اصبح شعار اليوم تطبيق النظام التعاونى على نطاق واسع . فالزراعة الحديثة الطراز فقط ، وذات المكننة العالية والتى تتوفر لديها مئات بل وبالاحرى آلاف الهكتارات ، تستطيع وضع حد لتشتت الارض والنهوض بالانتاج نهوضا حقيقيا وانقاذ الدهاقنة من ادقاع القرون الوسطى . وفى بداية هذه المرحلة الجديدة استطاعت الصناعة السوفييتية ان تقدم الى الزراعة الماكينات اللازمة . وفى مارس عام ۱۹۳۰ كان يوجد فى اوزبكستان ٦ محطات للسيارات والجرارات بينما بلغ عددها ۷۹ محطة فى عام ۱۹۳۲ .

وفى مطلع عام ۱۹۳۰ وفد على كازاخستان وآسيا الوسطى من المناطق الصناعية ، تلبية لنداء الحزب الشيوعى السوفييتى ، آلاف المتطوعين – من عمال وفنيين – توزعوا على القرى فى القسم الاوربى وكذلك القسم الشرقى من الاتحاد السوفييتى . واخذوا يساعدون الفلاحين فى تنظيم مزارعهم الجماعية وتعليمهم سياقة واستخدام واصلاح الآليات غير المعروفة لديهم .

وجرى تطبيق النظام التعاونى على قدم وساق . وكانت الرغبة

فى المضى على هذا الدرب عظيمة جدا الى ان عمليـــة استحداث التعاونيات تمت بسرعة جدا . ولئن كان افقر الفلاحين ، الذين ليس لديهم ما يخسرونه ، يخلصون بيسر الى القناعة بان من الضرورى لهم توحيد انفسهم ، فان الفلاحين المتوسطيـن كانوا يتشبثـون باراضيهم ، ويفضلون العيش وفق القول المأثور : «لنحيا ونرى» . وابدى اكبر العداء لتطبيق النظام التعاونى ، وهذا طبيعى ، من كان يفقد اكثر من الجميع . فراحوا يصغون عـن طيب خاطر الى دعوات البايات السابقين وجميع من اصابه الضرر بسبب الثورة . واستغل رؤوس البصمجية الاضطرابات المتأتية عن التعجيل بتطبيق النظـام التعاونى ، بعد ان طُردوا من البلاد ووجدوا ملاذا لهم فى افغانستان ، فاخذوا من جديد يعبرون الحدود سرا ويستأنفون غاراتهم الارهابية على قرى فرغانة . ان تطبيق النظام التعاونى فى الزاعة تطبيقا شاملا ، وبضمن ذلك فى تلك الاماكن حيث لم يكن الفلاحون مستعدين له بعد ، كان يقود فى بعض الاحيان الى حدوث خروقات فظة فى مبدأ احترام القرار الطوعى للافراد . وهذه التطاولات الخطيرة على نظام الالتحاق بالكولخوزات قد اثارت سخط قسم من الفلاحين واساءت الى سمعة الجهود العملاقة المبذولة من اجل تحسين مصيرهم .

ولم يكن ثمة مناص من حدوث فواصل فى عملية تطبيق النظام التعاونى فى الزراعة واحيانا حتى القيام بخطوات الى الوراء . وفى بعض الاحيان جرت تصفية بعض الكولخوزات التى تأسست بصورة مصطنعة . وكان هذا تراجعا خطيرا ، الا انه اتاح الفرصة للقيام بقفزة جديدة الى الامام ، وفى هذه المرة بصورة مدروســة اكثر وباستعداد افضل . وساعدت القاعدة المادية للبلاد المتنامية والمتوطدة بسرعة على تزويد المزارع التعاونية بصورة افضل بالمعدات والجرارات والبذور اللازمة من اجل زيادة الانتاج بسرعة .

واتاحت النتائج المستحصلة على النهوض بسرعة وبقدر اكبـر بمستوى معيشة الفلاحين الذين انضموا الى هذه الحركة . كما انها اصبحت فى الوقت نفسه دليلا ساطعا على تفوق النظام الكولخوزى على الادارة الفردية للمزرعة فى قطعة صغيرة من الارض .

وكان الدعم من جانب روسيـــا الاتحادية يشكل عاملا حاسما :

فقد ضمنت مصانع الجرارات الجديدة فيها المنتجات الى كولخوزات وسوفخوزات كازاخستان وجمهوريات آسيا الوسطى قبل غيرها . ولهذا السبب وجدت في عام ١٩٤٠ في الاستثمارات الزراعية بهذه الجمهوريات كمية اكبر نسبيا مـــن الجرارات مما في روسيا او اوكرانيا (محسوبا لكل نسمة من اهالى الريــف) . وفي عام ١٩٣٩ كانت الزراعة الاوزبكية ممكننة بنسبة ٥٠ بالمائـــة (كانت هذه النسبة في ايطاليا خلال العام نفسه تعادل ١٦ بالمائـة) . وجهزت مصانع الكيمياويات الجديدة مزارع القطن فـــى اوزبكستان بآلاف الاطنان من الاسمدة .

كما تغير الدهاقنة انفسهم : فما صاروا يسوقـون الثيران او الجمال التي تسحب المحاريث الخشبية ، بل اصبحوا سائقى جرارات وشاحنات ومهندسين زراعيين . وبنتيجة ذلك ازداد محصول القطن في آسيا الوسطى خلال عشرة اعوام بحوالى الضعفين . لكن وجـب لغرض تحقيق هذه المعجزة تزويد الحقول بكميات كافيـــة من المياه . ولم تكف لهذا الغرض القنوات القديمـــة بعد تعميرها . وتلبية لنداء الحزب توجه عشرات آلاف الفلاحين حامليـن المجارف والمعاول لغزو الصحراء بحماس منقطـــع النظير . وسنورد مثالا واحدا فقط . في عام ١٩٣٩ تم في غضون ٤٥ يوما فقط شـــق المرحلة الرئيسية من قناة فرغانة الكبرى (انجزت فـى عام ١٩٤٠ وبلغ طولها الاجمالى ٣٤٥ كيلومترا) ، والتي اتاحت تأسيس مزارع جديدة في آلاف الهكتارات . فقـــد تغيرت الازمان - وتغيرت الدوافع المحركة . واليوم يتحدث الكولخوزيون عـــن مأثرة فرغانة فقط من اجل تصوير صفحة بطولية من التاريخ القريب . وفي الوقت الحاضر يلمع بريق صفحة مياه البحيرات الاصطناعية الضخمة فـي الجبال والسهوب ، وتقوم مجارى المياه الاصطناعية كالانهار بارواء الصحراء وتثيرها بدون توقف ، واهبة الحياة الى آلاف الهكتارات من المزارع الجديدة ومئات البلــــدات المنبثقة وسط الرمال . وتأسس هذا كله ليس من قبل المتحمسين الغلاظ والابطال فـــي السنوات الماضية ، العاملين بكـــل قواهم باستخدام المجرفـــة والمعول ، بل الوحوش الميكانيكية العملاقة - الجرافات والحفارات والجرارات التي صنعها ووجهها ابناؤهم واحفادهم .

ابناء اولغ بيك يكتسبون المعارف

فى عام ١٩٠٦ كتب احد الاختصاصيين فـــــى جريدة «اخبار التربية» الصادرة فى روسيا ان محو الاميـــــة فى آسيا الوسطى يتطلب فترة ٤٦٠٠ عام . طبعا ، انه انطلق فى حساباته من وضع الاشياء فى مجال التعليم يومذاك . وفعلا ان النظـام الاستعمارى القيصرى لم يرد ابدا معالجة هذه المشكلة بجد . وقدم اطيب الخدمات الى مصالحه ما كان يسود اوساط الاهالى المحليين من جهل وظلامية وقد اكتفت السلطات القيصريـــــة بافتتـــــاح عدة مدارســـــ «روسية للاهالى المحليين» الى جانب الكتاتيـــــب الدينيـــــة . وكانت الغايـــــة منها اعداد صغار الموظفين مـــــن ابناء الاهالى المحليين . فقد وجدت الادارة الروسية والمستوطنون حاجة اليهم من اجل اخضاع البلد بشكل افضل وتكوين حلقة وسطية بينهـــــا وبين اهل المستعمرة . ان هذه السياسة مشابهة لتلك التـــــى مارسها فى عام ١٩٢٧ وزير المستعمرات الفرنسى ألبيـر سارو . فكتب فى كتابه «كيف تجنى المنافع من المستعمرات الفرنسية» يقول : «. . . يجب ان يبرز التعليم نخبة من الموظفين الذيـــــن يلتحقون فى جهاز الادارة ذي العدد غير الكافى من الاوربيين بصفة وكلاء فنيين واسطوات وملاحظين وكتبة وسعاة كما ويلبون الحاجات المتنامية للمؤسسات . . .» . ثم اردف ســـــارو يقول باحتراس : «ان الجهود فى مضمار التعليم يجب ان تكون متغايرة جدا وموزونة بحكمة» . لربما كانت قرارات الادارة القيصرية فى آسيا الوسطى «متغايرة جـــــدا وموزونة» ، بقدر اكبـــــر من قرارات الادارة الاستعمارية للامبراطورية الفرنسية .

لقد وجدت فى تركستان كلها غداة قيام الثورة ٤٧٦ مدرسة روسية فقط مخصصة للاهالى المحليين ، وكان يتعلم فيها اقل مـــن ٣٠ الف تلميذ . ولم يوجد فـــى اراضى اوزبكستان الحالية سوى مؤسسة تعليمية ثانوية متخصصة واحدة يتعلم فيها ٨٦ طالبا ولم يوجد معهد عال واحد . وبنتيجة هذه السياسة لـــم يتجاوز عدد الذين كانوا يحسنون القراءة بهذه المنطقة نسبة الاثنين بالمائة .

وفى اوساط الاوزبيك كانت نسبة الذين يحسنون القراءة والكتابة ١,٦ بالمائة ، وفى اوساط القره قلباقيين - ٠,٣ بالمائة .

وبعد انتصار الثورة بات من الواضح تماما ان تحقيق التحول الاقتصادى والاجتماعى الحقيقى للاقليم غير ممكن بدون الثورة الثقافية . وقد تطلبت الوتائر العالية للتصنيع وتطبيق النظام التعاونى فى الزراعة توفر اعداد متزايدة من الكوادر المحلية المؤهلة . بيد انها ما كانت لتستطيع البدء باتقان استخدام المعدات ودراسة العلوم والمشاركة فى اعمال القيادة السياسية والادارية على كافة المستويات وفى جميع ميادين حياة دولتهم بدون القضاء على الامية .

ولم يحدث فى التاريخ من قبل ان تم خلال بضع سنوات تحويل الفلاحين الاميين الى مواطنين ومواطنات يستطيعون القراءة والكتابة ، وفى الوقت نفسه افتتاح آلاف المدارس من اجل الاطفال . وقد انجزت هذه المبادرة العملاقة حتى نهايتها واعتبرت بمثابة ملحمة قام بها ملايين الرجال والنساء الذين استيقظوا من سبات القرون الوسطى ، ودخلوا فى معركة ضد جهالتهم انفسهم .

ووجب على الثورة ان تعيد الى الشعوب المظلومة حريتها وكرامتها ، وان تبعث لغاتها وثقافتها . لكن قبل كل شىء اية لغة تدرس ؟ هل هى لغة الكلام للفلاحين وابناء المدن ؟ ان الجواب على ذلك بالايجاب يبدو اليوم شيئا مفروغا منه . لكن آنذاك كان الامر مختلفا . فبالنسبة للمثقفين «من الاهالى المحليين» - حقا كان عددهم قليلا بيد انهم من المتنفذين - اعتبرت دراسة شىء ما غير لغات الادب ضربا من تدنيس المقدسات . اما رجال الدين الذين تربوا على الاحترام الخرافى للتقاليد فقد عارضوا طبعا كافة المستجدات فى مجال التعليم ، وكذلك فى اى مجال آخر . فهل من الايمان معرفة الصلاة عن ظهر قلب ، حتى ان كان المؤمن لا يفهم معنى كلماتها ؟ وعاش فى السهوب والجبال الكثير من الرعاة الشيوخ الذين كانوا يؤمنون بالافكار ذاتها .

روى نصر الله اخوندى الذى يواصل العمل ، فى اعوامه السبعين ، بدار النشر للغات الاجنبية فى طشقند ، ذكرياته عن كيف ارسله الكمسومول الى قرية نائية بمقاطعة سمرقند من اجل

افتتاح مدرسة هناك ، ووجب عليه الاجابة عن الاسئلة الماكرة لاهل القرية اصحاب التفكير القديم او من ذوى اتجاهات التفكير المعادية : وقد حدث هذا فى عام ١٩٢٩ وكان البصمجية ما برحوا يواصلون ارتيادهم للمنطقة . وروى اخوندى قائلا : « جئنا الى هناك نحن الاثنين وحذرونا بوجوب التزام الحذر . فاستقبلنا فريق من الفلاحين سوية مع ممثل السوفييت المحلى ، الذى وجه الي السؤال التالى :

– كيف ستعلم الاطفال ، هل بالطريقة القديمة ام الجديدة ؟

آنذاك كانت لا تزال موجودة المدارس الدينية وساد استخدام الكتابة بالحروف العربية . فاجبته بحذر :

– ساعلمهم كما يريد هذا الناس . . .

– واذا اراد الناس ان يكون كل شيء بالطريقة القديمة ؟

– اذن ، سنعلم بالطريقة القديمة !

– وهل انت قادر على ذلك ؟ هيا اذن ، ارنا مقدرتك . . .

لحظتئذ بدأت بتلاوة سورة كاملة من القرآن الكريم بموجب كافة القواعد – وكنت اعرفها . فرأيت ان الامور سارت نحو الافضل . واجلسونى فى مكان الصدارة . وتبادلنا اطراف الحديث فقلت لهم : «لقد انصرمت فترة طويلة من الزمن والاطفال يتعلمون بالاسلوب القديم ، ولا يفهمون ما يرددونه . ألا تعتقدون ان بالامكان محاولة تعليمهم بالاسلوب الجديد ؟» وبهذا افسدت كل شيء . وبعد هذا ما عادوا يثقون بى . ووجد بين الناس افراد لهم علاقات بالبصمجية ، وفى حوالى الساعة الثانية بالليل سمعنا ضجة بالقرب من البيت حيث نزلنا للمبيت . فجاء اشخاص غرباء للقبض علينا . وتسنى لنا القفز من النافذة واطلقنا سيقاننا للريح بعد عبور الحاجز . وكانت الثلوج تتساقط وغمرت الطريق ، ومع ذلك افلحنا فى ايجاد ملاذ لنا فى قرية تقع بموضع يبعد خمسة عشر كيلومترا عن ذلك المكان . . .» * .

وبالرغم من الخرافات والجرائم التى كان يرتكبها البصمجية او

---

* من حديث مع نصر الله اخوندى بطشقند . ابريل ١٩٨٢ . – المحرر .

بايعاز منهم بحق المعلمين والمتطوعين فى حملة مكافحة الامية فان هذه الحركة تنامت شيئا فشيئا . وقد تجاوبت مع تعطش الجماهير نفسه الى طلب العلم ، والى العمل فى مضمار بناء الحياة الجديدة . وفى القصة التى رواها جنكيز أيتماتوف نرى ألطيناى الصغيرة - التى تصبح فيما بعد استاذة وعضوة فى اكاديمية العلوم ، الا انها كانت آنذاك ما تزال تلميذة و«الحب الخفى» الذى يضمره ديوشين لها - تتحدث عن البهجة التى انهالت بها على تلك المعارف ولتكن قليلة ، التى قدمها معلمها الاول اليها : «لقد احتفظت بالدفتر الذى اعطاه لى ، ولهذا كنت احفر الحروف بنصـــل المنجل على الارض ، واكتب بالفحم على الجدران ، وبالعود على الثلج وتراب الطريق» * .

جرت الحملة العامة لمحو الامية على نطاق واسع بآسيا الوسطى فى اواخر العشرينيات . وآنذاك تأسست على نطاق البلاد كلهـــا الجمعية الطوعية «لتسقط الامية» ، التى ترأسها ميخائيل ايفانوفيتش كالينين رئيس اللجنة التنفيذية المركزية للاتحاد السوفييتى .

ولغرض اظهار الطابع الجماهيرى لهذه الحركة يكفى التذكيـــر بانه فى نهاية عام ١٩٣٠ بلغ عدد المشتركين فى مكافحـة الامية اكثر من مليون شخص . وتعلم القراءة والكتابة عشرات ملاييـــن الاشخاص . وكانت مذهلة على الاخص الانجازات فى المناطـــق القومية . وفى نهايــــة عام ١٩٣٢ ارتفع مستوى معرفــة القراءة والكتابة فى طاجيكستان السوفييتية من ٤ الى ٥٢ بالمائة ، وفـــى تركمانيا السوفييتية من ٥ر١٣ الى ٦١ بالمائة ، وفـــى اوزبكستان السوفييتية من ١٢ الى ٧٢ بالمائة وفى مـــا وراء القفقاس من ٣٦ الى ٨٦ بالمائة .

وشارك فى هذا «الزحف الثقافى» عشرات آلاف المتطوعيـــن : من معلمين وتلامذة الصفوف العليـــا وموظفى المؤسسات ورجال السكك الحديدية - الاعضاء فى الحزب والنقابات والكمسومول - وجميع من تلقى اى تعليم . وكونوا فى الاحياء السكنية فى المدن وفى المؤسسات والقـــرى والبلدات مجموعات لتعليـــم القراءة

---

* جنكيز ايتماتوف . روايات قصيرة . «دار ادب الاطفال للنشر» ، ١٩٧٦ ، ص ٣١ .

والكتابة . وبغية عدم الاخلال بالعادات تشكلت حلقات منفردة للنساء . كما ظهرت «المقاهى الحمراء» التى غدت مراكز للدعاية والثقافة . وصار الفلاحون يتعلمون فيها القراءة . ومن ثم باتت بوسعهم الاستفادة من الكتب والمجلات والجرائد الموجودة هناك . كما اخذ يرتادها الناس للاستماع الى المحاضرات حول شتى الموضوعات .

كما شملت حملة مكافحة الامية المناطق النائية جدا . واخذ الجمّالون والرعاة فى المراعى يفتحون كتب التهجى واولى الكتب فى حياتهم المدونة نصوصها بلغتهم .

وكان المتعلمون هناك منذ ايام الفتح الاسلامى لآسيا الوسطى يتحدثون باللهجات الاتراكية او الايرانية ويستخدمون الكتابة العربية ، التى لا تتناسب جيدا مع نبرات الكلام المنطوق . وفى القرن السادس عشر قال الشاعر الاذربيجانى العظيم فضولى ان من الضرورى استحداث ابجدية جديدة تعبر بشكل افضل عن اللهجات الاتراكية . واوردت الفكرة ذاتها اكثر من مرة من بعده ، بيد ان تحقيقها عمليا كان يصطدم دائما بمقاومة رجال الدين الذين رأوا فى التخلى عن الكتابة العربية ، التى كتب بها القرآن ، تطاولا على الدين نفسه .

وبعد الثورة واصلوا هناك استخدام اسلوب الكتابة الخطى التقليدى ، لكن طُرحت من جديد مسألة ابداله باسلوب يوائم اللغة بقدر اكبر واكثر يسرا بالنسبة للتعلم . وفى بادئ الامر ، فى نهاية العشرينيات ، بدأ فى آسيا الوسطى استخدام الابجدية اللاتينية . ومن ثم اعتبارا من ١٩٣٩-١٩٤٠ بدأ استخدام الابجدية الكيريلّية (مع بعض التغييرات الطفيفة) . ولم يفرض هذا الاصلاح من قبل موسكو ، كما يحاول بعض المؤلفين تصوير الامر . بل كان ثمرة مناقشات دامت سنوات عديدة ، واجراها علماء الاستشراق واللغة السوفييت ، وكان بينهم طبعا ابناء قوميات آسيا الوسطى ، ومنهم ، مثلا ، الاكاديمى ت . قارى-نيازوف مؤسس الابجدية الاوزبكية الحديثة . ومن الطبيعى ان يتسم الاستحداث المذكور باهمية سياسية ايضا: فلا بد وان تعزز الابجدية الجديدة التحالف بين مختلف الشعوب والتبادل الثقافى بينها . ولم يفرض حل هذه

المسألة من جهات عليا ابدا . فمثلا واصل الارمن والجورجيون فى الظروف المختلفة استخدام الكتابة الموجودة لديهم .

مع هذا وجد عدد كبير من المنتقدين . وكان من بينهم الافراد الذين تلقوا تعليمهم قبل الثورة ، واخفى قسم منهم معارضته للثورة بذريعة حماية التقاليد والقيم الوطنية . وتعالت صرخات تنذر من الخطر : زاعمين ان الاصلاح «يسلب» السكان المحليين قوميتهم ، ويبعد الجماهير الشعبية عن جذورها العميقة . وعندئذ من سيستطيع مطالعة ابن سينا وعلى شير نوائى ؟ اما الخاضعون لتأثير اتجاه «روسيا العظمى» فقد كانوا ميالين الى الاعتقاد بان الكثير جدا من الوقت والطاقة والموارد قد ضاع فى البحث عن ابجديات للغات الكثيرة فى البلاد . وألم يكن من الايسر والاسرع ان تفتح على مصراعيها امام شعوب آسيا الوسطى النوافذ المطلة على العالم الحديث ، بتعليمها لغة واحدة اى الروسية ؟ الا ان هذه الاقتراحات قد طرحت همسا . اذ كانت تتعارض مع السياسة القومية للحزب الشيوعى ومع المبدأ الذى دافع عنه لينين بلا كلل : يجب ألا تعطى ادنى امتيازات الى اية امة ، وبالنسبة الى اية لغة .

وقد فند الواقع بكل جلاء تنبؤات اولئك وهؤلاء . فالابجدية الجديدة لم تبعد الشعوب عن قيم ماضيها ، بل بالعكس انها ساعدت على كشف هذه القيم بالنسبة لملايين الرجال والنساء الذين كانوا سابقا حتى لا تراودهم الشكوك بصدد عظمة هذا التراث . وبات بمستطاعهم منذ ذلك الوقت دراسة تاريخهم وشعرائهم وثقافتهم . واخذ الناس يتعلمون القراءة والكتابة بلغتهم برغبة عظيمة : فقد كان من السهل تعلم الابجدية الجديدة . وبحلول نهاية عام ١٩٣٩ كان ثلاثة ارباع السكان قد تعلموا القراءة والكتابة .

وتكونت فى وقت واحد مع الهجوم العام على الامية منظومة شاملة للتعليم ، علما ان الاهتمام الرئيسى تركز على تكوين ملاك المعلمين من ابناء جميع قوميات آسيا الوسطى . وافتتحت بطشقند فى عام ١٩٢٠ مؤسسة تعليمية خاصة من اجل الشباب الكازاخى والقيرغيزى . وفى عام ١٩٢٤ افتتحت مؤسسة اخرى من اجل الطاجيك . وافتتحت فى فرغانة وانديجان وقوقند وسمرقند وغيرها من المدن دورات معجلة لاعداد معلمى المدارس . وفى خوجنت

بدأت عملها منذ عام ١٩٢٢ مؤسسة تعليمية خاصة لزيادة تأهيل المعلمين «التقليديين» الذين ابدوا رغبتهم فى استيعاب الوسائل الجديدة . وتأسست مدارس ابتدائية فى كل مكان ، وفى عام ١٩٢٨ كانت نسبة ٥٤ بالمائة من الاطفال الاوزبيك يرتادون المدارس . لكن فى عام ١٩٣٠ فقط اصبح التعليم الابتدائى الزاميا قانونيا .

وبغية التوصل الى ذلك وجب تذليل صعاب بالغة . اذ كان ينبغى اعداد آلاف المعلمين من ابناء كل قومية . وكان من الضرورى طبع الكتب المدرسية باللغات القومية الكثيرة . وفى نهاية المطاف وجب استحداث شبكة كاملة من المدارس القومية فى الجمهوريات ذات القوميات المتعددة .

لقد شارك فى الحملة العامة من اجل نشر المعرفة مئات المختصين - من اساتذة ومدرسين ولغويين - من ذوى التعليم الثانوى والعالى ، القادمين من موسكو ولينينغراد وكييف وغيرها من المدن . وفعلا فان المسألة لم تقتصر على محو الامية فقط . اذ كان بيت القصيد استحداث فئة مثقفين قومية جديدة . وتكونت فى الجمهوريات كوادرها السياسية والتكنيكية والعلمية . وظهر باحثون وكتاب وفنانون من ابنائها . واتاح منح الزمالات الى آلاف الطلاب الحصول على التعليم فى المراكز الجامعية بروسيا واوكرانيا . وتم تأسيس معاهد تعليمية وطنية عالية منها معهد التربية الكازاخى (١٩٢٨) الذى اطلق عليه اسم الكاتب اباى كونانبايف والمعهد الزراعى الكازاخى (١٩٣٠) فى ألما-آتا ، ومعهد الطب التركمانى فى عشق اباد (١٩٣٢) ، والمعهد الزراعى الطاجيكى ومعهد التربية فى دوشانبه (١٩٣١) . . .

ومنذ سنوات فترة الخطة الخمسية الاولى فتحت اكاديمية العلوم السوفييتية فروعا لها فى غالبية هذه الجمهوريات . وقدم العلماء الروس - مبعوثو معهدى الاستشراق والتاريخ وكذلك ارشيف الدولة - المساعدة الى زملائهم الاوزبكيين فى تنظيم اعمال البحث والاعمال الدراسية . وفى عام ١٩١٨ افتتح فى طشقند معهد الاستشراق التركستانى الذى انضم فيما بعد الى الجامعة التركستانية حيث عمل كبار علماء الاستشراق الروس ا . شميدت وب . فاليف

وى . بوليفانوف وغيرهم . وفى ميدان العلوم الطبيعية قدم علماء الفلك الذين جاءوا من لينينغراد الى دوشانبه خبرتهم الى مؤسسى المرصد الفلكى الجديد فى طاجيكستان . . .

وكان الشعار المطروح يومذاك هـــو الاندفاع بلا توقف ، والتعويض عما فات ، والعمل باسرع ما يمكن - فيما يتعلـق بعدد الكوادر الوطنية وتأهيلها - على تحقيق المساواة الفعلية مـــع الجمهوريات الاكثر تطورا فى الاتحـــاد السوفييتى . وآنذاك ازداد عدد الطلاب والمدرسين فى المعاهـــد العالية على نطاق الاتحاد السوفييتى كله من عام ١٩٢٩ الى عام ١٩٣٣ بنسبة ١٨٠ بالمائة ، وازداد فى اوزبكستان بنسبة ٧٠٠ بالمائة . وتظهر الارقام مـــن عملية تعداد للنفوس الى اخرى ان الهدف المطروح - جعل كافـــة الامم بمستوى واحد من الناحية الثقافية - بات قريبا : فطبقـــا لمعطيات تعداد السكان كان الاوزبيك فى عام ١٩٢٩ يشكلون نسبة ٦٥ بالمائة من عدد سكان جمهوريتهم . فى العام الدراســـي ١٩٤٠-١٩٤١ كانت المعاهد العالية فى الجمهورية تضم ١٩ الف طالب بينهم اربعة آلاف و٦٠٠ اوزبكى اى نسبة ٢٤,١ بالمائـــة . وفى العام الدراسى ١٩٥٠/١٩٥١ تغير الوضع بصورة ملموسة . فقـد كان الاوزبيك يشكلون ٣٨ر٨ بالمائة من مجموع ٤٢ الـف و٢٠٠ طالب فى الجمهورية اى كان عددهم يساوى ١٦ الف و٤٠٠ طالب . وطبقا لمعطيات احصاء ١٩٧٩ كان الاوزبيك يشكلون ٦٥ر٥ بالمائة من مجموع سكان جمهوريتهم . وفى فترة ١٩٨١-١٩٨٢ كان يوجد فى المؤسسات التعليمية الاوزبكية ٢٨٥ر٢ الف طالب منهم ١٣٤ الف اوزبكى ، اى نسبة ٥٨ بالمائة . ويتيح النظام الآخر للمقارنة استكمال صورة التقدم الباهر هذه : ففى عام ١٩٤٠ كان يوجد فى اوزبكستان ٢٨ طالبا فى المعاهد العالية من كل ١٠ آلاف شخص ، وفى كازاخستان -١٦ ، وفى قيرغيزيا -١٩ ، وفى طاجيكستان - ١٥ ، وفى تركمانيا -٢٢ . وفى الوقت ذاته كان عددهم فى ايران من العدد نفسه من السكان -٣ ، وفى الهند - ٤ ، وفى تركيا - ٥ ، وفى بريطانيا -١١ ، وفـــى هنغاريا -١٣ طالبا . وفى عام ١٩٢٤ كان يوجد بآسيا الوسطى عالم-باحث واحد من ابناء الاهالى



١ ـ راية مجموعة طشقند لحزب العمـــال الاشتراكى-الديمقراطى فى روسيا ، عام ١٩٠٥ .



٢ ــ اعلان قيام جمهورية تركستان السوفييتية ذات الحكم الذاتى ، التى انضمت الى قوام جمهورية روسيا الاتحادية السوفييتية الاشتراكية . مدينة طشقند ، ابريل ١٩١٨ .

٣ ــ المظاهرة بعد اسقاط حكم الامير فى بخارى .

٤ ــ تركمانيا . الحراثة باستخدام المحراث الخشبى البدائى «اوماتش» . اعوام العشرينيات .





٥ ــ فرن (تنور) لحرق الطوب ، احد «المشاريع الصناعية» الاولى في دوشانبه . بداية العشرينيات .



٦ ــ محاكمـــــــة قطاع الطرق «البصماج» في بخارى . اواسط العشرينيات .



٧ ـ ملصقة جدارية مكرســـة لانضمام جمهوريـــة اوزبكستان السوفييتية وجمهورية تـــركمانيا السوفييتية الى قوام الاتحـــاد السوفييتي .



٨ ـ مندوبون من آسيا الوسطى فى المؤتمر الاول اسوفييتـــات اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية فى عام ١٩٢٢ .





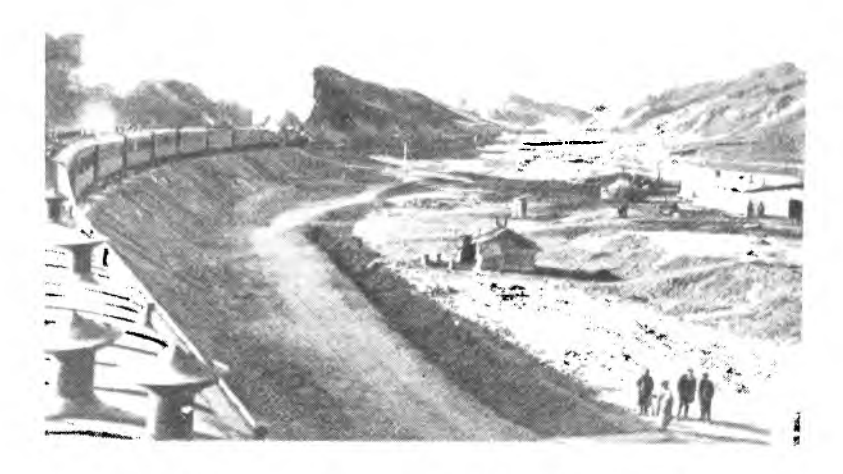
٩ – اوزبكستان . اواسط العشرينيات .
الاصلاح الزراعي في مقاطعة فرغانـــة .
تسليم فلاح معدم الصك الخاص بمنحـــه
الارض والماشية .

١٠ – ميخائيل كالينين رئيس اللجنة
التنفيذيـــة المركزية لعموم الاتحـــاد
السوفييتي يتحدث في اجتماع الى اهالي
بخارى .

١١ – اول جرار في قرية طاجيكية ،
عام ١٩٣٠ .



١٢ ــ فى احدى مدارس محو الامية . طاجيكستان ، عام ١٩٢٦ .



١٣ ـ اول قطار فى خط تركستان ـ سيبيريا . عام ١٩٣٠ .

١٤ ـ اوزبكستان . «مصباح ايليتش» فى بيـــوت الاوزبكيين ، عام ١٩٢٩ .



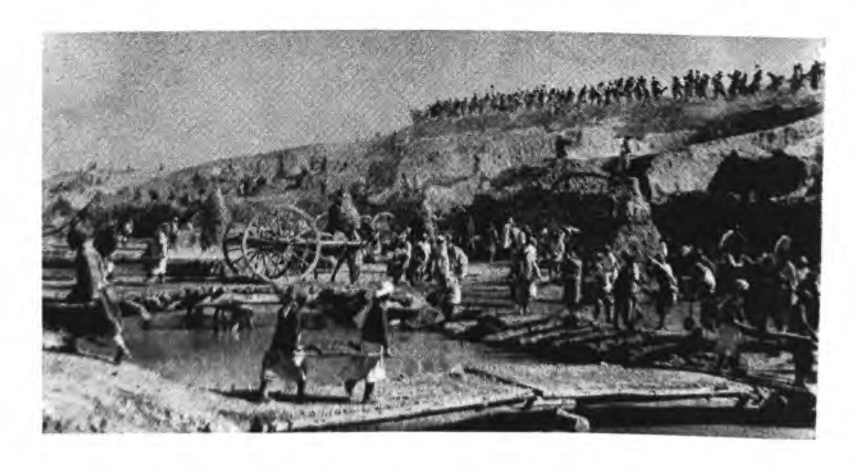


١٥ ــ فى احد شوارع ألما-آتا ، عام ١٩٣٠ .



١٦ ـ افتتاح مصنع الماكينات الزراعية فى طشقند . عام ١٩٣٠ .

١٧ ـ بناء قناة فرغانة الكبرى ، عام ١٩٣٩ .





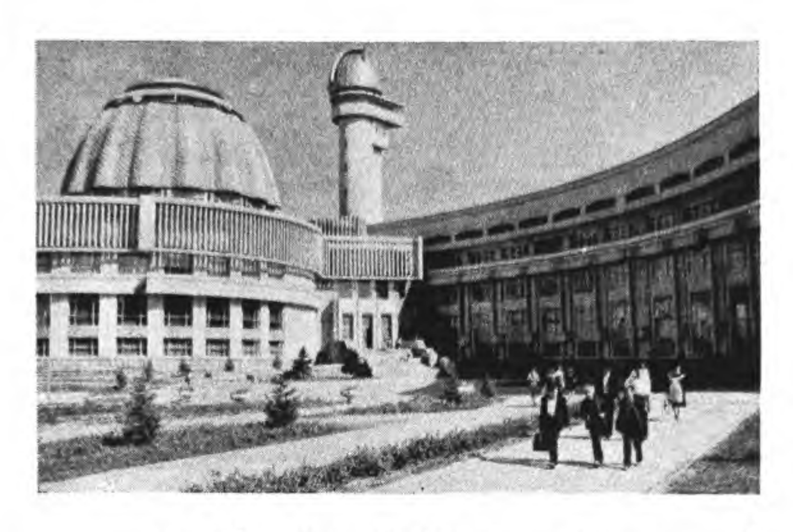
١٨ ــ مشهد فى احد شوارع طشقند ، عام ١٩٣٣ .

١٩ ــ درس فى محو الامية باحد النوادى النسائية فى طشقند ، عام ١٩٣٥.





٢٠ ـ ألما-آتا ، عاصمة جمهورية كازاخستان السوفييتية .



٢١ ـ الما ـ آتا . قصر الطلائع والتلامذة . يرتاد ٨ آلاف طفل ٥٠٠ ناد وحلقة رياضية فى ٢٢٠ غرفة وصالة فيه .

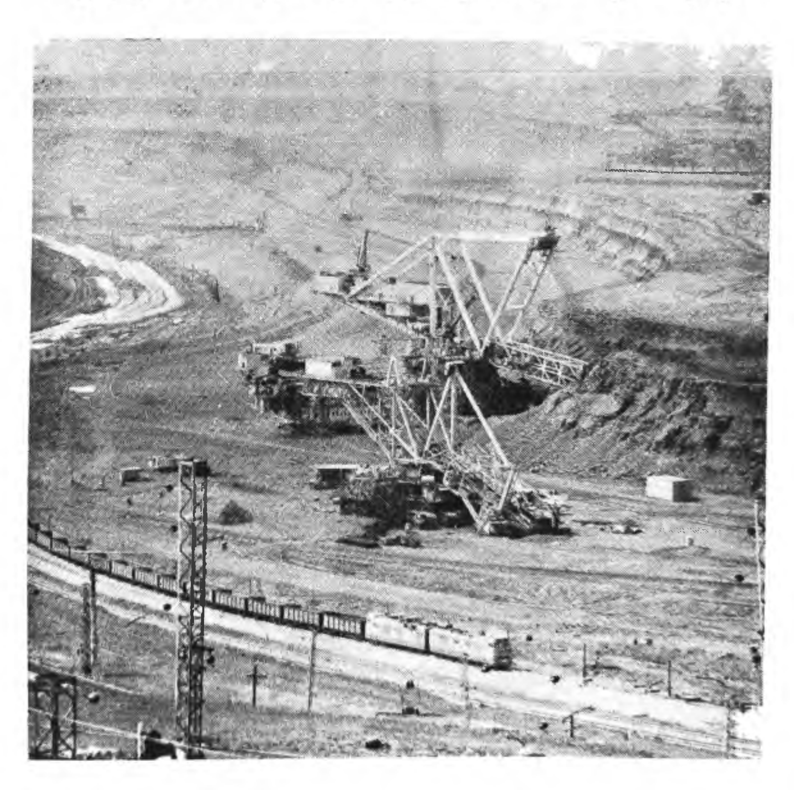
٢٤ ـ محطة لتوليد الكهرباء فى كازاخستان . تعمل هذه المحطة الكهرحرارية العملاقة باستخدام الفحم المحلى الرخيص .





٢٣ ـ بايكونور . سفينة فضائية تتجه الى موضع الاطلاق .

٢٢ ـ مجمع ايكيباستوز للوقود والطاقة فى كازاخستان . استخراج الفحم فى المنجم المكشوف « بوغاطير » اكبر مناجم الاتحاد السوفييتى .





٢٥ ــ ملعب التزلج الجبلي «ميديو» في ألما-آتا . وتطلق عليه تسمية «مصنع الارقام القياسية» .

٢٦ ــ في مطار ألما-آتا .





٢٧ ـ احدى فرق الهواة الشعبية العديدة فى كازاخستان تقدم حفلة فنية فى احد المراعى .

٢٨ ـ فنانة المنوعات الكازاخية المعروفـــة روزا ريمبايفا الفائزة بالجوائز فى المسابقات السوفييتية والدولية .





٢٩ ـ تعتبر تربية الاغنام احد الفروع الرئيسية للزراعة فى كازاخستان .

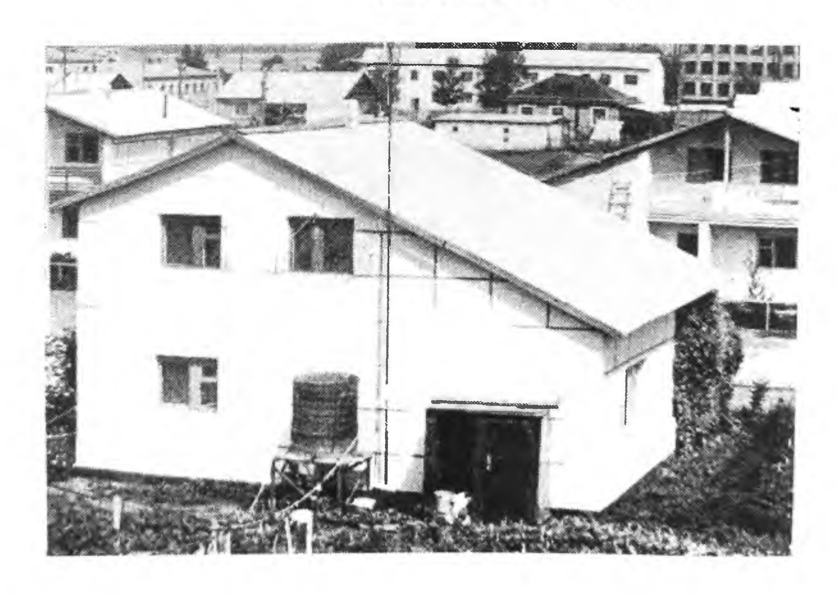
٣٠ ـ مدينة تسيلينوغراد . نصب غزاة الاراضى البكر .

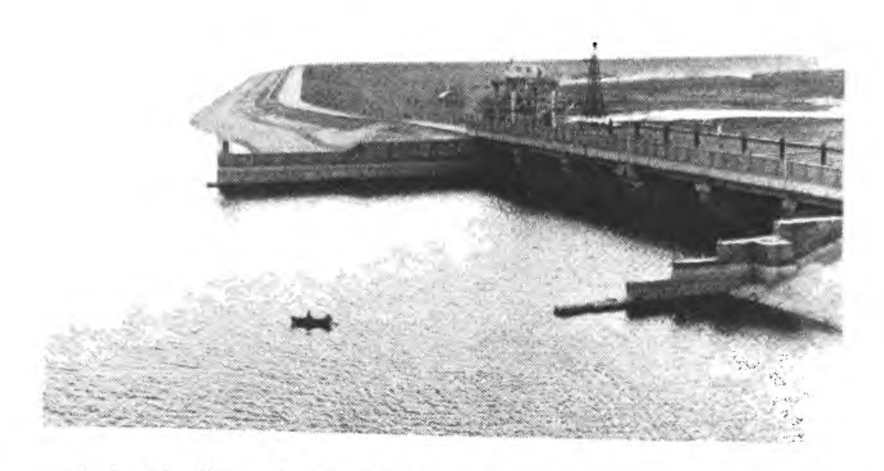




٣١ ـ عام ١٩٥٤ . هكذا بدأ استثمار الاراضي البكر .

٣٢ ـ احد سوفخوزات الاراضي البكر اليوم .





٣٣ ـ تبدأ منظومة ضخمة للرى من بحيرة تشاردارين الاصطناعية فى جنوب كازاخستان .



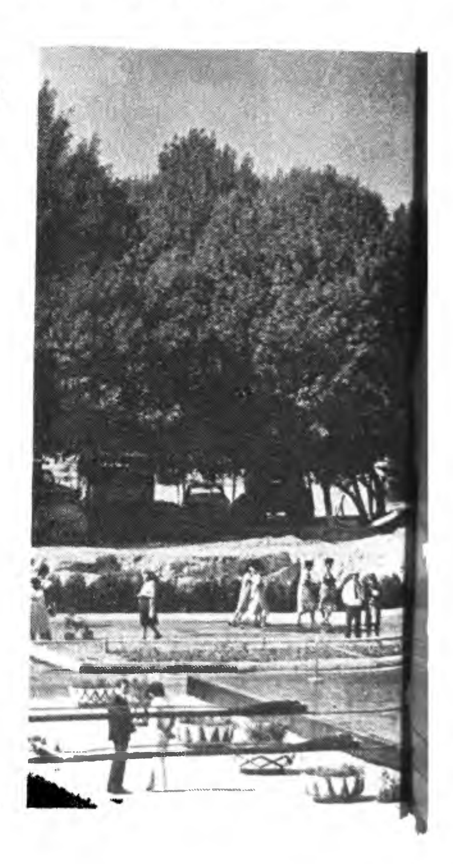
٣٥ ـ طشقند من الجو .

٣٤ ـ مدينة شيفتشينكو الواقعة على ساحل بحر قزوين (فى شبه جزيرة مانغشلاق) ، تتزود بالمياه من وحدة التحلية النووية حصرا تقريبا .



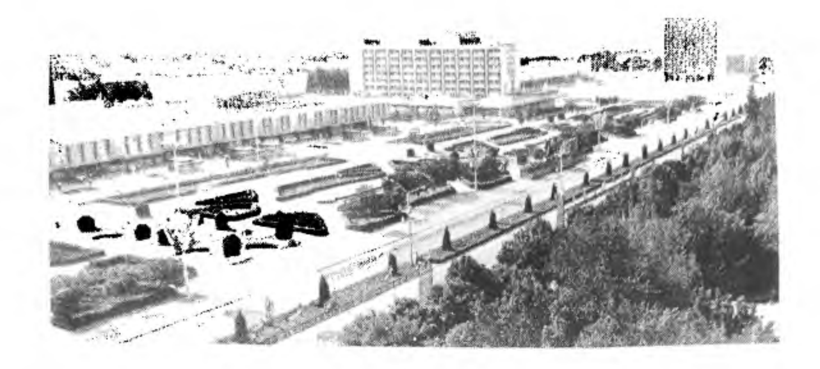


٣٦ ـ اعمال الترميم فى المسجد الجامع بيبى-خانم فى سمرقند .



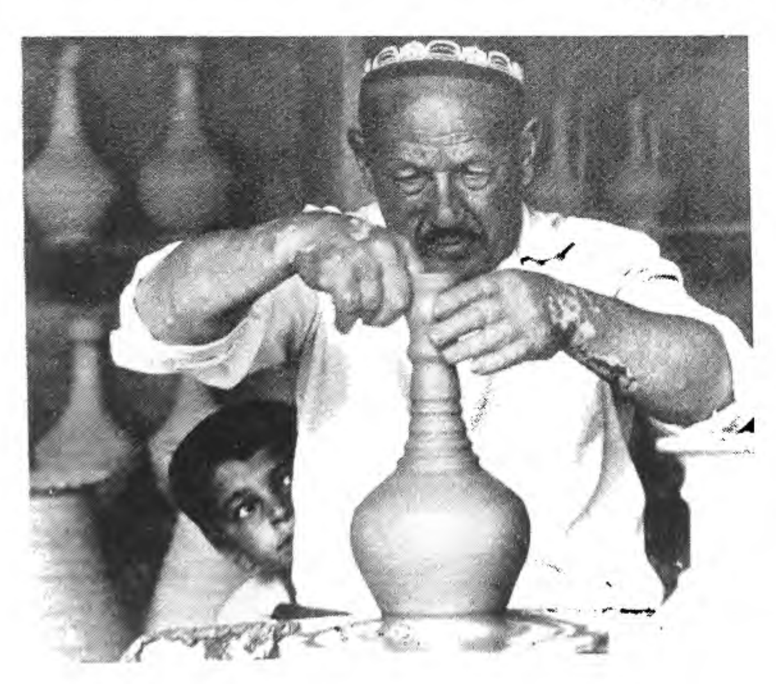
٣٧ ـ طشقند . نصب العالم الموسوعى العظيم الخوارزمى .

٣٨ ـ خيوا . المنظر العام للمدينة القديمة ايتشان-قلعة .



٣٩ ـ نوائى ـ مدينة قامت وسط الصحراء .

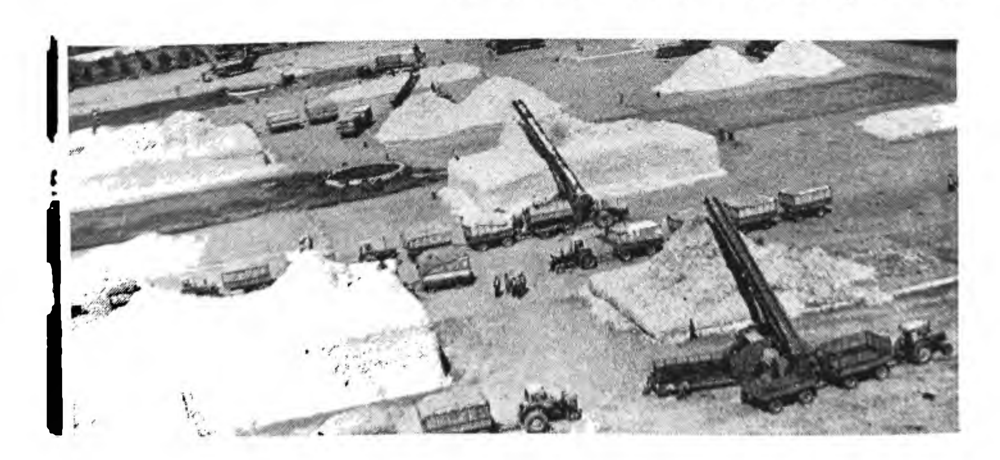
٤٠ ـ فنان الخـزف الاوزبكى المعروف محكـم الباقولوف وحفيده محمد على .





٤١ ـ منتزه الكمسمول اللينينى فى طشقند .

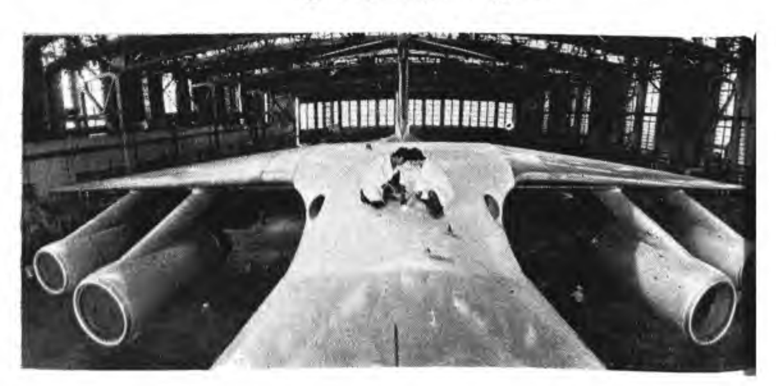
٤٣ ـ القطن من الثروات الرئيسية فى اوزبكستان .





٤٢ ـ أ . ب . رزق إرغاش حسنوف وقرينتـــه ناصرخان بـ١٦ ولدا وبنتا . ولديهما ٨١ حفيدا و٣ ابناء احفاد . ويجتمع فى الاعياد العائلية اكثر من مائة شخص من الاقارب فقط .

٤٤ ـ فى ورشة التجميع بمصنع الطائرات فى طشقند .







٤٦ ـ فى جبال قيرغيزيا .



٤٧ ـ عشق آباد عاصمة تركمانيا السوفييتية . مكتبة كارل ماركس الحكومية في الجمهورية .



٤٩ ـ مدينة فرونزه . نصب يخلد ذكرى ماناس بطل الملحمة الشعبية القيرغيزية .

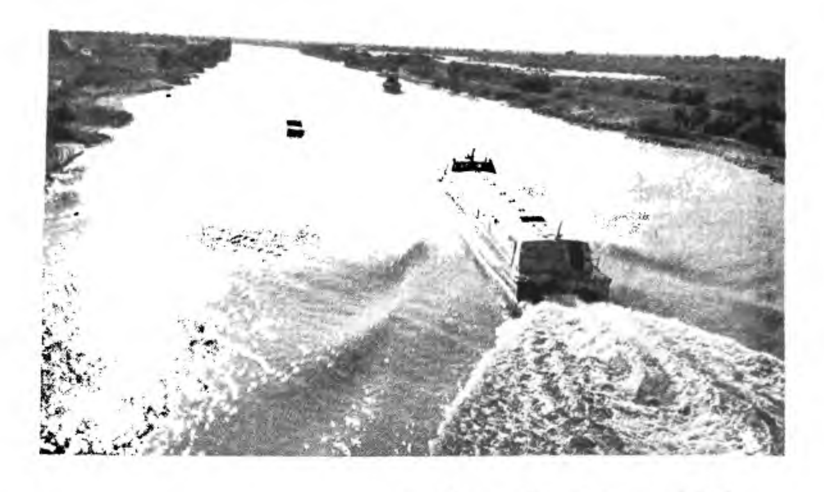
٤٨ ـ الكاتب جنكيز أيتماتوف .



٥٠ ـ طلاب المعهد المهني-التكنيكي رقم ١٧ في فرونزه .

٥١ ـ لعبة المصارعة القومية القيرغيزية على صهوة الجياد .

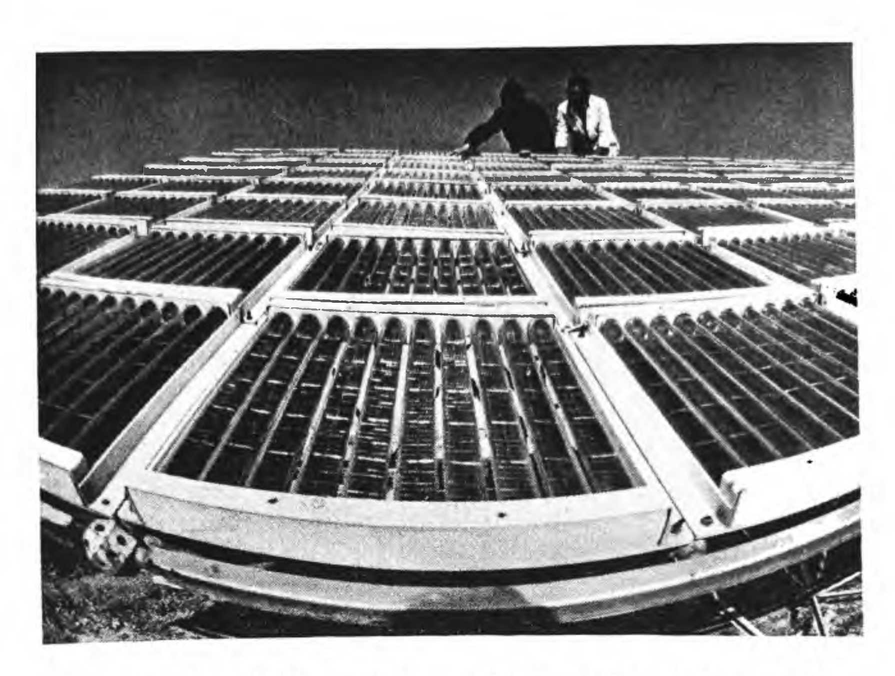




٥٢ ـ قناة قره قوم المسماة باسم لينين .

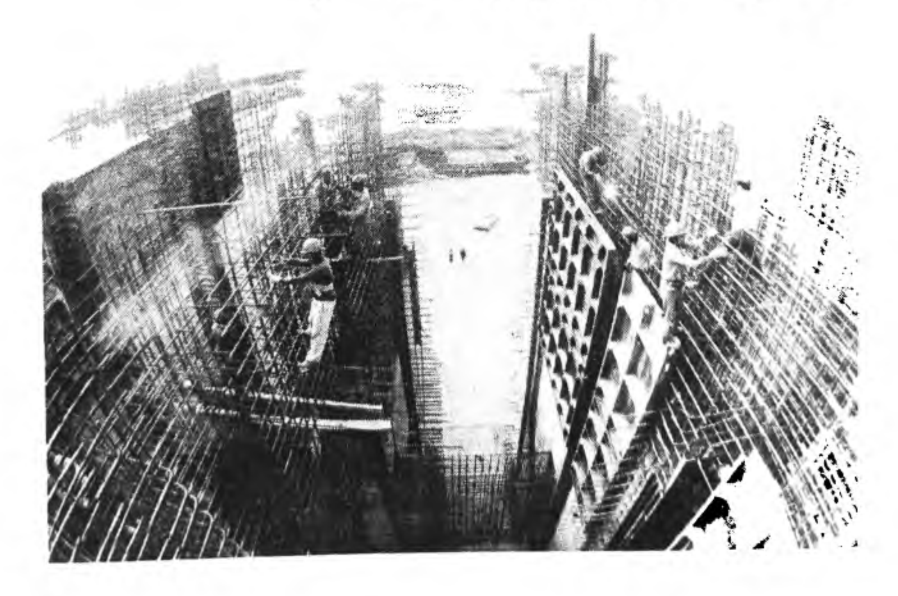
٥٣ ـ تشغل صحراء قره قوم اكثر من ثلاثة ارباع اراضي تركمانيا .





٥٤ ــ يجرى فى تركمانيا على قدم وساق فى مجال الاستفادة من الطاقة الشمسية . تبدو فى الصورة لوحة محطة شمسية صغيرة لتوليد الكهرباء .

٥٥ ــ بناء خزان مياه سارى-يازين على نهر مورغاب .





٥٦ ـ باكو عاصمة اذربيجان السوفييتيـــة . تقـــام فى هذا الميدان مظاهرات الشغيلة فى ايام الاعياد .

٥٧ ـ باكو . احد شوارع المدينة القديمة .





٥٨ ـ دوشانبه . الربيـــع موسم الاعراس .



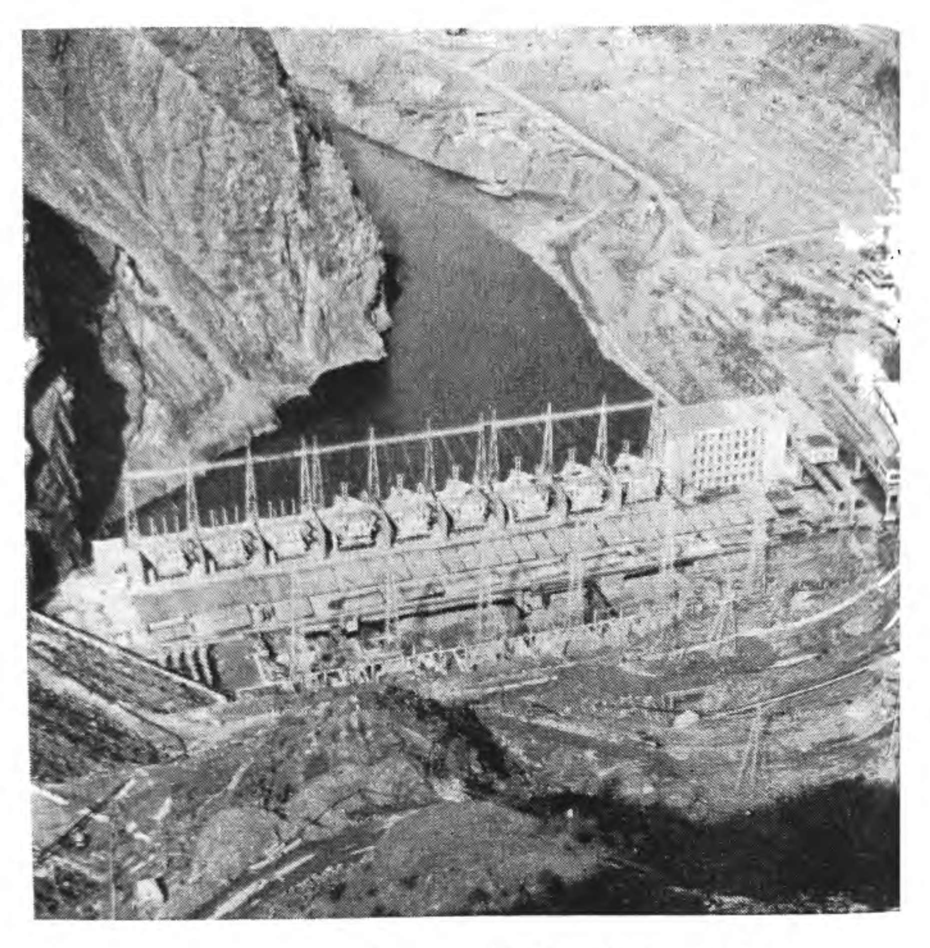
٥٩ ـ عاملـة الخياطـة سفرغول خاديروفا تعمل فى احدى مؤسسات الصناعات الحرفية الشعبية فى دوشانبه عاصمة طاجكستان .

٦٠ ـ فى احـد المراكز الحاسبة بطاجكستان .

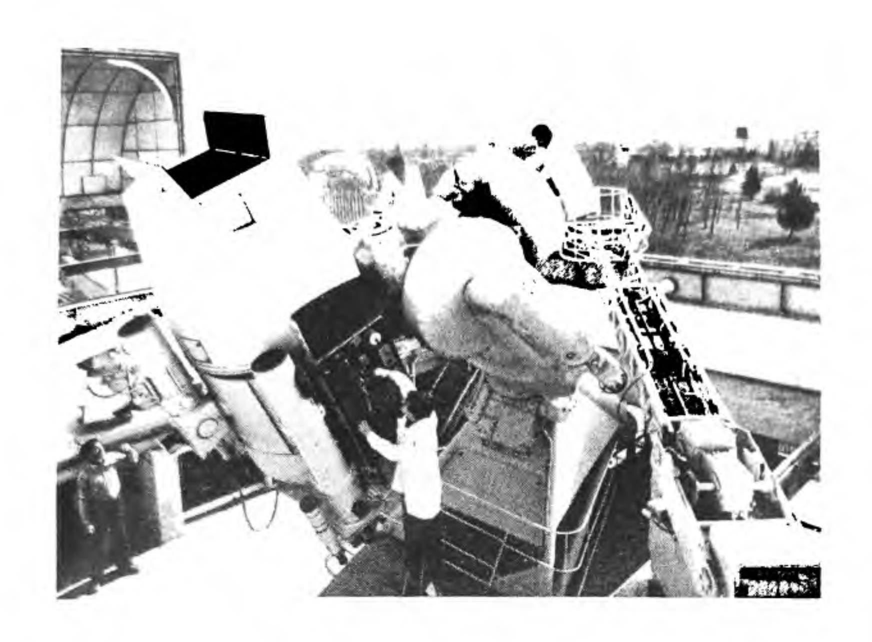

EC-1033



٦١ ـ خوجا-اوبى-غارم (الينابيع الساخنة) ـ احد اكبر المصحات العلاجية فى طاجكستان .



٦٢ ـ محطة نوريك الكهرومائية على نهر وحش .





٦٣ ــ مرصد غيسار فى طاجكستان .

٦٤ ــ الملحن الطاجيكى طالب شاهدى .

المحليين . وفى عام ١٩٥٠ بلغ عددهم المئات . ومنذ ذلك الحين يزداد هذا العدد باستمرار .

وبعد ان تعلمت القراءة الجماهير الجاهلة يوم امس اخذت تبدى تعطشا شديدا الى المعرفة . وقبل الثورة لم ترجد صحافة تركستانية تقريبا بالمعنى المفهوم لها ، باستثناء عدة صحف لجماعة «الجديد» والبلاشفة ، كثيرا ما كانت تتوقف عن الصدور والصحيفة الرسمية للرجعية الاستعمارية «الجريدة الاهلية التركستانية» («تركستانسكايا توزيمنايا غازيتا») . ولم تكن لدى التركمانيين والقره قلباقيين والقيرغيز جريدة واحدة خاصة بهم . وبعد محو الامية بدأت الصحف الجديدة بالصدور بسرعة جدا . وفى عام ١٩٣٢ كانت تصدر ٦٦ جريدة ومجلة مختلفة ، منها ٣٦ صحيفة باللغات المحلية ، ولم يتوقف تنامى المطبوعات والمنشورات . وفى عام ١٩٨٥ فقط صدرت فى جمهورية اوزبكستان وحدها ٢٨١ صحيفة على نطاق الجمهورية والمقاطعات والمناطق ، وكذلك ٨٣ مجلة مختلفة . وتجاوز مجموع عدد نسخها ١١ مليون نسخة .

وقد حدثت طفرة مماثلة فى مجال اصدار الكتب ايضا . ففى عام ١٩١٩ ، اى بعد مضى حوالى خمسين عاما بعد صدور اول كتاب طبع فى تركستان عام ١٨٦٨ («مذكرات السفر») بقلم ن. سيفيرتسوف) ، صدر ٣٧ كتابا فقط باللغة الاوزبكية ، و٤٠ كتابا باللغة الكازاخية و٤٣ كتابا باللغة الطاجيكية . ولم يصدر اى كتاب باللغة القيرغيزية او التركمانية او القره قلباقية . وفى عام ١٩٢٣ اى بعد مضى خمسة اعوام فقط على قيام الثورة اصدرت دور النشر الجديدة التى تأسست فى كازاخستان وآسيا الوسطى ٦٢١ كتابا مدرسيا وغير هذا من المطبوعات المدرسية بعدد اجمالى من النسخ قدره مليون و١٧٩ الف نسخة ، صدر ٢٠٠ كتاب منها باللغة الاوزبكية ، و١٥١ كتابا باللغة القيرغيزية و٢٩ كتابا باللغة التركمانية .

وبعثت فى النثر والشعر والمسرح والموسيقى حضارة يرجع عهدها الى الف سنة ، ولم تكن تعرف الا لدى فئة محدودة من اصحاب الامتيازات . وبدا وكأنه عادت من اعماق القرون اسماء ابن سينا والبيرونى واولغ بيك . وتعرف الاوزبكيون والتركمانيون

والكازاخيون مجددا على اعمال على شير نوائى . والطاجيك على اعمال عمر الخيام وحافظ والفردوسى ،والقيرغيز على ملحمة «ماناس» التى اصبحت ابياتها المحفوظة فى ذاكرة المنشدين الشعبيين والمدونة الآن . فى متناول الجميع . وكان الباحث الموسيقى الروسى ا . زاتايفيتش الذى سحرته الموسيقى الكازاخية يجوب السهـــوب طوال الشهور جامعا الالحان القديمـــة . وصار يرتـــاد القرى ويزور الاسواق والثكنات ومرابض الرعاة ، موجها الاسئلة الى الشباب والشيوخ ، ومدونا الاغانى التى بقيت محفوظة فى ذاكرتهم وتناقلوها عـــن الاسلاف . وبحث عن آخر المنشدين الشعبيين الذين يتنقلون مـــا بين القرى حاملين الدومبرا ذات الوترين من اجل ان ينشدوا امام الناس القصائد التى نظمت فى الازمان الغابرة . وبالرغم من البرد والجوع والتيفوئيد والكوليرا انقـــذ زاتايفيتش هذه القطع مـــن الفولكلور الكازاخى . وقد نشر فى عام ١٩٢٥ كتابه «١٠٠٠ اغنية للشعب القيرغيزى (الكازاخى)» الذى اصبح منبعا للالهام لا ينضب من اجل الملحنين السوفييت لاحقا .

كما ظهرت اولى تراجم الادب الكلاسيكى الروسى والعالمـــى الى اللغات المحلية . ونشأ مسرح غير معروف سابقا عمليا . وتأسست فرق فنية للهواة غالبا ما كانت تضم ممثلين من شتى القوميات . وترجمت مسرحيات الربرتوار الروسى ، وكذلك المسرحيات الانجليزية والفرنسية . وتعرف احفاد تيمورلنك على اعمال تشيخوف وشكسبير وموليير .

«هجوم» النساء

حين جاء ميخائيل ايفانوفيتش كالينين رئيس اللجنة التنفيذيـــة المركزية للاتحاد السوفييتى الى اوزبكستان فى اكتوبر عام ١٩٢٤ من اجل حضور المؤتمر المكرس لتأسيس الجمهورية الاوزبكية طلب تنظيم لقاء له مع الفلاحين الاوزبكيين . وجاءوا به الى قرية تبعـــد عشرة كيلومترات عن بخارى حيث اجتمع للقائه اكثر من مائتـــى دهقان . ما اكثر عدد الرجال ! وما من امرأة واحدة ! هذا بعد مرور سبعة اعوام على قيام الثورة ! وبـــدأ الاجتماع . فابدى ميخائيل ايفانوفيتش عجبه بقوله :

– انني ارى هنا الرجال فقط . لماذا ؟ معنى هذا ان النساء لا يضطلعن بای دور عندكم ؟
فاجابوه بان التقاليد تقضى بألا تظهر النساء امام الرجال ابدا .
ورد كالينين على هذا قائلا :
– انا اعرف جيدا ان النساء في البلدان الاسلامية يرتدين الحجاب لكن هذا امر لم يقض به القرآن ، وليس فرضا ، بل عادة فقط . . .
وعارضه احد الشيوخ قائلا :
– لا ابدا ! ان القرآن يفرض ذلك . ومعارضته اثم . . .
– اذن لِمَ لَمْ تأتِ النساء حتى بالحجاب ؟
– لان من واجب النساء عدم الظهور امام الرجال .
فرد كالينين :
– آسف جدا . ما دام الامر كذلك ، فلن اتمكن من معرفة الحقيقة كلها . ومع هذا بودى ان تبلغوا زوجاتكم ان النساء والرجال فى بلادنا السوفييتية يتمتعون بحقوق متساوية . هل بوسعى التعويل على انكم ستبلغونهن ذلك ؟
واجاب احد الشباب :
– موافق . اذا ما سألتنى زوجتى عما قلتَه اليوم ، ولك عليّ عهد بان اقول لها .
فقاطعه احد الشيوخ :
– عد الى رشدك ! وهل هذا من عمل النساء ؟
تظهر هذه القصة التى رواها لى من الذاكرة البروفسور حبيب طورسونوف ، مدير معهد تاريخ الحزب الشيوعى فى اوزبكستان ، قوة الخرافات والاباطيل التى وجب ان تقهرها الثورة فى سبيل تحرير النساء من عبودية القرون . لقد تكوّن خضوع المراة المطلق لتسلط الرجل على مدى قرون . وترك هذا الوضع العبودى اثرا لا يمحى ، وتحدثت عنه جيدا التركمانية امانفول بردينيزايفا ، نائبة رئيس مجلس بلدية عشق آباد ابان لقائى معها : «كان حق المراة الوحيد فى الازمان السابقة هو الخضوع والطاعة . ووجد لديها دائما طوال حياتها سيد ما : الاب ، الاخ ، الزوج . . .» .
واعطى تعدد الازواج (فى واقع الامر كان محددا لان شراء عدة

زوجات ، بله امتلاك حريم كبير العـــدد يتطلب نقودا كثيرة) الى البايات والفلاحين الاغنياء الحق فى استغلال عمل زوجاتهم ، وكذلك امكانية زيادة «حصتهم» من الماء من اجل ارواء الاراضى . لانه حسب القانون المرعى كانت كمية المياه المخصصة لكل رجل متزوج تزداد تبعا لعدد زوجاته .

وكان سعر الزوجة يتغير مثل سعر اية سلعة تبعا للوضــــع الاقتصادى القائم . كما ان الطلب على السجاد الذى كانت تحوكه النساء حصرا كان ايضا يلعب دورا فى زيادة وخفض هذا السعر . وعلى اى حال فان نبأ مولد بنت كان الاهل يتلقونه وكأنه نبــــأ وقوع كارثة . ويقول الزوج المصاب بخيبة امل مخاطبا زوجته : «كان الافضل لو ولدتِ حجرا لا بنتا . فالحجر ينفع على الاقل فــى بناء جدار» . ولدى وفاة المرأة كانت العادات تقضى بدفنها فى لحد اعمق من الرجل . فحتى فى القبر يجرى التأكيد على انها كائن ادنى قدرا .

وبالرغم من الاضطهاد الروحى كان ثمــــة شعور غريزى لدى النساء بان الازمان الجديدة التى تردد صداها فى ابعد القرى النائية توفر لهن امكانيات جديدة . فى عام ١٩٣١ انتخب عيسى حجايــف رئيسا للجنة التنفيذية المركزية لجمهورية طاجيكستان . وقبل عدة سنوات من هذا قام ، كجندى للثورة ، بمطاردة عصابات قطّاع الطرق (البصمجية) فى جبال بامير . وحين التقى بول فيان-كوتيريه (وكان آنذاك رئيسا لتحرير جريدة «يومانيتيه» واحـــد اوائل الصحفيين الفرنسيين الذين زاروا آسيا الوسطى) روى لـــــه وقائع تصور معركة النساء من اجل تحررهن . ونشر ربيورتاج عن ذلك فـــى «يومانيتيه» فى عام ١٩٣١ .

وروى عيسى حجايف كيف حدث ان توقفت فصيلته للمبيت فى احدى القرى الجبلية فى مكان يبعد حوالى ١٥٠ كيلومترا عن سمرقند وقال :

– كانت الشمس قد اشرقت . فغمرنى هواء الفجر المنعش ، ولم الاحظ على الفور المرأة التى جلست على الارض عند العتبــة ، وقد تجمع جسمها فى كومة . وبالرغم من برودة الجو بدت حافيــة القدمين . وفكرت فى دخيلة نفسى تلقائيا : – لا بــد وان سنها لا

يتجاوز ٢٥ عامـــا . وكانت تحدق فيّ منذ وقت طويل . واخيرا استجمعت اطراف شجاعتها وقالت :

- ان رماد حذائك اعز عليّ من عينيّ .

جابهتنى بهذه التحية واردفت :

- لقد انتظرت طوال الليل لكى اتحدث معك حيـن تستيقظ . ان اسمى بويجان . انت قادم من سمرقند ومعنى هذا انك رجـــل كبير الشأن وقوى ، وما دام الامر كذلك فلا بد وان تكون افضل الناس . لقد قلت انك تدافع عن المعذّبين ، فاعلم اننـى اتعذب كثيرا جدا . انا الزوجة الرابعة لرجل غنى اسمه سانغير اشترانى من امي قبل ست سنوات . . . وان لم تعمد الى مساعدتى ، وعلم هو باننى تحدثت اليك ، فاغلب الظن انه سيقتلنى . . .

قالت المرأة هذا كله ببساطة مأساوية . وطرحت لحظتئـــذ مسألة الهيبة ، هيبة «النجمة الحمراء» . وما كان بوسعى ان اسمح هكذا ببساطة بان تقتل بويجان ، انا - الشيوعى ونصير تحريـــر النساء .

- استدعى زوجَكِ الى هنا .

حين سمع الرجل اسمه خرج غاضبا من الكوخ الحجرى وصرخ :

- انت يا من هناك ، ما حاجتك ؟

- انا ممثل السلطة التى تدافع عن جميع الضعفاء وجميــــع الفقراء ، رجالا ونساءا ، وقد علمت بانك لا تحسن معاملة زوجتك .

- هذا الامر لا يعنيك ، فقد دفعت ثمنا لها ستين رأسا مـــن الضأن ! أفلا استطيع ان اعمل بها ما اريد ؟

- لا ، حين تضيء «النجمة الحمـــراء» الآن ، يجب عليك ان تعتق زوجتك .

- ابدا ! لا يحق لاحد ارغامى على التخلى عما املك !

- حسنا .

فاستدعيت جنديين مـــن الجيش الاحمر وامرت باعتقاله . واصابه الفزع لكونه سيؤخذ الى سمرقند وصاح :

«كيتشا ! كيتشا !» . وكيتشا هو اسم مختار القرية . فظهر لدى سماعه الصراخ .

وسألنى كيتشا بحزم :

- لم اعتقلت احد رجالنا ؟ اطلق سراحه .

- ليخلّ سبيل زوجته اولا . واذا مـا امتنع سنبعث به الى سمرقند . ابلغه ان الافضل له التحدث معنا على نحو لائق !

امعن الشيخ الفكر ، وقد تنازعه العجب والغضب . وفى نهاية المطاف خاطب الشيخ الزوج وشرح له ما يراد منه .

فقال لى سانغير :

- حسنا . ساتخلى عن بويجان ، لكن يتعين عليها ان تعيد لى رؤوس الضأن .

واجبته :

- لو اشتريتَ رداء من الصوف ولبسته حتـى تحول الى اسمال بالية ، فهل تتجرأ عندئذ على مطالبة البائع الذى باعـك الرداء بان يعيد لك نقودك ؟

- لا .

- اذن فاعلن امام مختار القرية بانك تطلق بويجان التـى دفعت ثمنا لها ستين رأس ضأن ، واستخدمتها على مدى ستـة اعوام .

فقال سانغير :

- حسنا ، انت شاب واقوى منـى بدنا . وليس فقط لان قوتك تكمن فى «النجمة الحمراء» بـل ولانك قوى بعقلك ايضا . لهذا فانا اطيعك . اعلن امام الملأ باننى اعتق زوجتى .

واختتم عيسى حجايف حديثه بالقول :

- كان التعهد رسميا ، وكنت اعلم بانه سينفذ . ليس فقط بسبب قوة الانسان ذى «النجمة الحمراء» ، بل وكذلك بحكـم قوة العقل .

كان احد المراسيم الاولى للسلطة السوفييتية اعلان المساواة بين كافة المواطنين بغض النظر عـن قوميتهم ودينهم وجنسهم . وقد ضمن دستور عام ١٩١٨ الى النساء حق الانتخاب والترشيـح للانتخاب . (لم تعترف بريطانيا بهذا الحق الا فـى عام ١٩٢٨ ، وفرنسا فى عام ١٩٤٥ ، وبعض الاقاليم لا تعترف به حتى الآن) .

اصدرت حكومة كازاخستان فى ديسمبر عام ١٩٢٠ وحكومـة تركستان فى عام ١٩٢١ مراسيـم تقضى باتخاذ اجراءات تتجاوب

بصورة ملموسة اكثر مع وضع النساء الناشئ في جمهوريات الشرق : فحرم دفع المهر ، وتعدد الزوجات ، والزواج بالاكراه . وحدد القانون الحد الادنى للزواج ١٦ عاما - بدلا من ٩ اعوام - للفتيات و١٨ عاما - بدلا من ١٦ عاما - للشباب . بيد ان اصدار المراسيم لا يكفي وحده لتغيير الاخلاقيات التي غدت على مدى القرون امتن من الجرانيت وبدت بالنسبة للغالبية الساحقة امرا يميز طبيعة الاشياء . وبعد مرور عقد من الزمان على قيام الثورة اشار الكاتب السوفييتي بوريس بيلنياك لدى تجواله في انحاء طاجيكستان الى ان جليد القرون الوسطى ما زال قويا . فالمرأة لا تعد من الكائنات البشرية ، وتمثل مادة للبيع والشراء والمتعة ، ويختفي وجه المرأة وراء قناع من شعر ذيل الخيل . ويغلق على المرأة في بيت الحريم . ان برودة همجية القرون تبقى على كتل جليد التقاليد . وفي اثناء هذا الترحال شاهد احد رفاق الكاتب الحادثة التالية : اذ توقف في طريق سفره للمبيت في احدى القرى الجبلية . وفي الليل حين انهت الحمير نهيقها معلنة مغيب الشمس ، وكفت الكلاب عن النباح ، سمع صوت امراة . في بادئ الامر تراءى له ان المرأة تردد اغنية حزينة جدا ، ثم اعتقد انها تندب احد الموتى . الا ان صوتها كان اشبه منه بالصراخ ، وكان لا بد وان تسمع القرية هذا النحيب . ومع ذلك كانت القرية كلها غارقة في سبات عميق . وفي الصباح اعلن احد الطاجيكيين في مجلس القرية بانه قتل زوجته ليلا لانها تجرأت على نزع «التشاتشفان» (القناع المصنوع من شعر ذيل الحصان) . وتعرف عشرات الاحداث المشابهة . وكانت فرقة احد المسارح الطاجيكية تضم امرأتين : وقد قُتلت احداهما على يد احد اقاربها ، اما الاخرى فقد قتلها زوجها في اثناء نوبة غيرة وراء كواليس المسرح لان دورها يقضي بان تقبل رجلا آخر .

لكن الكاتب المذكور كان يرى بان «جليد التقاليد» في طاجيكستان بدأ بالذوبان . ولاثبات ذلك اورد الحادثة التالية : هجرت احدى النساء زوجها وغادرت القرية . وتوجه الزوج للبحث عنها ووجدها في المدينة . فرفضت الرجوع معه ، واذا به يغادر المدينة على حماره ، وقد غرق في التأملات . وفي الطريق توقف

للمبيت عند صديق له ، وروى له مندهشا للغاية كيف ان زوجته لم تطرد من المدينة ، بل هي تعيش فى هناء ، وقبلت للعمل فى المصنع ، ونزعـــت الحجاب وتتلقى اجور عمل طيبـــة . فابدى الصديقان عجبهما وغضبهما من الامر ، وفى نهاية المطاف اخلدا الى النوم . وفى الصباح اكتشفا غياب زوجة صاحب البيت : اذ هربت الى المدينة بعد سماعها حديثهما ليلا ، لكي تحذو حذو الزوجـــة الاخرى . وكادت هذه القصة ان تبقى مجرد نكتة لو لم يعمد الرجلان الى مطاردة المـــرأة المسكينة ونحراها فى الطريـــق المؤدية الى المدينة . اذن ، يتبين من هذا ان «جليد القرون الوسطى» لا يذوب سريعا جدا . . .

ان الاقناع الايديولوجى والدعاية لا يكفيان لغرض القضاء عـلى الماضى والتعجيل بالتطور . ويجب اتخـــاذ تدابير تطبيقية . وهذا بالذات ما بدات القيام به المنظمات الحزبية والسوفييتية المحلية فى اواسط العشرينيات . وتأسست خصيصا مـــن اجل النساء تعاونيات ومؤسسات صغيرة للعمل فيها بالاضافة الى تكويـــن جماعات خاصة لمكافحة الامية وافتتـــاح المدارس وشتى الدورات والنوادى النسائية حيث تتلقى النســـاء ، علاوة على تعلم القراءة والكتابة ، التدريب فى مجال الصحة والعنايـــة بالاطفال الرضع ، وتعلم الخياطة بواسطة ماكينة الخياطة ، ويتعرفن على حقوقهـــن المدنية وكيفية الدفاع عنها . وكانت النساء فـــى هذه التعاونيات والمؤسسات يمارسن الاعمال التقليدية – تربية دود القز وصناعة السجاد . والغاية من هذا جذب اكبر عدد مـــن النساء الى الانتاج وكسر عزلتهن الموروثة عن القرون الغابرة . وفى الوقت نفسه ففى لحظة اجراء اعمال الاصلاح الزراعى كانت ادوات الانتاج والماشية والقروض تمنح ايضا الى الفلاحات الفقيرات الراغبات فى تنظيم حياتهن بصورة مستقلة وعدم الاعتماد اكثر على الاب او الزوج او الاخ . كما توجهت النشيطات فى الحركة النسائية (واغلبهن مـــن الروسيات) اللواتى يتمتعن بمعارف طبية وحقوقية معينة الى انأى القرى من اجل تقديم المساعدة والمشورة الى النســـاء اللواتى كنّ اما حبيسات البيوت او اسيرات الرعب . فقد ترسخت الاوهام فى وعى الناس الى درجة انها وُجدت ايضا فى عقول الرجال الذين

اطلقوا على انفسهم تسمية الشيوعيين . وكانوا يقولون لهم احيانا ان موقفهم السابق من النساء لا يتلاءم مع وجودهم فى الحزب . وبالرغم من القانون وشتى العقوبات المفروضة فى حالة خرقه فقد كثرت فى العشرينيات الحوادث حيـــن كان الرجال - الآبـــاء والازواج ام الاخوان - يحظرون على زوجاتهم وبناتهم واخواتهم التعلم او حتى مغادرة البيت ، بينما كان بعضهم حتى يمارسون بيعهن وشراءهن ، كما فى الازمان الماضية . لكن ولّى ذلك الوقت حين كانت النساء تسجدن ، مرتجفات ، امام سيدهن وصاحبهن .

وبدأت الثورة تدخل اكثر فاكثر فى حياة النساء عاما بعد آخر : ففى عام ١٩٢٦ تعلمت قرابة ١٠ آلاف اوزبكية فى مدارس البنات وغيرها من المؤسسات التعليميـــة ، ومنهن ٩٥٠ - فى معاهـــد التربية ، و٤٠- فى مدارس القيادة الحزبية والاداريـة . وبحلول عام ١٩٢٧ كانت آلاف النساء قد انتخبن لعضويـــة السوفييتات المحلية فى الجمهوريات الشرقية . وفى العام نفسه شاركت مئات آلاف النساء ، اللواتى كنّ يترأسن الاقسام الحزبية النسائيـة ، والهيئات النقابية والثقافية ، فى «الهجوم» ، اى فى الهجوم عـــلى الاجحاف ، ومن اجـــل التحرر التام مـــن الخزعبلات والاخلاقيات القديمة . وكان ارتداء الحجاب يمثل رمـــز عبودية المرأة . وكان نزع الحجاب يعنى بالنسبة للمرأة تأكيدهـــا علنا للحرية التى حصلت عليها فى نهاية المطاف . وفى ٨ مارس عام ١٩٢٧ قامـت بهذه الحركة الرمزية آلاف النساء اللواتى اجتمعن بمناسبة الاحتفال بعيد المرأة العالمى ، فـــى حشود جرت فى كافة انحاء آسيـــا الوسطى . وكما كتبت صحيفة «برافدا فوستوكا» فى مارس مـــن العام المذكور فقد عقدت فى سمرقند اجتماعات بمناسبة يوم الثامن من مارس وتطايرت فيهـــا الشبكات السوداء السميكة كالغيوم السوداء عند طاولة هيئة الرئاسة ، وتحت اقدام الخطباء . وفـــى هذا اليوم القت الحجاب ١٩٧ امرأة من اهالى المدينة . وخرجن الى الشوارع فى صباح اليوم التالى وعلى رؤوسهن المناديل الحمراء . وفى اثناء اجتماع عقد بساحة رجستان عمدت ثلاث عشرة امرأة الى مقاطعة الخطب واعتلين المنصة والقين الحجاب وسط تصفيق حشد النساء .

وفى الفترة من مارس الى مايو عام ١٩٢٧ القت الحجاب فـــى اوزبكستان فقط ٩٧ الـــف امراة . ورد الظلاميون بممارســة الارهاب : ففى عام ١٩٢٨ وقعت فى اوزبكستان ٢٢٦ حادثـــة اختطاف واغتيال النساء . وفى عام ١٩٢٩ عقد المؤتمر الثالـــث لسوفييتات تركمانيا . وكان بين اربعين خطيبا فيه ثلاث عشرة امراة . فتحدث الخطباء عن الزواج بالاكراه فى القرى وعن تعـــدد الزوجات وعن اغتيال نشيطات الحركة النسائية . وفى الختام اقـر المؤتمر نداء يفضح السعى الى الابقاء على ظروف العبودية التـــى ترزح فيها النساء المسلمات ، والتى تتجافى مع النظام السوفييتى ، وتشكل حاجزا خطيرا بالنسبة لتطور المجتمع الجديد من الناحيتين الاقتصادية والثقافية . وجرى تقديم مخالفى القوانين الى المحكمة فورا . وفى عام ١٩٢٨ تم فى اوزبكستان فقط النظر فى ٤٠٨ دعاوى فى قضايا التزويج مقابل المال ، و١٧٠ دعوى فى قضايـا اكراه الفتيات على الزواج و٥٧ دعوى بتهمـــة استخدام القوة حيال النساء اللواتى امتنعن عن ارتداء الحجاب . وكـان الشىء الاساس يكمن فى انه وجدت منذ ذلك الحين نساء تجرأن على اقامة دعاوى فى المحكمة ، وكذلك وجد القضاة القادرون عـــلى التزام جانبهن . لكن انعتاق النساء بقى كقضية حساسة جـــدا ، وقد استغل هذا اعداء السلطة الجديدة ومنهم البصمجية الذين كانوا حتى اللحظـــة الاخيرة ، رغم حكم القدر بانهيارهم ، يروجون الدعاية السريـــة ولا يتورعون عن ارتكاب اية جريمة . وفى عام ١٩٣١ وصفت طالبـــة اوزبكيـــة «مأثرتهم» فى حديث مع بول-فايان كوتيريـــه : «كان البصمجية يعاملـــون بشراسة وبقسوة عـــلى الاخص الشيوعيات وعضوات السوفييتات وجميع النساء المسلمات اللواتى نزعـــن الحجاب وكشفن عن وجوههن . وكانوا يشنقونهن علنا او يسملون اعينهن او يقطعـــون اثداءهن ، ثم يتركون جثثهن على مرأى من الجميع» . لكن هذه الفظائع ، والتشنجات الاخيرة للماضى البشـع المحكوم عليه بالفناء ، ما كان بوسعها ان تقـــف حائلا دون ان تواصل نضالهن النساء والفتيات المتحررات المتزايد عددهن اكثر فاكثر – من اوزبكيات وتركمانيات وطاجيكيـــات وقيرغيزيات وكازاخيات .

القسم الثالث

منائر واقمار اصطناعية

«مظلومون» و«ظالمون»

«ان عمر طشقند ٢٠٠٠ عام ، كما انه لم يتجاوز بعد الثلاثين عاما» . رغم كل ما يبدو فى هذا القول مــــن مفارقة فانه مع هذا يطابق الحقيقة .ان طشقند مدينة عريقة فى القدم حقا ، وتأسست قبل ظهور اسكندر الاكبر بوقت طويل ، بيد ان مظهرها قد تجدد تماما بعد زلزال عام ١٩٦٦ ، الذى دمرها كلها تقريبا . وتتراءى فى الاشجار الفتية التى تؤطر الشوارع العريضة الجديدة ، والابنية الفخمة اللامعة تحت اشعة الشمس – مثــــل متحف لينين او دار الصحافة – بصمات الاسلوب المعمارى الوطنى والمبنية مع مراعاة احدث منجزات تقنية مقاومة الزلازل ، والاحياء الجديدة المؤلفــة من بيوت سكنية عديدة الطوابق ، والمنتزه الحديث العهد ذو القبب الزرقاء التى تعلو فوق «الجايخانات» فيه ، وعشرات النافورات التى تلقاها فى الطريق ، مثل واحات من الرطوبة المنعشة وسط قيظ الصيف ، ومحطات المترو الشبيهة بالقصور الخيالية لخليفة ما من العهود الغابرة ، والمطار الجديد الذى يتجول فى ارجائه ركاب من شتى القوميات والمهن كما لو كان رصيف محطة لقطار الضواحى – وتجد بينهم رجالا ونساءا يحملون على صدورهم شارات تدل على انهم من النواب ، وآخرين يسافرون فــــى مهمات رسمية ، ومهندسين ، وكولخوزيين مع صرر كبيرة ، وضيوفا قادمين من الشمال يأخذون معهم كهدية بطيخة كبيرة او شمامة ضخمــــة ، وعجائز يجرجرن وراءهن الاحفاد الحرونين ، وطالبات بالازياء القومية ، ورياضييــن عائدين من المباريات . . . ويبدو هذه كله جديدا جــدا ، ولكن

يتراءى فى الوقت نفسه ان الامور كانت هكذا دائما . وما يمكن قوله عن طشقند ينطبق ايضا على عواصم جمهوريات آسيا الوسطى الاخرى . كما ولدت مرتين مدينة عشق آباد فى تركمانيا - محطة القوافل فى الطريق الى مرو القديمة ، وبــؤرة الحضارة فى مفترق طرق القوافل العظيمة من روسيا الى الصين - لانها شيدت مـــن جديد بعد زلزال عام ١٩٤٨ . ومن يتعرف اليوم فى هذه العاصمة ، حيث يقطن حوالى ٣٥٠ الف نسمة ، والغارقة فى الحدائق والخضرة ، التى تجلب مياه الحياة اليها بواسطة قناة قره قوم ، على تلـــك المدينة الصغيرة المعفرة بالتراب ، التى كانت لا تثير فى النفس سواء الشعور بالعطش ؟ ومن سيتعرف على دوشانبه ؟ ومنذ فترة وجيزة تكاد تقارب نصف قرن لم يكن فى موضع عاصمة طاجكستان الا بلدة ذات عدة بيوت طينية ، ولم يكن فيها سوى مصباح واحد ينير ليلا فى ميدان السوق فقط . واليوم تراها كمدينة يقطنها ما يزيد عن نصف مليون نسمة وتعتبر مركزا اقتصاديا وثقافيا كبيرا فيه الكثير من المؤسسات الصناعية المتعددة الاغراض واكاديمية علوم وستة معاهد عالية وعشرات المؤسسات التعليمية المتوسطة واكثر من مائتى مكتبة .

وتقوم عند سفح الا - تـــو - (ومعناه «الجبال المبرقشة») مدينة فرونزه عاصمة قيرغيزيا . انها لا تشبه البتة من حيث عدد سكانها الستمائة الـــف ومصانعها لانتاج الماكينات الزراعيـــة والسيارات والحاسبات الالكترونية ومسارحها ومتاحفها ، وبيوتهـــا المحاطة بالخضرة تلك القلعة السابقة التى وجدت فى القرن التاسع عشر ، واطلقت عليها تسمية بيشبيك .

واخيرا ، فهل بالمستطاع التعرف فـــى الما-آتا عاصمـــة كازاخستان التى كانت حتى الامس القريب بلاد السهوب والمراعى ، وغدت حاليا عملاقا لانتاج الطاقة والمحاصيل الزراعية ، وكذلـــك منصة لاطلاق الصواريخ الفضائية ، فى الما-آتا بسكانها الذيـــن تجاوز عددهم المليون نسمة ، على بلدة فيرنى العسكرية النائية .

ولو اخذنا كازاخستان فقط ، والتى جرى تصنيعها بفعاليـــة بالغة نظرا لما يتوفر فيها من احتياطيات ضخمة مـــن فحم وخامات المعادن ، فانها زادت انتاجها الصناعى فى الفترة من عام ١٩٤٠ الى

عام ١٩٧٠ بمقدار ١٩ مرة (بينما ازداد فى الاتحاد السوفييتى اجمع خلال الفترة المذكورة بمقـــدار ١٢ مرة) . ان ارض كازاخستان العريقة ، التى بدا وكأن الاقدار قد حكمت عليها بالبقاء الى الابد منطقة لتربية الماشية فقط ، شهدت تحولا كاملا . وكتب المؤلـف الفرنسى جان رادفاني يقول : «لقد كانت النسبـــة بين الانتاج الصناعى والانتـــاج الزراعى فى عام ١٩٢٠ تعـــادل ١ : ١٥ ، وتعادلت فى عام ١٩٣٧ ، وفى عام ١٩٧٩ كانـــت قيمة المنتوج الصناعى تزيد ٣,٨ مرة على قيمة المنتوح الزراعى» * .

لقد حققت الزراعة هناك طفرة لا نظير لها ، بالاخص بفضـــل استثمار الاراضى البكر (لقد اصبح موضوع تخلف الزراعة والنواقص فيها «لقمة سائغة» بالنسبـــة لبعض المختصين فى الـــدراسات السوفييتية ، دون ان يأخذوا بنظر الاعتبار الظروف المناخية الصعبة للغاية فى القسم الاكبر من الاراضى السوفييتية ، فاخذوا يكيلون الاتهامات الى «النظام» نفسه باعتباره السبب فى كل النقـائص) . لقد جرى استثمار الاراضى البكر فى ست مقاطعات بكازاخستـــان تشغل مساحة قدرها ٦٠٠ الف كيلومتر مربع ، اى اكبر من مساحة فرنسا . وبلغت مساحة الارض التى وجب حرثها ٢٥٠ الف كيلومتر مربع ، اى اكبر من مساحة بريطانيا .

لقد ساعد الاتحاد السوفييتى كله فى استثمار الاراضى الجديدة . وتدل على هذا تسميات الكولخوزات والسوفخوزات التى اسسهـــا الكادحون الذين وفـــدوا من شتى انحاء البـــلاد السوفييتيـــة : «موسكوفسكى» و«لينينغرادسكى» و«مينسكى» و«كييفسكى» . . . وفى خلال الخمسة وعشرين عاما التى انصرمت على بدء استثمـــار الاراضى البكر زادت كازاخستان انتاج الحبوب بمقدار ٧ امثال . وحين تغدو الظروف المناخية ملائمة نسبيا تعطى كازاخستان ٢٨ — ٢٩ مليون طن من الحبوب فى السنة . كما تنامت تربية الحيوان فى آن واحد مع ازدياد المحصول تناميا ملموسا : فيوجد هنـاك ٣٥

---

* الملاحظة ماخوذة من كتاب جان رادفالي : «عملاق ذو مفارقات» . باريس ، ١٩٨٢ . — المحرر .

مليون رأس غنم او ٢٥ بالمائة من اجمالى رؤوس الاغنام فى الاتحاد السوفييتى ، و٨,٩ مليون رأس بقر (٧ بالمائة) . وتنتج كازاخستان سنويا مليون طن من اللحوم وتجهز منها مقدارا يزيد ٤ امثال على ما كان يجهز قبل استثمار الاراضى البكر . أليست هذه الصورة بعيدة حقا عن الصورة التى لا يكف «الخبراء» الغربيون عن رسمها ؟

وفى آسيا الوسطى بالذات ، وبالاخص فى اوزبكستان ، ما برح «الذهب الابيض» اى القطن يعتبر الثروة الرئيسية . وتورد جمهوريات آسيا الوسطى ما يعادل اجمالا نسبة ٩٠ بالمائة من القطن السوفييتى . وانبثقت حول القطن صناعة ضخمة لانتاج الماكينات . ان اختراع وانتاج ماكينات جنى القطن وغيرها من الآليات قد احدثا ثورة فى انتاج القطن ووفرا القوى العاملة اللازمة فى الاماكن الاخرى للقيام باعمال اخرى . وفى السابق كان العامل الواحد يحتاج الى يوم واحد لجنى ٢٠ - ٢٥ كيلوغراما من القطن . بينما تجنى ماكينة واحدة من ماكينات جنى القطن الجديدة ، التى تنتج بمصنع طشقند ، ٣ اطنان فى اليوم .

ويتطلب الحصول على طن واحد من «الذهب الابيض» انفاق ٦ آلاف متر مكعب من الماء . وبالتالى وجب بذل جهود لا مثيل لها فى مجال الرى ايضا . وحسب اقوال رائد الفضاء فلاديمير جانيبيكوف ، المولود فى اوزبكستان ، فان ارض مسقط رأسه تبدو من منور السفينة الفضائية وكأنها مغطاة بشبكة من الخيوط اللامعة . اذ تشق هذه الارض قنوات يبلغ طولها ١٥٠ الف كيلومتر . وتوزع المياه هناك بواسطة ٩٠٠ منظومة رى واكثر من مليون من منشآت الرى المختلفة . وتبدو الارض هناك كميدان معركة : فيتراءى كما لو ان الصحراء تتعرض الى الهجمات من كافة الجوانب وتحاصر قليلا من قبل الفيالق الخضراء للمزارع الجديدة . وتلمع هنا وهناك مثل الاحجار الكريمة البحيرات الاصطناعية التى اقامها الانسان .

كما حدث تطور عاصف فى مضمار انتاج الطاقة الكهربائية ، حسب الصيغة المعروفة التى اوردها لينين - «ان الشيوعية هى السلطة السوفييتية زائدا كهربة البلاد كلها» . ويغدو انتاج الطاقة الكهربائية فى السنة محسوبا بالنسبة لكل فرد من السكان فى

الجمهوريات الخمس - ٥٠٧٢ كيلوواط/ساعة فى كازاخستان و٩٣٧٨ كيلوواط/ساعة فى طاجيكستان ، و٢٥٩٢ كيلوواط/ساعة فى قيرغيزيا ، و٣٦٦٤ كيلوواط/ساعة فى تركمانيا و٢٥٩١ كيلوواط/ساعة فى اوزبكستان (معطيات عام ١٩٨٥) - يغدو ملموسا على الاخص ان قورن بالوضع فى البلدان المجاورة : ٥٤٤ كيلوواط/ساعة لكل فرد من السكان فى تركيا ، و٤٧٦ كيلوواط/ساعة فى ايران (معطيات عام ١٩٨٠) .

ومن المتوقع ان تطرأ فى السنوات القريبة القادمة زيادة جديدة وملموسة على انتاج الطاقة الكهربائية ، ومنها فى الجمهوريتين - طاجيكستان وقيرغيزيا ، حيث تشيد مجموعات كاملة من المحطات الكهرومائية . ويبنى فى الاتحاد السوفييتى فى الوقت ذاته المزيد من المحطات الكهرذرية . وتؤخذ كازاخستان باعتبارها احد «الرواد» فى استخدام الطاقة الذرية : اذ ولدت مدينة كبيرة على ساحل بحر قزوين اسمها شيفتشينكو يبلغ عدد سكانها ١٢٩ الف نسمة ، ولم تكن سابقا سوى قرية صغيرة . واطلق عليها اسم الشاعر الاوكرانى العظيم الذى امضى فى تلك الاماكن فترة نفيه . ومن العسير العثور على قطرة ماء عذب «طبيعية» واحدة فى المدينة . ويهتم البشر انفسهم هناك بامر تأمينها . فيقوم مفاعل عامل بالنيوترونات المعجلة بتأمين الطاقة الضرورية لتشغيل وحدة تحلية ماء بحر قزوين التى تزود المؤسسات الصناعية فى المدينة واهلها بحاجتهم من الماء . كما ويسقى الماء العذب ١٠٠ الف شجرة و٢٠ هكتارا من الرياض ومئات آلاف الازهار التى تجعل الهواء منعشا فى المدينة المشيدة وسط الصحراء ، وهي المدينة الوحيدة فى العالم التى تحيا بالماء المالح بعد تحليته بالطريقة «النووية» .

ولا مراء فى انه سيبدأ فى المستقبل القريب استخدام الطاقة الشمسية ايضا على نطاق واسع جدا . فيواصل علماء آسيا الوسطى الاعمال الهامة فى هذا الاتجاه . وتنتج الصناعة منذ الآن مسخنات ماء ومواقد ووحدات تحلية شمسية ، بيد ان كمية السعرات الهائلة التى يغمر بها الجسم الساخن صحراء قزل قوم ما زالت تنتظر من يروضها بصورة حقيقية .

لقد بات من العسير اليوم تكرار الاكذوبة غير المعقولة التي روجت ابان فترة طويلة جدا حول «الاخفاق» السوفييتي في آسيا الوسطى . وتدل الارقام والحقائق التي لا تدحض على النطاق الهائل للجهود المبذولة ، وكذلك للنجاحات المنجزة في بلوغ الهدف الذي تحدد بوضوح منذ الايام الاولى لقيام الثورة الا وهو انتزاع المناطق المستعمرة السابقة من التخلف ، وايصالها الى مستوى اكثر البلدان تقدما سواء في مجال الاقتصاد او الثقافة . لكن بعض «المختصين بالدراسات السوفييتية» يبدون اعتراضهم على هذا بالزعم قائلين : ان هذه النجاحات غير القابلة للجدل لم تتحقق بفضل الثورة الاشتراكية ، وانما بحكم طبيعة الاشياء ، التي املت تطور هذه المناطق . وحسب اقوالهم فان هذه البلدان كانت ستشهد التطور ذاته حتى لو بقيت تابعة لروسيا القيصرية او البرجوازية . لكن البحث عن الحقيقة يجب ان يستند على الوقائع . والوقائع تدل على نفسها بنفسها : فلم يحدث تقدم في اي مكان بقيت فيه الشعوب تحت الاستعمارالقديم او الجديد . وحتى اذا ما تم مد عدة طرق للسكك الحديدية ، واذا ظهرت الموانيء والمطارات ، فانما جرى هذا قبل كل شيء من اجل تشديد الاستغلال وزيادة ارباح المستعمرين القدماء والجدد وحفنة من «الافراد المحليين» الذين وضعوا انفسهم في خدمتهم . ولو رجعنا من جديد الى مثال الجزائر نجد غداة الانتفاضة الوطنية في ٢ نوفمبر عام ١٩٥٤ ان اربعة من كل خمسة اطفال جزائريين كانوا بلا معلمين ومدارس ، ونسبة ٩٠ بالمائة من السكان اميين . وفي الفترة المذكورة بقي انتاج الحبوب في مستوى عام ١٨٨٠ ، بالرغم من ان عدد السكان قد ازداد بثلاثة اضعاف . فهل يستحق التنويه ايضا بان الاجحاف في شئون الحياة اليومية – لدى القبول في العمل ، ومقدار الاجور ، وفي مجال الحقوق المدنية – قد غدا قاعدة مألوفة ؟ وكانت الاحوال مماثلة لهذه في الهند «البريطانية» وفي الكونغو «البلجيكي» . وبدت آسيا الوسطى في الازمان القيصرية بصورة مماثلة ، وبالطبع ما كان بالمستطاع ان يتغير الوضع بحد ذاته ، ان بقيت المنطقة تحت سيطرة الاستعمار القديم والجديد .

الامبراطورية المنهارة للمختصين بالدراسات الروسية

اليوم ثمة قلائل ممن ينكرون التقدم الذى تحقق فى جمهوريات آسيا الوسطى . ولا جدال فى انها تحيا اليوم افضل من يوم امس ، وستحيا غدا بصورة افضل بقدر اكبر . لكن النقاد البرجوازيين يشنون حملتهم الآن فى غير هذا الاتجاه . فقد شاعت حاليا «موضة» طرح قضايا اخرى . هل هم الاسياد فى بلادهم ؟ هل اعطوا حقوقهم الوطنية اليوم مقابل صحن من شوربة العدس ، حتى اذا ما كانت تبعث على الشبع بقدر كاف ؟ هل سيبقون على حالهم او انهم وقعوا تحت سيطرة النير الاجنبى المموه بدقة ؟ وهل ستسحق الهراسة البخارية «للروسنة» جميع ما كان يشكل الاصالة الفذة لثقافات شعوب آسيا الوسطى ؟

ان هذه الاسئلة التى يطرحها المختصون بالدراسات السوفييتية كنتيجة للتأمل «الموضوعى» ، والاجابات التى يجيبون بها عن هذه الاسئلة ، سعيا الى تبرير تكهناتهم بصدد حتمية «تمرد» شعوب الاتحاد السوفييتى الذى حكمت عليه الاقدار بان «يتمزق الى اشلاء» ، تساعد على تكوين صورة زائفة تماما عن الوضع القائم فى جمهوريات الشرق السوفييتى . وينبغى ان نرى فى هذا شيئا مغايرا تماما للاخطاء البسيطة او النقائص فى الاحكام . وتقوم خمسون كلية وجامعة امريكية فى الوقت الحاضر بدراسة آسيا الوسطى السوفييتية ، وتاريخها واقتصادها وقوامها الاثنى وتأثير الدين والتقاليد الاسلامية فيها . وقد علل احد هؤلاء «الخبراء» هذا الاهتمام بامور بعيدة جدا عن العلم . فكتب يقول «ان موقف الولايات المتحدة من المسلمين السوفييت لا يمكن باى حال من الاحوال ان يكون موقف اللامبالاة . وقبل كل شىء يتعين على الولايات المتحدة ان تساعد بكافة الوسائل على تطوير الاتجاهات الانفصالية فى اوساط المسلمين السوفييت» * . ولا تتخلف فى هذا المجال المملكة

---

* المقطع ماخوذ من مقالة و . فوسينيتش «المسلمون فى الاتحاد السوفييتى» فى مجلة «كورّينت هيستورى» ، نيويورك ، ١٩٥٣ ، العدد ١ . — **المحرر** .

المتحدة البريطانية : ففي عام ١٩٦٧ تاسست هناك الى جانب مجموعات الابحاث العاملة في معالجة القضايا ذاتها «الرابطة البريطانية لابحاث الاتحاد السوفييتي وبلدان اوربا الشرقية» . ويتخصص بعض اعضاء هذه الجمعية في شئون آسيا الوسطى . وكتب احدهم وهو جوفري ويللر العقيد السابق في الجيش الهندي الاستعماري (وهيئة مخابرات صاحبة الجلاله) عدة كتب حول هذا الموضوع . وبعد ان زالت الامبراطورية البريطانية اصبح فجأة من انصار حق الشعوب في تقرير المصير ، واكتشف ايضا وجود ممارسات «اضطهاد الروس لشعوب آسيا الوسطى» . كما تعزف هذه المعزوفة بلا كلل محطة اذاعة «صوت امريكا» في برامجها باللغة الاوزبكية ، والتي تصور الولايات المتحدة فيها بالمدافع عن «حقوق المسلمين» . ويمكن ان نشير بصورة عابرة الى ان وضع ٣-٤ ملايين مسلم امريكي - المنحدرين من بلدان الشرق الاوسط والهند والباكستان - هو ، بالعكس ، لا يهم واشنطن البتة . فهم يقعون ضحايا لشتى اصناف التمييز المجحف ، ويجدون مشقة في البحث عن عمل ومسكن (ان لم يكونوا طبعا من اصحاب المليارات البترولية) ، وعلاوة على هذا يغدون في لحظات الازمات السياسية الخطرة هدفا للتطاولات الاجرامية من قبل بعض الزمر المتطرفة . فمثلا فجرت قنابل بلاستيكية اربع مرات بمسجد صغير يقع في جنوب برونكز بنيويورك في عام ١٩٨٠ . ووسائل الاعلام في فرنسا تلتزم الصمت عن ذلك . لكنها تقدم الميكروفون عن طيب خاطر الى المختصين في الدراسات السوفييتية الذين احيطوا بهالة من الوقار والهيبة ، ولئن تطلبت الحاجة فهم سيضيفون «بكل موضوعية» حجة جديدة في الحملة المعادية للسوفييت الجارية باستمرار . واحدهم الكسندر بينيغسين مدير شعبة الابحاث في المدرسة العليا للعلوم الاجتماعية ، والذي لا يرى شيئا جديدا مبدئيا في حياة آسيا الوسطى باستثناء فرض شكل جديد «للاضطهاد الروسي» هناك . وبرأيه ، لم يطرأ اي تغير خلال ٦٠ عاما على تفكير «الاهالي» الذين تلهمهم «روح الحقد على الروس والكفار» القديمة والعارمة ذاتها . وبالرغم من المجموعة الغزيرة من النصوص الموضوعة بين يدي القارئ ، فيغمر المرء شعور من

الارتباك حيال بؤس الاستنتاجات القائمة على مسلمات مشكوك فيها ، والتى تصور وكأنها حقائق جلية . فيرى بينيغسين ، مثلا ، انه ما كان ولن يكون ابدا فى اساس العلاقات بين الشعوب من شيء باستثناء العداوة والريبة الدائمة ، ومهما كانت قوة وعمق الثورات فانها لم تستطع ابدا ولن تتمكن من تغيير شيء فى هذا المجال . وعمد صاحبنا لغرض تصوير موضوعاته ، ودون ان يرف له جفن ، الى الزعم بشكل قاطع :«. . . يبدى الروس الاحتقار السخيف والاحمق المميز للمستعمرين تجاه الاهالى المحليين . . . بينما لا يخفى المسلمون حقدهم على مضطهديهم» * . والادهى من ذلك نجده يزعم ان الاوزبيك والطاجيك وغيرهم من ابناء الشعوب المحلية ينتظرون على أحرّ من الجمر تحريرهم على ايدى . . . الصينيين . اما متى واين سمع مثل هذا الهراء هذا السيد الجامعى ، الذى يعشق بقوة «الدقة» و«الموضوعية» ، فهذا ما لن نعلمه ابدا ، لسبب مفهوم تماما هو ان اى زائر لطشقند لن يصدق مثل هذه الخيالات .

كما كتبت إلين كارّير دانكوسّ شيئا مماثلا ، ولكن بنزعة ابتكار اكثر ، ومع ايراد وفرة من الكشوف الاحصائية . ويرمى كتابها «الامبراطورية المنهارة . تمرد الشعوب فى الاتحاد السوفييتى» الى تحقيق الهدف ذاته – اى اثبات ان «اخضاع» الشعوب المستعمرة السابقة «بالاكراه الى سلطة موسكو» و«روسنتها» سيقودان الى الانتفاضة . بالمناسبة ، يكمن هذا الزعم فى تسمية الكتاب والعنوان الفرعى «المغري» اكثر مما يكمن فى النص نفسه . لكن من الذى سيرد فى خاطره استقصاء هذا الامر ؟ وكانت الصحف والاذاعات ومحطات التلفزيون تردد هذه التسمية فقط على نطاق واسع ، وتقدمها بكل قوة وسائل الاعلام باعتبارها «نبوءة موفقة» ، وتلاءمت

* ا . بينيغسين . «على هامش الازمة الافغانية : المسلمون السوفييت» ، «فيجارو» ، ٧ مارس ، ١٩٨٠ .

جيدا مع المناخ السياسى المحظة الراهنة * . والعكس بالعكس فان الاشياء الجلية للعيان التى اعترفت بها المؤلفة نفسها بقيت مجهولة بالنسبة لغالبية المستمعين والمشاهدين . وعلى سبيل المثال كتبت إلين كارّير دانكوس فى كتابها ان الكوادر الوطنية ممثلة فى كل مكان بجمهوريات آسيا الوسطى ، ولا يحدث كما فى الماضى «انزال» الروس لشغل شتى المناصب القيادية . فماذا تعنى هذه الحقائق ؟ انها تعنى بان الجهود التى بذلت على مدى الفترة كلها بعد انتصار الثورة بهدف تشكيل فئة المثقفين «القومية» ، القادرة على الامساك بزمام ادارة جمهوريتها فى الميدان السياسى والادارى والتكنيكى ، قد اعطت ثمارها ولن تعد ثمة ضرورة اكثر لدعوة الكوادر من وسط روسيا للقيام بهذه الوظائف ، مهما كانت رفيعة المقام . اما بصدد «رجال الانزال» (ولم يكن الاهالى ليبدون شكواهم منهم ابدا) فانهم قد ساعدوا ليس فقط على تأسيس جهاز الدولة الفعال ، بل وتطوير الصناعة والزراعة الحديثة من لا شىء ، او لا شىء تقريبا ، وبناء الجامعات والمستشفيات . ويطيب للاوزبكيين ان يستعيدوا ذكرياتهم حول انه فى تلك الفترة عندما كانت نسبة ٩٨ بالمائة من السكان من الاميين وكانت المعركة ما زالت مستمرة من اجل انتصار الثورة نهائيا ، توجه من محطة بريانسك فى موسكو فى ليلة من ليالى فبراير عام ١٩٢٠ قطار صحى تم سحبه من الجبهة . فنقل الى طشقند المدرسين والباحثين العلميين ورجال الابحاث والاختصاصيين فى مختلف المواضيع ، من اجل تكوين نواة اول جامعة شعبية فى آسيا الوسطى . وقد امضوا ٥٢ يوما لكى يصلوا مع عوائلهم الى عاصمة تركستان . علما ان الركاب انفسهم كانوا يحافظون على النار موقدة فى بوتقة القاطرة ، وفى بعض الاحيان كانوا يزيلون بالمجارف الثلوج من الطريق . وجاء هؤلاء الناس الى هناك ليس من اجل «شغل المناصب الشاغرة» ، بل لمجرد تهيئة الظروف من اجل ان تتولى ادارة الكليات الجديدة الكوادر من الاوزبيك والطاجيك والكازاخ والتركمان والقيرغيز وابناء القوميات الاخرى .

---

* صدر كتاب دانكوس فى باريس عام ١٩٧٨ حين شنت القوى اليمينية هجوما فعالا على الانفراج . — **المحرر** .

لقد سعت شتى مدارس المختصين بالدراسات السوفييتية على مدى اعوام طويلة وبكل قواها ، وبايراد المقارنات في الارقام والنسب المئوية ، الى اثبات ان السلطة السوفييتية تصبو الى تهيئة التربة لتقدم الروس على حساب السكان الاصليين . لكن الحقائق تبين بانه لوحظ على مدى جميع سنوات حكم السلطة السوفييتية بآسيا الوسطى حدوث زيادة سريعة ومستمرة تقريبا فى عدد الطلاب والكوادر من ابناء القوميات المحلية فى كافة الاختصاصات العلمية – التكنيكية وفى جميع فروع الاقتصاد . وفى عام ١٩٧٩ كانت نسبة الاوزبيك وابناء القوميات الاخرى بين الباحثين العلميين الحائزين على شهادات الدبلوم تقارن عمليا بنسبتهم فى قوام سكان الجمهورية . وفى فجر الثورة طرح القادة السوفييت امامهم مهمة مساعدة الشعوب المستعمرَة فى القضاء على تخلفها وتحقيق المساواة الفعلية من الناحية المادية وكذلك الثقافية والذهنية ، وبالتالى جرت معالجتها بنجاح كبير . ويوجه السوفييتيون الى المنتقدين ، الذين يلمحون زاعمين بامكان المضى بصورة اسرع ، السؤال التالى بنوع من السخرية : كم كان عدد الكوادر المحلية التى خلفها وراءهم فى المستعمرات نواب الملوك البريطانيون فى الهند والحكام الاوربيون فى افريقيا عشية منحها الاستقلال ؟ كان يوجد فى الجزائر عام ١٩٥٤ – وهو عام الانتفاضة الوطنية والذكرى الـ١٢٤ «للوجود الفرنسى» – من اهالى البلاد الاصليين مهندس معمارى واحد ومهندس واحد لا غير .

وهكذا فان القوميات «المضطهَدة» (ذلكم هو وصف المختصين بالدراسات السوفييتية لها) لا تتمتع فى الاتحاد السوفييتى بمستوى معيشة «المضطهِدين» نفسه ، كما يحق لابنائها نيل الدبلومات نفسها وشغل المَناصب ذاتها فى المجالين العلمى والتكنيكى . وبما ان الامر الاخير بات من العسير انكاره حاليا ، لذا يفتح «ملف» جديد ، وفى هذه المرة ملف «الاجحاف السياسى» : بزعم ان الاوزبيك والطاجيك والتركمان والقيرغيز والكازاخ هم اسياد وطنهم «بصورة شكلية» فقط . ومن اجل اثبات ذلك تشير مدام دانكوس مثلا الى ان الروس موجودون دائما فى القيادة الحزبية العليا لهذه الجمهوريات . وقد تبين لها ان هذا وحده يكفى للقول بانهم «السادة الحقيقيون» الذين

تناط بهم مهمة تنفيذ قرارات موسكو ومراقبة سلوك غير الروس . وهذا التصور ينقل بصـــورة مصطنعة ما يعرف عن الاســاليب الاستعمارية (الفرنسية وغيرها) الى الواقع السوفييتى الذى لا يربطه بها رابط .

ففى الاتحاد السوفييتى لا توجد جمهورية واحدة غير متعــددة القوميات ، ويعكس قوام الحزب الشيوعى هذا الواقع فى كل مكان. وعلاوة على ذلك فان الروس يشكلون فى كثير من الجمهوريات اكبر اقلية قومية . واعتمادا على احصاء النفوس لعام ١٩٧٩ فان نسبتهم تبلغ ١٠,٨ بالمائة فى اوزبكستان ، و٢٥,٩ بالمائة فى قيرغيزيا ، و١٢,٦ بالمائة فى تركمانيا ، و١٠,٤ بالمائة فى طاجيكستان . وفى كازاخستان نجد ان عدد الروس حتى يزيد عن عدد الكازاخ : ٤٠,٨ بالمائة مقابل ٣٦ بالمائة . ولا توجد اية قواعد مقننة بشأن «تحديد نسب» القوميات لدى تعيين اعضاء الحزب فى اية مناصب ، ومعنى هذا فمن الطبيعى تماما ان يمثل الروس ايضا فى قيـادة الحزب على هذا المستوى .

ان ترقية الكوادر الوطنية ، المنحدرة من مناطق الاطـــراف السابقة ، الى الهيئات القياديـــة العليا فى الحزب الشيوعـــى السوفييتى ، وكذلك الى هيئات الدولة المركزية ، تعتبر بحد ذاتها تقدما بالنسبة الى ابناء القوميات الاعضاء فى الحزب الشيوعـــى السوفييتى . وتعترف بهذا حتى مدام دانكوس حين تشير الى انــه اتبعت سياسة ترمى الى التقليل من عدم المساواة على اساس قومى بين اعضاء الحزب ، واذا ما كان عدد ممثلى الشعوب «الاسلامية» فى الحزب فى فترة ما قبل الحرب ضئيلا جدا ، فان هذا العدد قد ازداد بشكل ملحوظ بجلاء فى نهاية الحرب . وفعلا ان النسبة المئويـــة لاعضاء الحزب الشيوعى السوفييتى قد تميزت ابان فترة طويلة وما برحت تتميز بكون عدد ممثلى شتى القوميات فيه غير متكافى٠ . ومن اليسير ادراك ان المذهب الماركسى اللينينى الذى تبناه الحزب قد كسب شغيلة المراكز الصناعية بوسط روسيا بصورة اسرع كثيرا من كسب الرعاة-الرحل فى كازاخستـــان ودهاقنة واحات آسيــا الوسطى . لكن فى هذه الحالة ايضا ولدت الجهود التى بذلت طوال الاعوام اتجاها نحو محو الاختلافات . كما يتجسد توطيد الصلات بين

الحزب والشعوب فى استمرار تنامى نسبة عدد الشيوعيين الذين تمثلت قومياتهم بسبب هذه الخاصية او تلك لتطـورها ، وكانت درجة تمثيلها فى الحزب سابقا اقل من تمثيلها فى مجموع سكان البلاد الاجمالى .

والقول بان سياسة التقارب بين الشعوب عن طريق ازالـــة الاجحاف والتخلف المترسخين فى التاريخ ، وعن طريق توفر الفرصة لمشاركة كل فرد فى الادارة على اى مستوى ، بغض النظر عـــن انتمائه الى اية قومية ، قد تكللت بالنجاح - معنـاه ، حسب رأى المختصين بالدراسات السوفييتية ، تقديم الدليل على انعدام التفكير الانتقادى والسذاجة العجيبة . ويقول الذين يعولون على هذا «دعك من هذا الكلام ، فليس بوسع القوميات فى الاتحاد السوفييتى الا ان تحقد على بعضها البعض ، لان طبيعة البشر والاشياء حكمت على مدى القرون بان تحقد الشعوب على بعضها البعض وبان يضطهد الاقوياء الضعفاء» . وهم يستنتجون من هذه الفذلكات بان الحركات العظيمة التى انهضت وما زالت تنهض شعوب افريقيا وآسيا وامريكـا الى النضال فى سبيل التحرر الوطنى ، او الاشتباكات الاثنية التى تهز اركان بعض البلدان مثل بلجيكا وكندا وبريطانيا ، يجب ان يكون لها مثيل فى «الامبراطورية السوفييتية» ايضا . ثمة خلط مغر للافكار يغذى اوهام الذين ينتظرون بفـــارغ الصبر حدوث «الانفجـــار» المنشود . لكن لا نفع من هذا الخلط : ولئن كانت شعوب آسيـا الوسطى مستعدة حقا للنضال ضد «الاستعمار الروسى» ، فانها قد فعلت هذا ، وبكل نجاح ، منذ ٦٥ سنة خلت ، حين تم القضاء عليه بمساعدتها . وهذا المثال بالذات قد الهم الشعوب الاخرى على نطاق واسع جدا لشن النضال التحررى فى فترة «تصفية الاستعمـار» . واذا ما انعدم فى الاتحاد السوفييتى وجود نضالات ضد «الاستغلال» فمعنى هذا مجرد غياب الاستغلال وبخلاف ما جرى آنذاك ، حين كانت المناطق الشرقية فى الاطـــراف تنهب من اجل ان يرفل بلـــد «المتروبول» بالنعيم ، فان النظام السوفييتى اتاح لها بالتعـــاون الاقتصادى والسياسى والثقافى تحقيق المساواة ومنحها الامكانيـــة للتطور بشكل لم تعرفه اية بلاد ذاقت نير الاستعمار القـــديم او الجديد .

– انظروا الي ، انا المسكين ، المظلوم ! واعطفوا علي فقد «روسنت» !

قال لى هذا مازحا احرّار علييف الاستاذ فى معهد التاريخ التابع لاكاديمية علوم اذربيجان حين استقبلنى فى باكو ، وقد رفع يديه نحو السماء مسترحما ، ثم اغرق فى الضحك . وتقع اذربيجان غربى بحر قزوين ، وهى ليست بعيدة جدا عن آسيا الوسطى ، ولم تكن مشاكلها لتختلف كثيرا عن مشاكل آسيا الوسطى .

ومضى احرّار علييف يقول باللهجة نفسها :

– لقد سحقنا الروس ! انهم «ارغمونا» على ادارة جمهوريتنا وتطويرها بانفسنا . ولدينا جامعة يدرس فيها ١٠ الاف طـــالب ، وحوالى ثلاثين معهدا وكثير من المدارس يجرى التعليم فيها بعدة لغات . وترى ان الروس «يرغموننا» على ان ندرس ونعرف لغتنا وثقافتنا بصورة افضل . وتصور لقد وجب علينا العدول عن مـد خط لنقل الكهرباء لانه يمر عبر موضع آثار يرجع عهدها الى العصر الرومانى تم اكتشافها مؤخرا . وسيمد الخط فى مكان آخـر . ان هؤلاء الروس «يضطهدوننا» ، وهم «يرغموننا» على احترام ماضينا . فنصدر الآن «الانسكلوبيديا الاذربيجانية» باحد عشر مجلدا ، طبع منها اربعة مجلدات . طبعا بلغتنا . وانجز عمل ضخم من اجل جمع كل ثروتنا القومية فى كل واحد . ويتحدث ابناؤنا ويكتبون باللغة الام خيرا من اى وقت مضى ، لانهم يستطيعون الآن دراستها بجد ، ولانها غدت اكثر غنى بكثير . كما نتحدث بالروسية ، والسبب هم ايضا . . .

ثم قال احرّار علييف فى الختام جادا :

– هل يعتقدون فى الغرب حقا اننا نتعلم اللغة الروسيـــة بالاكراه ، ونطالع مؤلفات بوشكين وتولستوى بلغة كاتبيها خوفا من العقاب ؟ او تعرف ان ١٠ ملايين اذربيجانى يعيشون خارج حدود الاتحاد السوفييتى ، وبالاخص فى ايران . وفى هذه البلاد التـى عانت ردحا طويلا من الزمن من الاضطهاد الاقطاعى والاجنبى ، لم يكن يعترف فيها بالثقافة الاذربيجانية ، وتعتبر لغتنا لهجة مـــن

اللهجات ، غير جديرة بالنسبة للنشر . بينما اعطانا النظام السوفييتي الفرصة لولوج عهد الانبعاث الحق لشعبنا وثقافتنا . واذا ما وصف هذا بعض الناس بلغة قاموس بتسمية «الروسنة» ، فكلما ازدادت هذه الروسنة ، اصبحنا اكثر سعادة .

والروسنة اصطلاح يحدد سياسة روسيا القيصرية في الاراضي الخاضعة لسيطرتها . وبها وصفت سياسة الاندغام بالاكراه ، التي كانت تستهدف اجتثاث الثقافة واللغات المحلية لكي تفرض بدلا منها ثقافة ولغة المنتصر . وقد استرشد المستعمرون الفرنسيون بهذا المنطق فامضوا في سياستهم الاستعمارية الى اقصى حد : اذ كانت فرنسا تتواجد في كل مكان يرفرف فيه علمها . وكانت اللغة الفرنسية اللغة الوحيدة الجديرة بالدراسة والانتشار في «محافظات» ما وراء البحار . واعتبرت اللغة العربية التي كانت تتحدث بها الاغلبية الساحقة من ابناء شمال افريقيا ، حتى اواخر سني استعمارها ، كلغة «اجنبية» فاما حرمت دراستها كليا ، واما فرضت رقابة صارمة عليها . اما السياسة القومية السوفييتية فهي مناقضة لذلك تماما . وهدفها اعطاء الفرصة لبلوغ الازدهار – من الناحية الثقافية والاقتصادية والسياسية – لكل مجموعة اثنية ، وكل قومية . اذن لا بد وان يصف المرء بوقاحة يحسد عليها لكي يتجرأ على الكتابة ، كما فعل هذا ، جوفري ويللر ، بان «موقف القيصر من المسلمين الروس كان ، عموما ، موقف اللامبالاة ، الذي اتاح للامور التطور بنفسها . . . اما النظام السوفييتي ، فبالعكس ، يفرض مستوى روسنة اشد مما كان يخطط له وينفذ قبل الثورة» . ومضى «خبير» آخر ابعد منه ، وهو الامريكي ريتشارد بايبس الذي كتب ان دراسة اللغة الروسية «تلقى تشجيعا كبيرا» . بينما ، بالعكس ، «لا تشجع» دراسة اللغات المحلية ، الا ان «مقاومتها للضغوط الشديدة للغاية شيء رائع حقا» . وبالتالي ، حسب رأي بايبس ، ان بقيت اللغات القومية وتطورت كثيرا فليس السبب في ان السياسة المتبعة تساعد على مضاعفة وازدهار المدارس والجامعات التي تتم الدراسة فيها بهذه اللغات ، بل ان السبب الوحيد هو كونها «قاومت» الافعال الجارية على نطاق واسع بهدف جعلها تنقرض . وبما ان هؤلاء المؤلفين اصحاب المكانة المعترف بها يقتبسون الكلام من

احدهم الآخر بقدر كبير ، ويتبادلون عن طيب خاطر المديح حول اعمالهم بهذا المضمار ، فان القارىء القليل التجربة قد يصدق كل هذه التلفيقات التى لا تصمد لدى ابسط مقابلة بالحقائق التي تقول : ان اللغة الروسية لا تفرض فى اى مكان فى الاتحاد السوفييتى كلغة الزامية . بل الامر بالعكس فان الدستور السوفييتى (المادة ١٧١ منه) ينص على وجوب اجراء المعاملات القضائية في الجمهورية الاتحادية او الجمهورية ذات الحكم الذاتى ، والمقاطعة الذاتية الحكم ، والدائرة الذاتية الحكم بلغاتها او بلغة اكثرية السكان القاطنين هناك . كما يعرف ايضا ان الدراسة في كل واحدة من الجمهوريات المتعددة القوميات لا تجرى بلغة الاكثرية فقط بل وبلغات الاقليات القومية الكثيرة ايضا . ولو كان المراد القضاء على اللغات والثقافات القومية ، بروسنة الشعوب الاخرى فلم عمد اللغويون والمختصون بعلم دراسات الاقوام وغيرهم من العلماء الى اجهاد انفسهم الى هذا الحد فى سبيل استحداث ٤٨ نمطا من الكتابة ، للغات القومية والمجموعات الاثنية التى لم تكن لديها ابجدية خاصة بها ؟ وما برح هذا الشاغل قائما حتى الآن : فمثلا ، لم توجد حتى الاعوام الاخيرة ابجدية لدى اليوكاغيريين – وهم شعب صغير في جمهورية ياقوتيا ذات الحكم الذاتى ، ولا مراء فى ان صلات القرابة البعيدة تربطه بالقبائل التى ظهرت منذ آلاف السنين في امريكا الشمالية (ويدل على هذا بعض التشابه بين لهجتهم ولهجات الهنود الحمر الامريكان) . وفى عام ١٩٨٠ صادقت حكومة ياقوتيا ، تلبية لطلبات اليوكاغيريين ، على مشروع الابجدية التى استحدثت لتلائم لغة الحديث لديهم . وعما قريب ستصدر كتب مدرسية باللغة الام لليوكاغيريين . ولم يكن فى هذا اى شيء يبعث على العجب لو لم نعلم بانه رغم كون عدد اليوكاغيريين ٦٠٠ نسمة فقط ، فيوجد بينهم مدرسون واطباء وباحثون وطيارون ، وكذلك الكاتب المعروف فى الاتحاد السوفييتى سيميون كوريلوف . ولن نجد مثالا افضل من هذا : فما ابسط الاجابة بالسخرية او باللامبالاة على طلب بضع مئات من الرجال والنساء ، وروسنتهم ، دون السؤال عما يفكرون به . ومن اليسير على السوفييتيين توجيه سؤال مقابل الى اللائمين والعيابين الامريكان وغيرهم هو : ما الامكانيات التى وفرتها سلطات

الولايات المتحدة الى قبائل الهنود الحمر من اجل صيانة ثقافتهم ؟ وهل حصلت اية قبيلة منها ولو على اية مساعدة من اجل استحداث ابجدية خاصة بها ، من اجل تعليم اطفالها لغتهم وثقافتهم ؟ ان الخيار الوحيد الذى قدم الى احفاد الساكنين الاوائل لامريكا الشمالية هو اما الضنى فى المحاجر ، واما محاولة الاندغام مع المجتمع الانجلوسكسونى ، حيث يتوجب عليهم بين امور اخرى نبذ تقاليدهم ولغتهم و«عزتهم القومية» .

فى العهد القيصرى كانت المطبوعات تصدر ، باستثناء الروسية ، بـ١٤ لغة وبنسخ ضئيلة تتفق مع نسبة الذين يحسنون القراءة والكتابة . ولعل مثال داغستان ، بلا ريب ، يشكل اعجب مظهر لكل ما انجز فى سبيل اتاحة الفرصة لكل شعب مهما كان صغيرا لكى يحقق الازدهار . ويقول اهل داغستان فى تفسير السبب فى ان الحديث يجرى فى وديانها ، حيث يقطن اكثر من مليون ونصف مليون نسمة ، بما يربو على ٣٠ لغة ولهجة ، ان الخالق حين وزع اللغات فى الارض فاجأته فى بلادهم عاصفة ثلجية هوجاء ، فنثر هناك كل ما فى جرابه من لهجات . وتبقى من هذا المنّ النازل من السماء ٨ لغات مختلفة تستخدم فى الصحافة ، و٧ لغات تستخدم على شتى خشبات المسارح و٩ لغات تستخدم فى نشر الكتب . ومن اكثرها شيوعا اللغة الافارية (يتحدث بها حوالى ٣٥٠ الف رجل وامرأة) ، لكن الشعراء ينظمون ايضا بلغة التات (يتحدث بها حوالى ١١ الف شخص) وباللغات الاخرى التى تتحدث بها المجموعات الاثنية الكثيرة هناك .

ولا مراء فى ان هذا الاحترام الى «اللغات الصغيرة» ، وهذا الامتناع عن ممارسة التسلط ازاء المشاعر القومية ، المتمثل بالتمسك باللهجات المحلية ، يتجليان على الاخص حيال اللغات التى يتحدث بها الملايين كما فى جمهوريات آسيا الوسطى مثلا .

وقد اشار الكاتب الاوزبكى كامل ياشين قائلا «بينما يعلن منتقدونا غير الكفوئين «حتمية زوال» لغات جمهورياتنا بآسيا الوسطى ، ازداد عدد نسخ الكتب المنشورة باللغة الاوزبكية خلال ثلاثة عشر عاما (١٩٦٧ – ١٩٨٠) من ١٨,٦ مليون نسخة الى ٢٥ مليونا ، والمجلات – من ٢٢ الى ١٠٤ ملايين نسخة ، والجرائد من ٢٧٠

الى ٦٨١ مليونا . وانا اسأل من اجل مَنْ زيد عدد النسخ هذا ؟ ويتساءل المرء من اجل منْ تقوم الاستوديوهات السينمائية فى جمهورياتنا بترجمة خيرة اعمال السينما السوفييتية والعالمية الى لغاتها ؟» .

اذن ، لم يتم القضاء على الثقافات القومية ، ولم تجعل فى وضع الفولكلور . بل بالعكس ، فان اى مراقب طيب النية سيشير الى انها تطورت تطورا عاصفا . ولبعدها عما يعزلها وراء حاجز من الاسلاك الشائكة عن كل تأثير خارجى ، فانها تقبلت عن طيب خاطر ما يمكن ان تجلبه لها الثقافة الروسية وعن طريقها — الثقافة العالمية ايضا . ولهذا بالذات تطورت ، الى جانب الانواع الفنية التقليدية كالشعر والموسيقى وعروض الفولكلور ، التى تجسد الاساطير القديمة جدا على خشبة المسرح ، الرواية والمسرح والاوبرا والموسيقى السيمفونية الحديثة ، التى يقوم بتأليفها اليوم مؤلفون من ابناء القوميات . ولم تكن توجد فى آسيا الوسطى سابقا مثل هذه الاشكال فى الفن . فما هو ذلك — هل هى معايب الروسنة ؟ ويعنى التفكير بهذه الصورة تناسى ان روسيا نفسها قد اقتبستها من الغرب الاوربى ، وحين استعار الفرنسيون الاوبرا والباليه من الايطاليين (فى القرنين السادس عشر والسابع عشر) ، كما استعاروا من قبل اساليب العمارة الايطالية ، لم تفقد ثقافتهم اصالتها لهذا السبب . وكتب الكاتب القيرغيزى المعروف فى العالم اجمع جنكيز أيتماتوف فى مقالة بعنوان «معجزة لغة وطنى» نشرت على صفحات مجلة «كوريير اليونسكو» يقول : «ان الخصوصية القومية ليست فقط مجمل السمات القومية التى يرجعها عهدها الى القرون الغابرة . فمفهوم القومى يتضمن ليس ما صمد واختبره الزمن فقط ، وليس خبرة الماضى المختزنة فقط ، بل ما هو جديد ، الذى تمخض عنه الواقع المعاصر» * .

ومن سمات هذا الواقع ، الى جانب التعليم وتوطد الامم الجديدة ، تقاربها الذى يرافقه التطور الواسع للعلاقات والتأثيرات المتبادلة .

---

* كوريير اليونسكو ، اغسطس ١٩٨٢ .

واليوم لا يمكن ان تحيا ثقافة اى شعب أن حجر عليها تحت الزجاج مثل المواد المتحفية . وتابع ايتماتوف يقول : «ان الانغلاق على الذات بلا تفاعل مع الثقافات الاخرى ، وبصورة خاصة الاكثر تطورا ، يعنى الحرمان من مصدر التطور الذاتى . وحين تصبح «الاصالة» هدفا بحد ذاته تقود الى التقوقع والعزلة وضيق الافق القومى . . .» * .

والفكرة الشائعة فى الاتحاد السوفييتى منذ عهد لينين تنص على ما يلى : لا يمكن ان يدرج ما هو «قومى» فى الامم الاخرى دائما باعتباره قوة عدائية . ولا يعنى اغناء وتعميق ما هو «قومى» وجوب اغلاق الابواب بوجه الثقافات الاخرى . ولا يتضمن جوهر مفهوم «القومى» بحد ذاته اى شىء ابدى : اذ ان مفهوم «القومى» قد تغير كثيرا منذ ايام الثورة ، حين كان يجسد قبل كل شىء عدم القبول بالاضطهاد والاستغلال الاستعماريين . ان المعارضة الشاملة للقيصرية — فى الطموح العادل الى الدفاع عن الانتماء القومى للشعب — قد تضمنت ما هو افضل وما هو اسوأ : اى كل العناصر المحافظة للسيكولوجيات والثقافات ، اما حيال «الغير» فكل مظاهر الريبة التى يولدها المجتمع الطبقى . ان رسم الحدود بين الجمهوريات وتكوين اجهزة الدولة المستقلة ذاتيا فيها ، وتطور اللغات القومية ، ونشر التعليم العام ، وتأسيس الصناعة والزراعة الاشتراكيتين مع كل ما احدثتاه من تغييرات فى البنى الاجتماعية ، قد ساعدت على تحطيم الحواجز القديمة وعلى اجراء تحول عميق فى التفكير . وظهر لاول مرة الوعى الوطنى — حيثما لم يكن له وجود — الذى علا على التقسيمات والانتماءات القائمة على اساس قبلى وعائلى او دينى سابقا . وقد اورد الباحثان الفرنسيان الكسندر بينيغسين وشانتال كيلكيجيه فى نص كتب فى عام ١٩٦٠ — اى فى ذلك الوقت حين كان المختصون فى الدراسات السوفييتية يراعون الانفراج ويبدون شيئا من التهذيب فى اقوالهم — السطور التالية التى تختلف كثيرا فى لهجتها عن تلك التى نجدها اليوم بتوقيع الكاتبين المذكورين وفى الموضوع ذاته على صفحات جريدة «فيغارو» : «لقد وضع النظام السوفييتى حدا للعداء والتناحر

* كورييه اليونسكو ، اغسطس ١٩٨٢ .

القوميين اللذين وجدا سابقا . واتاحت مكافحة بعض التقاليد والعادات التى اعتبرت رجعية ، مثل حظر تعدد الزوجات ، واقامة اتصالات بين الشعوب التى كانت غريبة عن بعضها البعض سابقا . واخيرا فان اقامة منظومة موحدة للتعليم قد ازالت نهائيا الخصائص العائلية والقبلية وادت سوية مع ظهور شريحة كبيرة من المثقين المحليين الى انبثاق المشاعر القومية التى كانت سابقا فى الحالة الجنينية» * .

وبالتالى ، حين اضطر «خبراؤنا» الى الاعتراف بان الاتحاد السوفييتى حقق الهدف الذى كان قد طرحه لينين – اى تكوين امم عصرية من المجموعات الاثنية والقبائل المشتتة ، المسحوقة تحت وطأة الاضطهاد الاقطاعى والاستعمارى خلال عقود كثيرة من السنين ، اخذوا يفترضون بان بوسع هذه الامم ، حين غدت «فى سن البلوغ وواعية» ، ان تصبو فقط الى تجاوز المرحلة الاخيرة : اى قطع الصلات التى تربطها بالاتحاد السوفييتى . وهذا يعنى مرة اخرى ان هؤلاء الخبراء لم يفقهوا شيئا فى طبيعة العلاقات القائمة منذ ايام الثورة بين شعوب الجمهوريات الاتحادية . ولم يعد المقصود بالامر العلاقات بين الدولة المستعمِرة والمستعمرات حين كانت الاخيرة مرغمة على الخضوع لاية قوة ، سواء سياسية ام عسكرية ام اقتصادية ، لدى الدولة الامبراطورية ، بل اقامة اتحاد ينفع كل امة على حدة والجميع معا . واستحدثت مجموعة لا تشكل خليطا من البلدان المتباينة النامية فى آن واحد ، بل مجمع من الامم والجماعات الاثنية يحاور بعضها البعض ، وتقدم وتتلقى المساعدة ، وتسهم بثرواتها الاقتصادية والثقافية فى الرصيد العام وتغرف منه . وبهذا ولد مع مرور الوقت الوعى بالتشكيلة الجديدة ، الذى لا يقضى عليه الوعى القومى المميز لكل مواطن ولا يمحيه ، بل يرتقى الى مستوى ارفع . فقالت لى احدى طالبات جامعة سمرقند : «حين أُسأل عن قوميتى فى داخل الاتحاد السوفييتى اجيب باننى اوزبكية ، ولكن حين اسافر الى خارج البلاد اقول اننى سوفييتية» .

---

* بينيغسين ، كيلكيجيه . «المشكلات اللغوية وتطور القوميات الاسلامية فى الاتحاد السوفييتى» فى «كراريس العالم الروسى والسوفييتى» ، باريس . ابريل – يونيو ١٩٦٠ ، ص ٤٦١ .

وبالرغم من ان اللغة الروسية ليست العامل الوحيد فى انبثاق هذا الوعى «القومى» الا انها ساعدت على نشره على نطاق واسع . ان الحياة «المتعددة القوميات» للسوفييتيين ، وصلاتهم التى تـزداد وثوقا فى كافة ارجاء الاتحاد السوفييتى جعلت من هذا الوعى اداة ضرورية تقريبا فى الاختلاط . واليوم لا يوجد صقع فى الاتحـاد السوفييتى يعيش فيه فقط ابناء شعب واحد ويتحدثون بلغة واحدة فقط . ولا توجد منشأة واحدة او مختبر واحد او جامعة واحدة لا يلتقى فيها يوميا ابناء عشرات القوميات المتباينة . ويتيح استخدام اللغة الروسية لهم العيش لا كما فى «برج بابل» بل الاختلاط والعمل سوية . اذن ليس ثمة اى عجب فى ان معرفة اللغة الروسية باعتبارها اللغة الثانية قد تطورت بصورة موازية فى التصنيع وفى التعامل مع الثقافة المشتركة . وفى عام ١٩٧٠ اعلن ٤١,٨ مليون شخص من مجموع ١١٢,٧ مليون نسمة من غير الروس ، اى نسبة ٣٧ بالمائة ، انهم يتقنون هذه اللغة . وفى عام ١٩٧٩ ازداد عددهـم الى ٦٢ بالمائة : فمن مجموع ١٢٤,٨ مليون نسمة من غير الروس وصف ٧٧,٦ مليون نسمة اللغة الروسية بانها اللغة الام الثانية ، ومعنى هذا انهم يتقنونها خير اتقان . واعتمادا على نتائج تعداد النفوس لعام ١٩٧٩ ذاته كان يتحدث باللغة الروسية من مجمـوع ٢٦٢ مليون نسمة يمثلون سكان الاتحاد السوفييتى يومـذاك ٢١٤,٨ مليون نسمة – من الروس وغير الروس . ويكمن فى هذا المعجل القوى للتقارب بين الامم .

وحين درس ادوارد اولورس الاستاذ فى جامعة كولومبيـا الامريكية السياسة القومية السوفييتية خلص الى استنتاج مـؤداه انها تستهدف «تدمير الثقافات القومية وجعل الامة كتلة متماثلة» . ويجرى ابراز هذه الفكرة كثيرا وتلقى رواجا كبيرا فى الغـرب . وبخلاف هذه «التنبؤات» فان توسيع الميدان اللغوى للغة الروسية لم يؤد الى تضييق نطاق استخدام اللغات القومية بله زوالها . ولا يتحسس بهذا التوسع ابدا بصفته منافسة . وشرح لى الاستـاذ الاوزبكى حبيب طورسونوف فى محادثة معه بطشقند قائلا : «لا توجد اية علائم مرئية تدل على اضمحلال لغتنا او اللغات العظيمـة الاخرى بآسيا الوسطى. بل بالعكس ، ففيما يتعلق الامر بنا قمنـا

بتطوير معارفنا في اللغة الاوزبكية ، واستخدامها في كافة ميادين الحضارة ، كما لم نفعل هذا من قبل ابدا في تاريخنا كله . وفي الوقت نفسه نحن ندرس ونعرف اللغة الروسية بشكل افضل . وبفضل اللغة الروسية استطعت التعرف عن قرب اكثر على الثقافة الروسية البالغة الثراء ، وبالاضافة الى هذا تعرفت على التراث الثقافي للشعوب الالماني والانكليزي والفرنسي والايطالي ، ودرست اعمال فولتير وشكسبير ودانتي وغوته . انها ترجمت اليوم الى لغتنا ، لكنني لو كنت اعرف اللغة الاوزبكية فقط لما استطعت الاطلاع باستمرار على ما يجري في العلم والثقافة العالميين . وفي داخل الاتحاد السوفييتي تساعدنا اللغة الروسية على اقامة الصلات مع جميع ساكني البلاد ، مهما كانت قومياتهم . وبفضل اللغة الروسية تمكنت من مطالعة كل ما يجري اصداره في الاتحاد السوفييتي ، لان غالبية المؤلفات تترجم الى هذه اللغة . فهل هذه روسنة ؟ تستخدم مؤسسات الدولة ومراكز اصدار القرارات في الهند اللغة الانكليزية ، كما وتستخدمها قوميات البلاد الكثيرة في مخاطبة احداها الآخرى . لكنني لم اسمع ابدا من يتحدث عن «انكلزة» الشعب الهندي . والحديث عن الروسنة عندنا – عبث وكذب . انا اوزبكي واولادي اوزبكيون ايضا ، ونحن نفتخر بهذا كما وتسعدنا معرفتنا باللغة الروسية . وفي المدارس الروسية باوزبكستان يتعلم الاطفال الروس اللغة الاوزبكية ، وفي المدارس الاوزبكية يتعلم الاطفال الاوزبكيون اللغة الروسية . زد على ذلك اننا اميون ولا نرى فائدة في اقامة الحواجز بين الناس والابقاء عليها . بل الامر بالعكس ، فغايتنا المساعدة على التقارب بينهم ، وممارستنا تمضي في هذا المنحى . والكوادر الروسية هنا ؟ ان وجودهم شيء طبيعي ، – من نواب الوزراء والمهندسين ذوي التأهيل العالي وآلاف العمال والكولخوزيين . انهم يعملون مع الآخرين على قدم المساواة ولا يتمتعون باية امتيازات خاصة . والجدير بالذكر ان الكثيرين منهم ولدوا هنا في عوائل استقر بها المقام في اوزبكستان خلال بضعة اجيال قبل هذا ، والكثيرون يتحدثون باللغة الاوزبكية . فما الحاجة الى ابعادهم عن مجتمعنا ، ان كانوا يعملون لخيره ولمواصلة مسيرته

الى الامام ؟ وانا لم يحدث لى ان سمعت اوزبكيا يقول للروسي «عد الى بلدك !» .

وتصدر الكتب فى الاتحـــاد السوفييتى بـ٨٩ لغة . وبوسع الطاجيكى او القيرغيزى ان يطالع عن طريق اللغة الروسية بها او بالترجمة الى لغتيهما ما يكتبه المـــؤلف الياقوتى واللاتفـــى او الاوكرانى . وعلى سبيل المثال ان اعمال الشاعر الداغستانى رسول حمزاتوف شائعة فى الاتحاد السوفييتى كله ، بالرغم من انه ينظم باللغة الافارية فقط . ويقرأ تراجم كتب يورى ريتخو من قومية التشوكتشا مئات آلاف القراء ، بالرغم من ان تعداد نفوس شعبه لا يتجاوز ١١ الف نسمة . وكتب جنكيز أيتماتوف يقول : «لقد غدت اللغة الروسية اللغة — الجسر الذى ربط لاول مرة فى التاريـــخ الضفاف الادبية لمختلف الشعوب ، حتى التى لم تكن تعرف سابقا بوجود احدها الآخر ، والتى تفصل ما بينها مراتب حضارية مختلفة ، وخبرة ثقافية واجتماعية متباينة ، وعادات وتقاليد مختلفة ، وغير القادرة على فهم لغة احدها الاخر . لقـــد اصبحت اللغة الروسية فى دولة متعددة القوميات كالاتحاد السوفييتى لغة التخاطب بيـــن جميع القوميات ،ولغة «الحضارة الجديدة» والتعاون الثقافى» • .

وبفضل وساطة اللغة الروسية بالذات استطاع هؤلاء الكتّاب كسب الشهرة خارج الحدود السوفييتية . فهل كان بالمستطاع فى فرنسا مثلا ترجمة ومطالعة جنكيز أيتماتوف نفسه ، والذى يؤلف بلغته الام وكذلك باللغة الروسية ، والذى صدر كتابه «يوم اطول من مائة عام» فى الاتحاد السوفييتى بخمسة ملايين نسخة ، لو كانت مؤلفاته متيسرة للقراءة بالنسبة لمن يجيد اللغة القيرغيزية فقط ؟ ان أيتماتوف لا يرى فى هذا اية علائم للروسنة بـــــل العكس بالعكس ، فقد كتب يقول : «تصدر مؤلفاتنا اليوم عبر اللغـــــة الروسية بلغات كثيرة فى العالم . وانا اعتقد ان اللغة الروسيـــة تعزز بهذه الصورة مواقع لغتى الام ، وتساعد على تكريسها وتدل على امكانياتها الكامنة . وانا اقول هذا لغرض تبادل الخبرة بيننا : اذ

• كوريير اليونسكو ، يوليو ١٩٨٢ .

تظهر الاخيرة ان اللغات العظيمة لا يشترط ان تكون متناحرة مع اللغات الصغيرة والتعايش والتعاون بينها شيء ممكن تماما» * .

ونذكر من بين اللغات التى ضاق استخدامها لاسباب خاصة لغة الايديش ولغة الغجر . وكانتا تستخدمان سابقا من قبل فئات منغلقة جدا من السكان . وكان يعزى هذا «الانغلاق» الى التمييز العنصرى والملاحقات ، التى وقع ضحايا لها اليهود والغجر فى عهد القيصرية . وغالبا ما كانت الايديش تشكل اللغة الوحيدة لليهود القاطنين فى المدن الصغيرة باوكرانيا وبيلوروسيا وروسيا ، وغالبا ما كانوا يمثلون الاغلبية فيها . وفى الفترة بين لعشرينيات والثلاثينيات اضمحلت هذه الفئات وصار اليهود يهاجرون الى المقاطعات والمدن ، التى حظر عليهم السكن فيها قبل الثورة ، وسرعان ما اختلطوا بالسكان من غير اليهود . وبنتيجة ذلك تخلى عدد كبير من العوائل اليهودية عن استعمال لغة الايديش وصار افرادها يتكلمون بلغة الاكثرية من اهالى المنطقة . ولئن كانت نسبة ٧٠ بالمائة من اليهود فى عام ١٩٢٦ يعتبرون الايديش لغتهم الام ، فان هذه النسبة بلغت فى عام ١٩٥٩ فقط ٢٥ بالمائة . واخذ هذا الرقم يتضاءل باستمرار وفى السنوات اللاحقة ، وهذا شيء لا يميز الاتحاد السوفييتى فقط ، بدأ مجال استخدام لغة الايديش يقل بسرعة جدا فى البلدان الغربية ايضا . فان افراد الاجيال الفتية من اليهود الامريكان كفّوا عن التكلم بها او صاروا يتحدثون بها اقل فاقل ، كما هى الحال ، بالمناسبة ، بالنسبة لاقرانهم فى فرنسا وبريطانيا . انه لامر غريب جدا ان نجد فى هذه البلدان الافراد الذين لا يعارضون البتة مثل هذا التكامل الثقافى وحتى يكيلون الثناء الى فضائله يعربون عن استنكارهم لحدوث الادغام اللغوى فى الاتحاد السوفييتى . ففى نيويورك المدينة التى يقطنها اكبر عدد من اليهود فى العالم (مليونان ، بينما يبلغ عددهم فى الاتحاد السوفييتى اجمع مليونا و٨١١ الف نسمة) ، يتلقى اقل من ٦ بالمائة من الاطفال ما يسمى «التعليم اليهودى» ،

---

* جنكيز ايتماتوف . «الانسان بين لغتين» ، «فرانس-يورس» ، باريس . مايو ١٩٨٠ .

الذى غالبا ما يقتصر على تعريفهم بالمذهب الموالى للصهيونية . وقد لاحظ الشاعر اليهودى الامريكى يعقوب غلاتشتين هذه المفارقة حين عقد بواشنطن «المؤتمر الخاص باليهود السوفييت» . فاشار بسخرية على صفحات مجلة «ايديشه كامبفر» الصادرة فى نيويورك الى ان الجميع فى هذا المؤتمر كانوا يصرخون بالانكليزية حول ضرورة وجود لغة الايديش . . . فى روسيا .

ماركس ومحمد

«بسم الله الرحمن الرحيم» . ترد هذه العبارة الاسلامية التقليدية بصورة بارزة على الصفحة الاولى لكتاب سماحة المفتى ضياء الدين خان بن ايشان باباخان الصادر باللغتين الانكليزية والعربية بعنوان «الاسلام والمسلمون فى بلاد السوفييتات» . وكان مؤلفه ، المرحوم الآن ، يتولى رئاسة الادارة الدينية لمسلمى آسيا الوسطى وكازاخستان . وكان المفتى فى رحلاته الكثيرة (كان عضوا فى مجلس المساجد الاعلى الذى مقره فى مكة المكرمة ، وشارك فى الكثير من المؤتمرات الاسلامية الدولية) يشير ويتحدث عن هذا فى كتابه ، وعن كيف لا يعرفون فى الخارج الا القليل جدا عن حياة ووضع المسلمين السوفييت فى واقع الامر . وليس لعدم رغبتهم فى ذلك . بل المسألة ، كما اشار المفتى الى هذا ، هى ان الكثيرين فى الخارج يهمهم تصوير وضع الاسلام فى الاتحاد السوفييتى بصورة زائفة . وقال لى ابان لقائنا بطشقند فى عام ١٩٨٢ : «يجهد البعض انفسهم دون ان يبخلوا بقواهم واموالهم فى سبيل ترويج شتى اصناف الخيالات والاكاذيب بصدد الاسلام فى الاتحاد السوفييتى سعيا الى اثبات ان الدين الاسلامى والمسلمين هم ضحايا المضايقات واعمال القمع المستمرة . ويزعمون ان المساجد مغلقة ، ولا وجود للمدارس الدينية ، بينما لا يستطيع المسلمون الالتحاق بالمعاهد العالية ، وغيرها من المزاعم بالروح نفسها . . .» .

واورد شهادة اخرى الحاج تيميرباى اورنبايف امام احد مساجد فرونزه (قيرغيزيا) . وقد درس فترة خمسة اعوام فى جامعة الازهر

القاهرية فقال : «كان يدرس هناك طلاب من كافة الانحاء تقريبا ، وحتى من اليابـان . وصار بعضهم يتحدث الينا ، نحن الطـــلاب من الاتحاد السوفييتي ، عن امور عجيبة : «لا توجد عند كم مساجد . الشيوعيون يمنعونكم من اداء فريضة الصلاة !» . ومرة وجـه لى احد المدرسين فى اثناء المحاضرة امام جميع الطلاب الحاضريـــن العبارة التالية : «اظن ان عقد القران الشرعى محظور عندكـــم ، اليس كذلك ؟» . واصغى الى اجابتى بشىء من عدم التصديق . اما الناس البسطاء - وهم يعملون فى بلدهـم احيانا بمعدل ١٥ ساعة فى اليوم لقاء ٢٠ قرشا - فكانوا يصغون باهتمـــــام الى احاديثنا لهم عن حياتنا . وحينما كنا نقول لهم ان بوسع كـــل انسان عندنا الايمان بدينه بدون اية عقبات ، وان البطالة معدومة منذ امد بعيد ، ونحن لا نعـــرف الجوع ، واطفالنـــا يرتادون المدارس ، وبوسع المسلمين المشاركة مع الآخرين وعـلى قدم المساواة مشاركة فعالة فى ادارة الجمهورية ، وان عدد المهندسين والاطباء والمدرسين فى آسيا الوسطى السوفييتية اكثر من عددهم فى الغرب ، كانوا يتطلعون الينا غير مصدقين . وكانوا يصغون الينا بانتباه ايضا حينما كنـــا نقول لهم ان الاسلام الحنيف يدعو الى المساواة والعدالة الاجتماعية ، والعمل لخير الانسان وسعادة الانسان . واننا نفهم الاسلام على هذه الصورة وبالتالى يطبـــق عندنا بشكل ادق مما فى الاوساط الفاسدة فى بعض الاقطـــار العربية ، لان الاخلاق لديهم تتجسد فـــى شعار «بخشيشـــ - حشيش ومافيش» ، ومعنـــاه ان الشيء الاساسى هو البخشيش والحشيش اما ما عدا ذلك فلا يهمهم !» .

وهكذا فلا يشعر المسلمون السوفييت بالمضايقـــات ولا بالاذلال ولا بـ«النسيان» ولا بكونهم «مسلمين بدرجة اقل» مـــن الآخرين . وكتب ضياء الدين خان بن ايشان باباخان فى كتابـه «الاسلام والمسلمون فى بلاد السوفييتات» يقول : «ان نقطـــة الانطلاق فى تعاليم الاسلام حول المجتمع هى ان جميع النـاســ مخلوقات الله وهم اعزاء ومقربون لديه بقدر سواء . وهو يسبغ رحمته على الجميع بغض النظر عن قوميتهم ولون بشرتهم . لهـذا السبب فان المجتمع المنقسم الى مظلومين وظالمين والى اغنيـــاء

بصورة فاحشة والى من لايجد لقمة العيش ويتضور جوعا – ان مثل هذا المجتمع يتجافى مع النظام الاجتماعى الاسلامى . ولا مكان لصراغ الطبقات فى المثل العليا الاجتماعية للاسلام . لذلك فان الاسلام – شأنه شان ما تقضى به تعاليم الاشتراكية – يدعو الى محو كل نظام للاكراه والاضطهاد ويصبو الى ضمان المساواة الاجتماعية الكاملة لمخلوقات الرب ، الذين ولدوا جميعا بلا استثناء وهم يتمتعون بحق العيش فى هذه الدنيا منعمين وسعداء . . . والاسلام لا يعترف بمصدر لكسب الملكية الفردية غير عمل كل فرد . وهو يحرم الاثراء على حساب عمل الغير . وهذا التحريم يشكل حدا قاطعا فى الدين الاسلامي . . .» .

فهل ثمة حاجة للقول بان مثل هذا التأويل للقرآن لا يرضى الاقطاعيين واصحاب البنوك وارباب العمل «الاسلاميين» المرتبطين بالبيزنيس النفطى وبالرأسمال الاجنبى ، والذين يروق لهم تماما النظام القائم فى بلدانهم . زد على ذلك انهم يعلنون ان هذا النظام يرضاه الله ايضا ، ومعنى ذلك فان محاولة تغييره ضرب من الاثم . ولا يتبقى للفقراء سوى القبول خاضعين بمذلة بارادة الله هذه وذاك المصير الذى رسمه لهم . ما العمل – الا تتضمن كلمة «الاسلام» فكرة الخنوع نفسها ؟

وقد تناول ضياء الدين خان بن ايشان باباخان اقوال الفيلسوف العربى عبد الرحمن الكواكبى (تلميذ المصلحي جمال الدين الافغانى ومحمد عبده) ، الذى وصف فى كتابه «طبيعة الاستبداد وحتمية زوال الاستعباد» المجتمع المثالى القائم على احكام القرآن والسنة ، ثم مضى ابعد من ذلك : «لو راقبنا الواقع القائم فى بلادنا ، وقارناه بمبادئ المجتمع الذى كان يحلم به الكواكبى ، لتبين ان الكثير من الرغبات التى صاغها المفكر الاسلامى العظيم معترف بها عندنا بل ووضعت فى حيز التطبيق . وهذا يمس ليس فقط تطور الاقتصاد والثقافة وتيسير التعليم الابتدائى للجميع ، وضمان المساواة بين المواطنين كافة ، بل وكذلك يمس قضايا تشكيل هيئات الدولة القيادية فى الاتحاد السوفييتى ، التى تمثل فيها جميع القوميات وجميع الاوساط الاجتماعية . كما ويمس هذا توزيع الخيرات المادية والثقافية بين

شتى الفئات الاجتماعية والامم والطوائف الدينية . بعبارة اخرى يتعين علينا القول بان الكثير من المبادئ الانسانية التى اعلنها الاسلام قد تحقق فى المجتمع الاشتراكى السوفييتى» .

وفى المؤتمر الاسلامى الذى عقد بطشقند فى عام ١٩٧٠ بموضوع «الوحدة والتعاون بين الشعوب الاسلامية فى النضال من اجل السلام» تمت صياغة افكار اكثر دقة : «ان القادة السوفييت الذين لا يؤمنون بالله وبالانبياء يطبقون مع هذا القوانين التى تتفق مع ارادة الله وتعاليم نبيه» . وهذه الاستنتاجات التى تتعارض مع الافكار الشائعة والمستخدمة على نطاق واسع حول العداء الابدى والراسخ بين الشيوعية والاسلام تطرح امام المختصين بالدراسات السوفييتية مهمة عسيرة . فكيف يفسر واقع ان قادة طوائف المواطنين المؤمنين السوفييت خلافا للافكار الشائعة لا يجأرون بالشكوى من وجود اية تحريمات ومضايقات فحسب ، بل حتى يحيّون افضال المجتمع السوفييتى ؟ وجواب «الخبراء» الغربيين على هذا السؤال لا يتسم بالذكاء اذ يقولون : ان رجال الافتاء وأئمة المساجد فى آسيا الوسطى لا يدافعون عن اى رأى اسلامى ، بل فقط عن «المصالح السوفييتية» .

ان العشرات من ممثلى المحافل الاسلامية فى الاقطار العربية وبلدان آسيا وافريقيا ، الذين يزورون طشقند وألما-آتا ودوشانبه وغيرها من الاماكن بانتظام تلبية لدعوة اخوانهم فى العقيدة لا يشكون فى صدق الايمان العميق لمضيفيهم السوفييت ، وحتى ان كانوا لا يشاطرون معتقداتهم السياسية ، ولهذا فمعنى ذلك انهم كانوا فى غاية السذاجة حين اخفقوا فى رؤية ان الاسلام الذى يوصف فى الغرب «بالاسلام الرسمى» لا يعتبر صادقا . ويقدم لهم المختصون فى الدراسات السوفييتية شيئا آخر بدلا من هذا . وهو بالنسبة الى الكسندر بينيغسين الاسلام «الموازى» الذى يصفه بالاسلام «الاصولى الذى ينفر من الغرب ويعادى السوفييت والاشتراكية ويعادى الدولة السوفييتية اشد العداء» ، كما ويعادى «المسلمين الفاسدين» ووجود الكفرة فى الاراضى الاسلامية . وهذا الاسلام الذى يتصف ، كما نرى ، بالعديد من «الفضائل» الجلية للعيان ، التى يخلو منها الاسلام الآخر «الرسمى»

انما يمارس – ان صدقنا اقوال بينيغسين ، من قبل الجماعات الصوفية السابقة . وهي حسب اقواله «منظمات جماهيرية سرية يبلغ تعداد افرادها مئات آلاف المؤمنين ، وبالاخص في القفقاس . ونظرا لما تتمتع به من روح انضباط عالية وتلاحم واخلاص للفكرة فيبدو ان هيئات البوليس لم تتمكن من التسلل الى صفوفها» * . ياله من اكتشاف ! اذن توجد منظمات سرية معادية للسوفييت قوامها مئات آلاف الاشخاص ، وتعمل بصورة سرية للغاية ، حتى ان هيئات الامن السوفييتية (التي يتحدثون في الغرب عن حذاقتها كثيرا جدا) غير قادرة على كشف امرها ، بينما استطاع المختص بالدراسات السوفييتية الذي يعمل في باريس (حينما يغيب عن شيكاغو) ان يكشفها ويدرسها باروع شكل . مرحى ، ايها السيد بينيغسين ! لكن اين الادلة على اكتشافاتك ؟ انها ، وياللاسف ، غير موجودة ولا يمكن ان توجد .

وتقدم إلين كارير دانكوس تفسيرا آخر . وبرأيها ان قبول المسلمين المتدينين بحياة الدولة السوفييتية والاشتراكية يخضع الى تكتيك اعده هؤلاء بامعان . وحسب اعتقادها انهم يصبون في الواقع الى «التوغل» داخل النظام والاستقرار فيه . وكتبت دانكوس في مؤلفها السالف الذكر تقول : «ونظرا لعدم رغبتهم البتة في الوقوف على التل نجدهم يكرسون انفسهم كطرف مشارك ويودون ممارسة «الانضمام» الى جميع المنظمات التي تشكل بنية المجتمع . لكن هذا «الانضمام» يرمي الى ان ترفد المنظمات الاجتماعية ليس بمواطنين عاديين بل بمسلمين ، وينضمون اليها بصفتهم هذه وبهذا يعملون من اجل مصلحة طائفتهم» . ولا تورد الكاتبة اى مصدر مكتوب واحد او اى دليل مهما صغر شأنه لاثبات اقوالها . بيد ان هذا لا يحول ، طبعا ، دون الزعم ان القادة السوفييت «قلقون» من تطور الاسلام بهذه الصورة ، والذي يشكل «خطرا فعليا على مستقبل المجتمع السوفييتي» . وهذه الملاحظة تتيح للقارئ هنا ايضا التفكير

---

* بينيغسين . «الاقليات الاسلامية في الاتحاد السوفييتي» . مجموعة «بروجيه» ، باريس ، ١٩٨٠ .

باحتمال وجود «اتجاه نحو الانفجار فى المستقبل» . اما فى الواقع فان مثل هذا الضرب من «التحليل» يتلاقى دون ذكر ذلك قولا مع الرغبات التى اعربت عنها صراحة ديانا سبيرمان الصحفية فى «ديلى تلغراف» التى ابدت ذات مرة دهشتها قائلة : كم سيكون جميلا لو ان «الصحوة الاسلامية» التى تشغل بال الغرب قد اصبحت سببا لمصاعب اكبر بالنسبة الى الاتحاد السوفييتى !» .

«الصحوة الاسلامية . . .» . ان هذا التعبير وكذلك الافكار التى ينطوى عليها قد غدا موضوعا شائعا بالنسبة لمشاهدى التلفزيون فى اوربا وامريكا . فقد شاهدوا على شاشات التلفزيون لديهم كوادر مكرسة لاحداث الشرق الاوسط : عشرات آلاف الرجال والنساء يلوحون باعلام خضراء فى ايديهم ، ويرددون الشعارات الاسلامية ويهتفون «الله اكبر» فى مسيراتهم كلها . وتمضى التعليقات الرسمية ، الا فيما ندر ، فى الاتجاه نفسه : ان هدفهم – الذى غالبا ما يتحقق – هو اقناع الرأى العام الغربى بان المقصود ظاهرة لا تخضع للتفسير الرشيد ، يحددها انعدام الوعى لدى الشعوب غير الناضجة التى ما انفكت خاضعة للاندفاعات الغيبية ، المنفلتة وغير القابلة للتحكم ، والتى ترفض منطق العالم المعاصر ، فى سبيل التشبث باحكام القرون الوسطى ، حيث لا تستطيع ولا ترغب في الخروج منها . ومثل هذا «الشرح» يحظى فى الغرب بلا صعوبة بالاعتراف الشامل – وهو ينسجم فعلا مع التفكير المعتاد ، الواقع تحت تأثير عقود من السنين من التشبع بلا وعى بالروح الامبراطورية ، التى كانت «تصفية الاستعمار» غير كافية لمحوها . وبقيت الفكرة ذاتها : ان المسلمين باقون على حالهم دائما ، سواء كانوا مسلحين بالسيوف والرماح والبنادق العتيقة ام كانوا مجهزين باحدث الاسلحة ، اى انهم من المتعصبين الخطرين الذين لا شفاء لهم . وبقصر الاضطرابات والثورات التى تهز اركان الشرق الاسلامي على الحركة ذات الطابع الدينى وحدها فان هذا التأويل ، البسيط والمغرى ، يتفادى الى جانب هذا طرح القضايا المتعلقة بالاسباب الاقتصادية والسياسية العميقة التى ولدت هذه الحركة ، وكذلك مسئولية الدول التى اضطهدت هذه المنطقة على

مدى فترة طويلة . اما فى الواقع فان الذى دفع ملايين الناس الى الانتفاضة ضد نظام الشاه واسقاطه لم تكن الهبة الجماعية الغامضة وغير القابلة للتفسير ولا رسالة هبطت من السماء حملهـا مبعوث للرب ، بل رغبتهم فى القضاء على حكم الطغيان البغيض الذى كان ينهب البلاد من اجل مصلحة الشركات الاجنبية وحفنـة من الافراد المحليين اصحاب الامتيازات ، وسعيهم الى التحرر من الوصايـة المذلة التى فرضتها الامبريالية الامريكية ومن النظام العميل . صفوة القول انه ليس الاسلام ، الذى «صحا» على حين غرة ، يثير عصيان الجماهيـر الشعبية . بـل بالعكس انها «صحوة» ملاييـن الناس المستغَلين والمضطهَدين ، وامتناعهـم عن مواصلـة الخنوع ، التى تفسر تلك الحركة الواسعة . ويجرى التعبير عـن احتجاج الشعب تحت الراية الوحيدة ، المعروفة لديه والقريبة الى نفسه والتى ترمز فى آن واحد الى انتمائه القومى والى املـه — الا وهى راية الاسلام . وثمة ظروف معينة مميزة لايران اكسبت هذا الجانب من الثورة طابعا خاصا . فان آخر شاه كان يكافح فعلا من اجل خيار الحياة «الحديث والعلماني» ، وضد مكانة رجال الدين الشيعة . وبسبب اعمال القمع الموجهة ضد النشطاء والوطنيين من الاحزاب السياسية ، التى تجرات على الانتفاضة ضد الدكتاتورية ، غدت المساجد بؤرة المعارضة الوحيدة المسموح بها بهذا القدر او ذاك . ويمكن ان ندرك من هذا لِمَ امكن لمن يسمون بآيات الله ان يبلغوا تلك المكانة الكبيرة ، ولِمَ اصبح الدين الملاذ الوحيد فى السراء والضراء ، بكل ما ينجم عن هذا من تناقضات : فمـن جانب هناك سعى الجماهير الشعبية العارم الى التقدم والاستقلال الوطنى الحق ، ومن جانب آخر — تمسك البرجوازية التى تـولت السلطة ، بالماضي ، وهى تهتم بترسيخ مواقعها عن طريق تحويل الثورة الشعبية لصالحها — وليكن ذلك حتى باكثر الوسائل دموية . ولهذا ثمة إيغال آخر فى التبسيط ، الذى يحـول دون ان يرى اصحابه واقع الصراع الطبقى الجارى فى البلاد ، بجعل «الاسلام وحده» ، مأخوذا بكل المعنى الضيق لهذه الكلمة ، المسئول عـن انفجارات التعصب ، التى تجلب الموت ، وعن معاداة الشيوعيـة بصورة همجية وعن رُهاب الاجانب القروسطى .

ان محاكم التفتيش كانت ايضا تمارس افعالها باسم الرب ، بيد ان التاريخ غني ايضا بامثلة الحركات الشعبية العظيمة التي ولدت ونمت تحت رعاية الدين . فتحت راية المسيح بالذات هب في فرنسا الفلاحون (وتطلق عليهم تسمية «جاك») فاضرموا النار في قلاع سادتهم متهمين اياهم بانتقاص القوانين الالهية حين كانوا يمارسون اعمال الظلم . وفي ايامنا يقف رجال الدين في امريكا اللاتينية باسم الدفاع عن الايمان الحق الى جانب الثائرين من عاطلين وفلاحين معدمين وهنود والذين يحاربون مرتزقة الملاكين الكبار وشركات «اليانكي» .

وفي فترة الحرب في الجزائر لجأ قادة جبهة التحرير الوطني ، رغم ان بعضهم كانوا من ذوي التفكير العلماني الشديد ، وبدون تردد الى الاستفادة من العامل القوي ، المتمثل بالاسلام ، بغية اكساب النضال التحرري نطاقا اكبر . كما ان اعداءهم لم يتوانوا ، طبعا ، عن اثارة ضجة حول ذلك ، سعيا الى تصوير الامر وكأن المقصود هو «التعصب الخطر» .

واليوم يشكل حوالي ٨٢٠ مليون مسلم الاغلبية المطلقة من سكان ٣٤ بلدا والاقلية الكبيرة في ١٤ بلدا آخر . لقد اوردنا ما يكفي لاظهار ان المعركة السياسية والايديولوجية الجارية باسم الاسلام وحوله تتسم باهمية عالمية . لكن الدول والاحزاب والحركات وبعض الشخصيات حين تعلن بالقدر نفسه عن انتمائها «الاسلامي» تتمسك في الواقع بآراء مختلفة وفي بعض الحالات يكون الخلاف بينها عسيرا على الحل . فما الجامع مثلا بين امراء العربية السعودية ، الحلفاء الاوفياء للامبريالية الامريكية الذين يمثل الدين بالنسبة اليهم حصنا يحميهم من سخط الجماهير ، وبين القادة المنحدرين من افقر الفئات الفلاحية مثل هواري بومدين الذي اراد ان يغدو الاسلام عامل تقدم ومساواة . فقال : «ان الصلات الروحية سواء الاسلامية او المسيحية ما كانت لتستطيع الصمود بوجه تحالف الفقر والجهل . واريد القول ان الاستماع الى التراتيل الدينية لن يساعد الشعب الجائع رغم احترامي للقرآن الذي كنت احفظه منذ سن العاشرة . ان الجائعين بحاجة الى الخبز ، والجهلاء بحاجة الى المعرفة ، والمرضى بحاجة

الى مستشفيات . . . ولا يريد الناس التوجه الى الجنـــة ببطون خاوية : والمسألة الرئيسية تكمن فى هذا بالذات . واذا مـــا استغل المسجد للدفاع عن الظلم والاستغلال والعبودية والاقطاع ، فعندئذ يكف عن كونه مسجدا للاسلام ، بل يصبح مسجدا يهدم الاسلام . . .» . ياترى بمَ كان يفكر اعضاء الوفد السعودى الذى حضر المؤتمر الاسلامى بلاهور فى فبراير عام ١٩٧٤ لدى سماع كلام القائد الجزائرى هذا ؟ وسرعان ما وجب عليهم حماية احد هذه المساجد من الثائرين . فقد حدث فـــى نوفمبر عـــام ١٩٧٩ ان شارك فى قمع الثائرين الذين استولوا على البيت الحـــرام بمكة فريق خاص من الدرك الوطنى الفرنسى وضع عن كرم تحت تصرف ملك العربية السعودية (بناء على طلبه) ، وسمح لافراده بالدخول الى الاماكن الحرم دخولها على غير المؤمنين ، وذلـــك بمناسبة «قضية مقدسة» . وظهر العالم الحر بشخص جيسكـــار ديستان مجددا جديرا بالصفة التى يعلنها فى احيان كثيرة كـ«صديق وحليف» للمسلمين . ولكن للمسلمين «الطيبين» فقط ، طبعا . اولئك الذين يحترمون مصالح الشركات فوق القومية ولهذا تطلق عليهم وسائل الاعلام لدينا تسمية «المعتدلين» .

بيد ان هذا الاعتدال لا يتجلى ابدا حين يكون المقصود شنق المعارضين ، وتقطيع اوصال المدانين فى قضايا جنائية ، ورجـم النساء بالحجارة لدى ضبطهن بممارسة الخيانة الزوجية . وبهذا المنطق ايضا ابدت الولايات المتحدة وحليفاتها التضامن مـــع البصمجية الافغانيين الذين ما انفكوا يطمعون «باسم الاسلام» فى اعادة النظام الاقطاعى البائد فى البلاد .

وبالتالى ، لا يمكن التحدث عن الاسلام وتراثه ككل موحـــد ، مغلق ، غير قابل للتغيير منذ ظهوره وباق دائما على حاله دوما مهما كانت الظروف الخارجية . ويجب ان ينظـــر الى «التراث الاسلامى» شأنه شأن اية ايديولوجية اخرى باعتباره واقعـــا تاريخيا ، وليس كنبع صاف خال من الشوائب ، ولا علاقة لـــه بالتاريخ . لكن البعض يحاول ان يفرض هذه الفكرة الاخيرة سواء داخل الاسلام ام خارجه . ويؤدى هذا الى وضعـه ، دون اجراء

اى تحليل له ، فى ميدان نزعة السكون (اللاحركية) ، بان ينسب اليه الوجود الازلى خارج اطر الجهود البشرية ، وخارج الزمان او المكان تاريخيا . كما يستغل المختصون فى الدراسات السوفييتية هذه الموضوعة حين يتحدثون عن الاسلام فى الاتحاد السوفييتى . فمثلا ، يزعم الكسندر بينيغسين انه بالرغم من الثورة وقيام النظام السوفييتى يبقى الاسلام دائما – جامدا فى رسوخه لكونه ابديا .

لقد حدثت تغيرات عظمى فى منطقة مترامية الاطراف مثل قارة ، فولدت لاول مرة فى العالم الجمهوريات الاشتراكية ، التى يديرها الاهالى المحليون على كافة الاصعدة : وتحرر ملايين الرجال والنساء من نير الاضطهاد والجهل والحياة التى تبعث على البلادة والانعزال فى القرى الضائعة وسط السهوب والصحارى . فاصبحوا عمالا وفنيين ومختصين فى جميع المجالات . ويحصل مئات الآلاف من ابنائهم واحفادهم على التعليم العالى . اما النساء ، امات الامس ، فيشاركن اليوم مشاركة تامة وبحرية فى كافة ميادين النشاط . وانبجست مدن ومؤسسات صناعية رائعة وسط الصحارى . بينما صارت تمضى فوق قبب ومنائر المساجد ، التى كانت تطاول فى علوها السماء حتى الامس القريب ، الاقمار الصناعية والسفن الفضائية «سويوز» وغيرها من الاجهزة الفضائية الاخرى فى رحلاتها الخيالية – فهل ابقى هذا كله الاسلام والبشر كما كانوا قبل عشرة قرون من الزمان ؟ وكيف يمكن ان يؤيد المرء مثل هذه الموضوعات مع الاحتفاظ بعقله سليما ؟

وقال باباخان مفتى طشقند الاكبر – وهو رجل يتمتع باكبر مكانة فى آسيا الوسطى – ، من جانبه ، ان التغيرات فى المجتمع احدثت ، بالعكس ، تغيرات عميقة فى افكار وسلوك المسلمين : «يعتقد البعض ان لا فرق بين المسلم الذى عاش منذ خمسمائة عام خلت او فى القرن الماضى ، وبين المسلم المعاصر . ليس الامر كذلك . لقد تغير المسلم كثيرا ، وتغير نحو الاحسن . وغيره العصر الذى اغنى وزاد من معارفه . . . وترك التقدم التكنيكى والعلمى بصماته على نمط حياته ، وعمله ، وتسليته واهتماماته . ويشغل بال مسلم اليوم كل ما يدور فى بلاده

وخارجها ، ويهتم بابحاث الفضاء وغير ذلك من المجالات باسم المستقبل القريب او الابعد لشعبه نفسه وللبشرية جمعاء . كما تغير موقفه من النساء . . . والفكرة القديمة التى غرسها اعداؤنا القائلة ان المسلم عاجز عن الاسهام برصيده فى العلم الحديث والتكنولوجيا والثقافة والانتاج قد دحضت باسطع شكل . واظهرت خبرة المسلمين فى الاتحاد السوفييتى وغيره من البلدان بكل جلاء ان بوسع المسلمين ومن واجبهم الوقوف فى طليعة التقدم العلمى والتكنيكى والاجتماعى والاقتصادى . . .» .

فعلا ، لقد ولت مع الزمن اللعنة التى انزلت فى آسيا الوسطى لدى رؤية الجرارات والقاطرات . ولئن تغير المسلم ، ولئن اصبح الاسلام واحكامه تجذب الناس اليه باسلوب يختلف عما فى الماضى ، فان هذا قد جرى بسبب تغير الظروف الاجتماعية نفسها . واين ذلك المفتى الذى يستطيع اليوم مخاطبة الكادحين السوفييت ، من المؤمنين او غيرهم ، بكلام الملالى الذين كانوا يبررون به فى ازمان الامراء والخانات استغلال الدهاقنة ويمجدون «الطابع الالهى» للسلطة الاقطاعية باسم القرآن ؟

ورجال الكنيسة الارثوذكسية الروسية التى كانت سابقا ركيزة الحكم الاستبدادى القيصرى ، صاروا فى ايامنا ايضا يدلون باقوال تدعم الاشتراكية والنظام السوفييتى ، وهم يفعلون هذا ليسوا مكرهين على «الانصياع للاوامر . . .» . انهم يستجيبون فقط الى التغيرات الطبيعية التى تضطر الايديولوجيات الدينية ، ان كانت لا تريد الانقراض ، الى التكيف الى الاوضاع والظروف الاجتماعية الجديدة . ويتمتع الدين الاسلامى بهذه القابلية على التكيف بقدر اكبر من اى دين آخر – اذ لا توجد فيه مقامات عليا رسمية معصومة من الذنوب ، ولا مراتب كنسية . علاوة على ذلك فمنذ فجر ثورة اكتوبر رحب بالثورة ووقف الى جانبها آلاف الملالى الذين كانوا ، بسبب ما يعانوه من املاق كالفلاحين ، يكدحون لكسب رزقهم ويقاسمون الجماهير الفلاحية فقرها وآمالها .

غير ان هذا لا يعنى ان العلاقات بين رجال الدين المسلمين والسلطة السوفييتية كانت خالية من الغيوم دائما . اذ اخذ يحكم البلاد الشيوعيون والملحدون . وهم يعتبرون الدين من رواسب

الازمنة الماضية ولا يخفون افكارهم المادية . لكنهم يصرون على ان الصراع الايديولوجى شيء ، وحق المواطنين فى اعتناق اى دين او عدم اعتناق اى دين ، كما يضمن ذلك الدستور السوفييتى - هو شيء آخر . وكانت الاخطاء والتعصب التى قادت الى اتخاذ قرارات ادارية بيرقراطية تعكر احيانا هذا التعايش ، سواء قبل الحرب العالمية الثانية ام بعدها ، بيد ان هذا العهد قد ولّى بعيدا مع الزمن . وذلك الى حد ان المختصين بالدراسات السوفييتية وجدوا انفسهم يناقضون حججهم انفسهم ويجبرون اليوم على الاعتراف ، ولو بشيء من التحفظ ، بان المؤمنين فى الاتحاد السوفييتى يستطيعون ممارسة شعائرهم بحرية وبدون اية قيود . فكتب الكسندر بينيغسين فى كتابه «المسلمون المنسيون» يقول : «نحن نعرف باعتماد على التقارير التى تنشرها الوفود الاجنبية ان الزيارات المنظمة الرسمية الى الاتحاد السوفييتى تترك لدى المسلمين الاجانب بالغ الانطباعات . ويبدو الاسلام السوفييتى حرا ، واذا حكمنا عليه وفقا لاقوال الممثلين الرسميين للادارات الدينية ، فهو مزدهر وسعيد . ويشار بصورة خاصة الى ان الحكومة السوفييتية تعامل رجال الدين المسلمين فى الاتحاد السوفييتى ، كما يبدو ، كانداد مكافئين لها» .

وتبنى العلاقات بين الدولة السوفييتية والمنظمات الاسلامية على اساس المبادئ التى يرجع عهدها الى ثورة اكتوبر وينص عليها فى الدستور السوفييتى الجديد . «تضمن لمواطنى الاتحاد السوفييتى حرية الضمير ، اى حرية اعتناق اى دين او عدم اعتناق اى دين ، وممارسة الشعائر الدينية او القيام بالدعاية الالحادية . وتحرم اثاره العداوة والبغضاء على اساس العقائد الدينية . والدين فى الاتحاد السوفييتى منفصل عن الدولة والمدرسة - عن الدين» (المادة ٥٢ من دستور عام ١٩٧٧) . وبخلاف ذلك ينص القانون الجنائى على انزال العقاب بمن يحاول تقييد حقوق المؤمنين .

ويتبين من احصاء النفوس لعام ١٩٧٩ ان عدد المواطنين السوفييت المنتمين الى المجموعات الاثنية - اللغوية الاتراكية

والايرانية والقفقاسية ، الذين يعتنقون الاسلام عادة ، يبلغ قرابة ٤٤ من مجموع ٢٦٢ مليون نسمة يقطنون في الاتحاد السوفييتي . واتفق المختصون بالدراسات السوفييتية ، بتبسيط الوضع للغاية (لغرض مقصود بجلاء) ، على وصفهم بـ«الشعوب الاسلامية في الاتحاد السوفييتي» .

مما لا ريب فيه ان الاسلام ، وكذلك ما يحدده من الثقافة والتقاليد ونمط الحياة ، قد اثرت في هذه الشعوب وحضارتها على مدى قرون ، ولن تزول هذه التركة بين ليلة وضحاها . لكن غالبية المؤلفين الغربيين يقصدون بتعبير «الامم الاسلامية» الذى يصفون به الجمهوريات الشرقية السوفييتية ان الاهالى المحليين يبقون على ايمانهم بنشاط ، او فى كافة الاحوال يبقون متمسكين غاية التمسك بدين الآباء والاجداد . اما فى الواقع فان المجموعة الدينية في الشرق السوفييتى تتقلص باستمرار ، كما هى الحال على نطاق الاتحاد السوفييتى كله بغض النظر عن ماهية الدين . ويحدث هذا الشيء ذاته في جميع البلدان الصناعية ، سواء اكانت اشتراكية ام راسمالية . فمثلا ، فى فرنسا اغلقت مئات الكنائس الريفية لعدم وجود رعاة للابرشيات وكذلك الرعية انفسهم .

ان زيارة مسجد طشقند ابان اداء فريضة الصلاة تقنع المرء بان عدد المصلين يتضاءل ، بينما يزداد عدد المسنين من بينهم . ثمة عدد كبير من الشيوخ وعدد قليل من الشباب . وقال لى عبد النور لايف عضو مجلس شئون الاديان لدى مجلس وزراء الاتحاد السوفييتى : «ان مصطلح «الامم الاسلامية» خاطئ تماما . فسواء كان الامر فى آسيا الوسطى ام فى الاماكن الاخرى نجد فى العوائل مؤمنين وغير مؤمنين . والبعض يؤمن بينما لا يبالى البعض الآخر بالدين ، اما الفريق الثالث (ولا يشترط ان يكونوا شيوعيين) فيقولون لك انهم من الملحدين . وغالبا ما يكون تفكير الحفيد فى الدين مغايرا لتفكير ابيه او جده . . . والمرجح ان هذا الامر يشكل الصواب . ولا تتوفر الامكانية للحكم بدقة (لا توجد احصائيات كهذا نظرا لاعتبار الدين مسالة تخص كل

فرد على حدة) كم هو عدد المؤمنين فى الاتحاد السوفييتى ، لكن بنتيجة الاستفتاءات التى اجريت قبل عشر سنوات مضت يمكن - بصورة تقريبية طبعا - تكوين الصورة التالية : على نطاق الاتحاد السوفييتى كله يعلن ٢٠ شخصا من كل ١٠٠ شخص بالغ انهم من المؤمنين ، بينما يظهر ١٠ اشخاص «التردد» او لا يعلنـــون رايهم ، بينما يعلن ٧٠ شخصا منهم انهم غير مؤمنين . وفـــى الانحاء التى تسودها التقاليد الاسلامية تورد مؤشرات تختلـــف نوعا ما عن هذه الارقام بالرغم من انه يلاحظ فى الاعوام الاخيرة الاتجاه نحو تعادل المعطيات المتوسطة لعموم الاتحاد السوفييتى . وكانت النسبة فى بعض هذه المناطق كالتالى : اعلن ٣٠ بالمائة انهم من المؤمنين و٢٠ بالمائة من المترددين ، بينمـا قال ٥٠ بالمائة انهم لا يؤمنون بوجود خالق . وعدد المؤمنين كبير فـــى اوساط المسنين على الاخص . ويوجد فى الاتحاد السوفييتى فى الوقت الحاضر حوالى ٥٥ مليون متقاعد . وهم جميعـــا يتقاضون الرواتب التقاعدية ، الا انهم فـــى الجمهوريات الشرقيـــة بالذات غالبا ما يقدمون التبرعات الى المساجد» .

وبالرغم من ان اللامؤمنين - وفى مقدمتهـــم الشيوعيون - يحرصون على ألا ينتقص احد المشاعر الدينية للمؤمنيـــن ، الا انهم لا يقفون عندئذ موقف «المحايدين ايديولوجيا» . ومـــــن مفارقات الدهر ان العلاقات الممتازة بين ممثلى الاسلام والدولـة السوفييتية ، والموقف الثابت لرجال الدين الذين يدافعون عن المثل العليا السوفييتية والاشتراكية ، ويبشرون بحب واحتـرام القريب (مهما كان منحدره ومعتقداته) ، وكذلك بحب العمـــــل واحترام الملكية الاشتراكية ، تجعل بالذات من العسير بـــث الدعاية الالحادية . ويقال لدعاتها احيانا : «وما الضرر فيما يقوله رجال الدين ؟ انهم يدافعون عن الاتحاد السوفييتى والاشتراكيـة ويناضلون من اجل السلم !» .

وتنشر فى صحف آسيا الوسطى بين حين وآخر مقالات تتضمن معاجات تعارض اتجاهات بعض رجال الدين الساعيـــن الى بعث روح جديدة فى العادات الدينية الخالصة بحجة صيانة العزة القومية

العسير احيانا التمييز اى التقاليد «قومية» او «دينية» خالصة ؟ او تصوير التقاليد القومية التى يتمسك بها الجميع من مؤمنين او لامؤمنين باعتبارها اسلامية خالصة . والحق يقال ان من ذلكم هو وضع الامور فى اجراء الطقوس الجنائزية (توجد كالسابق مقابر اسلامية ويهودية ومسيحية) وحفلات الزفاف والختان (وجدت عادة الختان منذ فترة ما قبل الاسلام) ، وتقام فى العديد من المناطق بمشاركة عوائل باكملها عمليا ، بغض النظر عن وجود المؤمنين فيها او عدم وجودهم ، وغالبا ما يجرى هذا بدون طقوس دينية ومع توفير الضمانات الوقائية الصحية فى المستوصفات . ويقيم الشباب حفلات الزفاف «الكمسمولية» بدون مباركة دينية طبعا ، وفى غالب الاحيان رغم احتجاجات الجدة او الجد الغاضبين . بالمناسبة ، قد يحدث ايضا ان يعمد الاخيران الى تدبير الامر كما يريدان ، فيبحثان عن رجل دين يقوم (بغياب العريس والعروس وبدون علمهما) بعقد قرانهما امام الله . وثمة تقليد ترسخ فى الحياة كثيرا الى حد يجعل حتى الروس والالمان او اليهود الذين استقر بهم المقام فى آسيا الوسطى يتحسسون تأثيره عليهم — انه الاحترام الكبير الذى يبديه الاطفال للوالدين ، وبصورة عامة احترام الشبات للشيوخ . وهناك تقليد آخر — وهو آيل للزوال بيد انه ما برح قائما — يتمثل فى السلطة الكاملة لربة البيت فى عقر دارها حيث تعيش مع ابنائها وكنائنها واحفادها . وقد سخر من هذه العادة الكاتب الاوزبكى سعيد احمد فى مسرحيته «تمرد الكنائن» التى عرضت فى مسارح كثيرة بآسيا الوسطى . وتبدو فى المسرحية ربة بيت بدينة تجلس فوق وسادة كبيرة وبيدها عدادة ، تنهمك فى حساب اجور عمل ابنائها وكنائنها ، وتجادلهم بصدد ما ابقوه لانفسهم من مبالغ كمصروف جيب ، وتنتقد التنانير القصيرة جدا التى ترتديها اصغر الكنائن ، وترغم الجميع على تلاوة الصلاة قبل الطعام وتجدّ فى البحث عن قنانى النبيذ التى يجلبها الابناء الى البيت خفية . وتقول الام الى موفد الجريدة المحلية الذى جاء لكتابة مقالة عن الاسرة الاوزبكية ان كل فرد فى الاسرة مستقل بذاته وقد ولّت العادات الاقطاعية البالية مع الماضى . ويرد النظارة على العرض بالضحك العاصف ...

ثمة تقليد راسخ آخر في الشرق السوفييتي هو وجود عدد كبير من الاطفال في الاسرة : اذ يبلغ عدد «المسلمين» السوفييت اليوم ٤٥ مليون نسمة ، وطبقا لحسابات المختصين في الدراسات السوفييتية فان عددهم سيبلغ في نهاية القرن ٧٠-٨٠ مليون نسمة . ويتخذ هذا «الانفجار السكني بشكل طفرات» موضوعا لجميع الاحاديث بصدد «اختلال التوازن الداخلي» الذي يزعم بانه يهدد متانة صرح الدولة .

كان عدد سكان الاتحاد السوفييتي في عام ١٩٥٩ يعادل ٢٠٨ر٨ مليون نسمة . وفي عام ١٩٨٦ ازداد الى ٧ر٢٧٨ مليون نسمة . وبلغت الزيادة ٥ر٣٣ بالمائة في غضون ٢٧ عاما . وفي خلال هذه الفترة تضاعف عدد الطاجيك والازبيك والتركمان وكذلك الدونغان والاويغور بمقدار الضعفين . كما ازداد عدد القيرغيز والكازاخ والاذربيجانيين والشاشان والاينغوش والقره قلباق وشعوب داغستان بنسبة ٧٥-١٠٠ بالمائة . واذا ما كان متوسط معدل الزيادة في الفترة من ١٩٧٠ (احصاء النفوس السابق) الى ١٩٧٩ يعادل ٩ر٥ لكل ١٠٠٠ شخص لدى الروس ، فانه كان يعادل ٢٨ لكل ١٠٠٠ شخص لدى الاوزبيك ، و٢٩ لدى الطاجيك ، و٢٧ لدى التركمان ، و٢٣ لدى القيرغيز و١٧ لدى الكازاخ . ويرى س. بروك الاستاذ في معهد الديموغرافيا بموسكو ان وتائر النمو العالية جدا هذه اخذت تنخفض بشكل ملموس ، وليس بوسع اى مراقب جاد الاقدام على القول ان عدد السكان سيبلغ الرقم المذكور اعلاه الذي يورده بمثل هذه السهولة «المختصون» الآنفو الذكر لخدمة اغراضهم . بل ، بالعكس ، فان كل شيء يدفعنا الى الاعتقاد بانه ستحل فترة انخفاض نسبي . بالمناسبة ان زيادة السكان لا تقلق ابدا القادة السوفييت . ولو كان هذا مبعث قلق فبمَ تفسر اذن سياسة الدولة الرامية الى تشجيع انجاب الاطفال بكافة الوسائل الممكنة - بتوفير الامتيازات المادية الى العوائل العديدة الاطفال ، ومنح شارات الامتياز الى «الامهات البطلات» اللواتي ينجبن عشرة اطفال او اكثر ، واتخاذ غيرها من الاجراءات ؟ . .

وقال لى الاستاذ س. بروك : «ان مـــا يقلقنا ليس ولادة اطفال كثيرين جدا ، بل ان عدد المواليد غير كاف . ونحن نشعر فى كل مكان بالحاجة الى الايدى العاملة من اجل المصانع والمشاريع القائمة وكذلك من اجل تلك المزمـــع تشييدها ، وبالحاجة الى الرجال والنساء والاطفال من اجل توطينهم فى المقاطعات القليلة السكان ، وعلى الاخص فى سيبيريا . ولا تتسم باية اهمية عندئذ مسألة هل ان مواطنينا من السمر او الشقر ، من ذوى البشرة البيضـاء او السمراء ، وبعيون عادية او ضيقة بهيئة اللوز . . .» .

ثمة مشكلة قائمة ، لكنها تكمن فى امر آخر . انها تنبثق مـن الخاصية المميزة لساكنى الشرق السوفييتى فـى كونهم لا يحبون مغادرة مواطنهم . وبالرغم مـــن نداءات قادة الحزب الشيوعـى السوفييتى والدولة السوفييتية ، وبالرغم من توفير افضليات كثيرة الى الشباب من آسيا الوسطى الذيـــن يوافقون على السفر الى سيبيريا والشرق الاقصى والسكن هناك فان عدد الراغبين فـى الهجرة قليل جدا . وثمة نقص فى الايدى العاملة فـى اماكـــن كثيرة ، بينما هناك وفرة منها فى الاماكن الاخرى ، وبالاخص فى الواحات : اذ يبلغ متوسط كثافـــة السكان فى عموم الاتحـــاد السوفييتى ١ر١٢ فرد فى الكيلومتر المربع ، بينما يبلغ فـــى مقاطعة انديجان باوزبكستان ٨ر٣٤٣ فرد . وتتلقى كل عائلة مـن آسيا الوسطى تقرر الهجرة الى الشرق الاقصى مبلغ ١٢ الف روبل بهيئة قرض لغرض الاستقرار . ويجب ان يسدد هذا المبلـــغ بدون فوائد فى غضون ٢٠ عاما ، اما الذين يستقرون فى المكان الجديد نهائيا فيجب عليهم تسديد مبلغ الفى روبل فقط . وعلاوة على ذلك ففى العامين الاولين يعفى المهاجرون من دفع اجور الشقـــة والكهرباء والتدفئة . لكن الظروف المغرية الموفرة واجور العمـــل العالية لا تعطى النتائج المرجوة .

بالاضافة الى ذلك فان وضع الاسر الكثيرة الاطفال افضل فـى المناطق الريفية . اذ يتوفر لديها هناك بيت فسيح وحديقة ملحقة بالبيت تدر عليها موردا اضافيا ، وغير ذلك من وسائل الراحـــة التى كان يتمتع بها سابقا ابناء المدن فقط . باختصار ان سكـان

الارياف بآسيا الوسطى من رجال او نساء يفضلون العيش في المكان القديم حتى لو كانوا من خريجي المعاهد العالية ، وهو ما يحدث في غالب الاحيان ، اما الحافز المادى فهو غير كاف ، كما يظهر ، لكى يغيروا اذواقهم ويتركوا مواطنهم .

وقد نجم عن هذا حدوث شيء من التخلف في مستوى تمدن جمهوريات آسيا الوسطى وكازاخستان . ففى عام ١٩٨٢ كان عدد سكان المدن في عموم الاتحاد السوفييتى يعادل ٦٤ بالمائة (مقابل ٤٨ بالمائة في عام ١٩٥٩) من السكان . وفى عام ١٩٨٢ ذاته بلغ ٤٢ بالمائة لدى الاوزبيك (مقابل ٣٣ر٦ بالمائة في عام ١٩٥٩) ، و٤٨ بالمائة لدى التركمان (مقابل ٤٦ر٢ بالمائة بموجب احصاء النفوس في عام ١٩٥٩) ، و٣٤ بالمائة لدى الطاجيك (مقابل ٣٢ر٦ بالمائة) ، و٥٦ بالمائة لدى الكازاخ (مقابل ٤٣ر٧ بالمائة قبل عشرين عاما خلت ايضا) . وبالرغم من حدوث شيء من التطور فان هذه الظاهرة ما زالت السبب في عدم التوازن القائم : اذ يهيمن في عواصم جمهوريات آسيا الوسطى تحشد الافراد المنحدرين من القسم الاوربى للاتحاد السوفييتى ويتحسس وجود نقص في الكوادر العمالية المؤهلة المحلية في الصناعة .

وتكمن في هذا المشكلات الحقيقية : اذ يجأرون بالشكوى لقلة عدد العمال في المصانع وليس لكثرتهم . كما يجأرون بالشكوى ليس لكون اهالى القرى يهربون من المناطق الريفية ، بل لكون عدد الراحلين منها قليلا لا يكفى لتأمين الايدى العاملة الى المصانع القائمة ولبناء اخرى جديدة .

فهل يمكن تسمية هذا بعلائم وجود «ازمة» ؟ بالرغم من سوء استعمال الكلمات ولصق شتى اصناف التهم فان من الصعب على العائبين على النظام الاشتراكى اخفاء واقع ان المقصود عالم مغاير تماما .

ان العمل المشترك في المصانع والجامعات والمشاريع الانشائية والارزاء التى عانى منها الناس في ساحات القتال ابان الحرب العالمية الثانية والآمال المشتركة في بناء مستقبل جديد قد هدم الكثير من الحواجز بين البشر ، والتى كان يمكن ان تبقيها

الاختلافات فى المنحدر الاثنى واللغة والدين والتقاليد . وكانت الى جانب عوامل التقارب المتينة هذه وما برحت باقية عوامل اخرى مثل تعادل مستويات المعيشة وتطور الثقافة والتقدم فى العلم والتكنيك ونشوء الوعى الاجتماعى السوفييتى الموحد .

وقد شرح لى عالم السوسيولوجيا الموسكوفى المعروف البروفسور مقصود جونوسوف ، وقوميته اوزبكية ، قائلا : «تتالف نسبة ٩٥ بالمائة من فرق العمل فى طشقند من ابناء قوميات مختلفة . وفى عام ١٩٧٥ اجرى فى احد مصانع هذه المدينة استفتاء طريف . وورد بين الاسئلة فيه ما يلى : «ما الذى يؤثر فيك لدى اختيار الاصدقاء ؟ السن ؟ قرب مكان السكن ؟ مستوى التعليم ؟ الدين ؟ اللقاءات فى الوسط العائلى او خارجه ؟ القومية ؟» . وقد اتضح من الاستفتاء ان اختيار الاصدقاء وكثرة الاختلاط كانا يتوقفان لدى الاغلبية - سواء الاوزبيك والروس او ابناء القوميات الاخرى - على العلاقات الانسانية الشخصية ، التى نشأت فى سياق العمل او الحياة اليومية . ولم يذكر الدين ولا القومية فى الاجوبة باعتبارهما من العوامل الهامة . ورأى ٥ بالمائة فقط من الذين تم استفتاؤهم ان القومية تلعب دورا معينا فى اختيارهم . وكانت حصة الدين نسبة ١ر٥ بالمائة فقط» .

ان ما يطلق عليه السوفييتيون تسمية التقارب بين الشعوب يتجلى ايضا فى زيادة عدد الزيجات بين ابناء مختلف القوميات وفى مولد ملايين الاطفال فى هذه العوائل المختلطة . وفى نهاية الخمسينيات وجدت منها خمسة ملايين عائلة تقريبا من مجموع حوالى ٥٠ مليون عائلة سوفييتية ، اى نسبة ١٠ بالمائة .

وفى عام ١٩٧٠ بلغ العدد الاجمالى للعوائل فى الاتحاد السوفييتى ٦٠ مليون وفى الوقت نفسه ازداد عدد العوائل المختلطة بقدر اكبر من النصف ، - فازدادت من خمسة الى ثمانية ملايين عائلة . وكانت زيادة عدد الزيجات المختلطة فى آسيا الوسطى خلال الفترة المذكورة كالآتى : فى قيرغيزيا من ١٢ الى ١٥ بالمائة ، وفى اوزبكستان وطاجيكستان وتركمانيا - من ٨-٩ الى ١١-١٥ بالمائة ، وفى كازاخستان - من ١٤ الى ٢١ بالمائة .

ويؤكد المختصون في الدراسات السوفييتية طوال الوقت على ندرة الزيجات بين «المسلمين» و«الاوربيات» ، وبالاخص بين «المسلمات» و«الاوربيين» . وفعلا ، ان عدد الحالات التي تكون فيها الزوجة اوزبكية او تركمانية او طاجيكية - والزوج روسيا او اوكرنيا او يهوديا ، هو اقل . ومع ذلك يغدو عدد الزيجات المختلطة اكثر فاكثر من عام الى آخر . ولهذا فان الحجة التي كان يطرحها «المختصون» ابان حقبة طويلة ، والقائمة على اساس ما يسمى «عدم انفاذية» المجموعات الاثنية ، لم تعد لها اية اثباتات .

لكن كيف حال «المولدين» هؤلاء ؟ قالت الشابة ، مدرسة اللغة الالمانية في جامعة طشقند : «والدي اوزبكي ، بينما امي روسية . وانا اتحدث بطلاقة في كلتا اللغتين الام بالنسبة لي . وحين اكون في عائلة ابي اشعر كأنني اوزبكية تماما . وحين اختلط مع اقاربي الروس ، اشعر وكأنني روسية وانشد معهم الاغاني الروسية . وليست لديّ اية مشكلة من هذه الناحية ، ربما لانني اعتبر نفسي سوفييتية قبل كل شيء» .

ويعيش باطير دياروف وزوجته فالنتينا في بيت مؤلف من خمس غرف يقوم على الطرف الشمالي لمدينة طشقند . ويعملان كلاهما مهندسين في المطبعة . وهو اوزبكي ، بينما هي اوكرانية ، من اقليم بولتافا . وقد التقيا حينما كانا يدرسان بمعهد الطباعة في لفوف . واسم ابنتهما (١٨ عاما) هو ايلميرا (والاسم المذكور يروق للسامع الاوزبكي والاوربي) . وهي تدرس في المعهد وستصبح مهندسة في صناعة النسيج . اما ابناهما التوأمان ففي سن ١٢ عاما . وهما ما زالا تلميذين في المدرسة . وفي العوائل «الاسلامية» غالبا ما يكنى التوأمان باسمين منسجمين متناغمين . وقد اطلق على هذين الشقيقين اسما تيمور وارتور ، واحدهما شرقي والآخر اوربي .

وفي عائلة خالقوف بمدينة الما-آتا الزوجة كازاخية وتعمل عاملة لحام في مجمع بناء المساكن . اما الزوج فهو روسي اصله من تشيليابينسك ، ويعمل مهندسا ميكانيكيا في المصنع المذكور ، حيث يعمل اكثر من سبعة آلاف عامل وموظف . فهل كانت ثمة مشاكل في هذا الزواج ؟ قال الزوج : «ربما في البداية ، لم يكن

العجوزان فى غاية الفرح . لكن حدث هذا قبل عشرين عاما مضت . ولو جرى هذا اليوم لكان الامر اكثر يسرا بقدر كبير . وفى نهاية المطاف تقبلونى وصاروا الان يحبوننى لا اقل ولربما اكثر من اولادهما» . والزوجة تتحدث بالروسية اما الزوج فيفهم اللغة الكازاخية جيدا : «حين لا افهم عبارة ما فى البرنامج التلفزيونى تقوم زوجتى بشرحها لى . . .» . وتضم العائلة ابنتين كان يتعين عليهما اختيار قوميتيهما . وروى الاب : «قالت لنا الاولى واسمها جنات – وهو اسم كازاخى : – «اننى اشعر بكونى روسية» (فاختارت هذه القومية بالذات) . اما الاخرى واسمها ناتاشا فاجابت : «وانا اشعر بكونى كازاخية» . فقلنا ، انا وزوجتى لهما : «هذه المسألة تخصكما وحدكما ، يا ابنتينا ، والشىء الاساسى هو سعادتكما . . .» .

الخاتمة

كتب اقتصاديان في كتاب * مكرس للعلاقات الاقتصادية غير المتكافئة بين البلدان الراسمالية المتطورة والبلدان النامية : «لم يحدث ابدا خلال وجود ما نسميه بالعالم ان كان عدد الاميين من الرجال والنساء كبيرا كما هى الحال اليوم . ولم يقض الجوع ابدا على مثل هذا العدد من الناس . ولم يكن الاجحاف فى ظروف الحياة ابدا بمثل هذه الجسامة ، ولم يوجد ابدا عدد لا حصر له من الامهات والاطفال المحرومين من اى علاج طبى» .

واليوم يبلغ عدد سكان الكرة الارضية اكثر بقليـــل من ٥ مليارات نسمة . وفى عام ١٩٨٦ توفى بسبب الجوع ١٦ مليون شخص . وكان ٨٥٠ مليون شخص يعانون من نقص التغذية بشكل خطير ، كما لحق نموهم العقلى ووضعهم البدنى اذى شديد . وفى ايامنا يبلغ مستوى وفيات الاطفـــال فى بلدان «العالم الثالث» المستوى ذاته الذى كان فى اوربا عام ١٥٧٠ : اذ يموت ١٥٦ من كل ١٠٠٠ طفل بسبب الجوع دون ان يبلغوا العاشرة من العمر . ويعانى من نقص التغذية ٢٨ بالمائة من سكان آسيا و١٣ بالمائة من سكان امريكا اللاتينية و٢٥ بالمائة من مجموع ابناء افريقيا .

وينبغى ان نضع فى اذهاننا هذه الصور الواقعية للعالم القائم من اجل ان نقيم الاهمية العظمى للخبرة السوفييتية وقيمتها الآنية . ولغرض ادراك مصدر الالهام ، الذى ما برح يمثله بالنسبة الى جميع الذين حكم عليهم «العالم الحر» ، كما يبدو ، والى الابد بمعاناة العيش فى الاكواخ البائسة وبالتشرد وبالاذلال .

---

* المقصود كتاب ل . كوندامن وج . كافانتان «من» يخاف مـــن «العالم الثالث» ؟ باريس ، ١٩٨٠ — المحرر .

وبالمناسبة هل يمكن التحدث بجد عن التقدم وعن حماية حقوق الانسان وعن الحرية اذا لم تتوفر الظروف التي يجب ان تحرر مئات ملايين الناس ، عملا وليس قولا ، من العبودية والجوع والجهل والخوف من يوم غد ؟ وهل يمكن القيام بذلك دون ان يوضع موضع التساؤل بحزم صواب النظام الذى لا يمكن ان يحيا ويبقى على قيد الحياة الا ببقاء جنى الارباح بصفته قانونه الحديدى ؟

وغنى عن البيان ان آسيا الوسطى السوفييتية لا تطرح نفسها كنموذج عام يحتذى به . اذ توجد فى كل بلد ظروف خاصة تضطر الى البحث عن اجوبة لها ، كما ان العالم هو غير ما كان عليه فى عهد ثورة اكتوبر . لكن كيف يمكن الا يرى واقع ان التجربة السوفييتية هذه – مهما كانت الصعوبات واحيانا الاخطاء التى رافقتها – بوسعها ان تغدو القدوة وان تبعث الآمال الواقعية ؟

ويبرهن تقدم المستعمرات القيصرية السابقة ، مما جعلها تقف فى مصاف الامم الصناعية الحديثة العالية التطور من الناحيتين التكنيكية والثقافية ، على ان ابناء «العالم الثالث» غير محكوم عليهم البتة بفعل قوة قدرية تاريخية ما فى البقاء «كبشر منحطين» جهلة ، غير قادرين سوى على استخراج المواد الخام من باطن الارض او زراعة هذه المواد فى الحقول من اجل البلدان المسيطرة «المتروبول» ، والتى تحتاجها الاخيرة .

ولقد اقتنع الاوزبيك والطاجيك والتركمان والقيرغيز وكذلك الروس والاوكرانيون والمولدافيون وملايين السوفييتيين من ابناء القوميات الاخرى منذ امد بعيد ، عملا ، خلال المحن التى دهمتهم سوية وما حققوه من نجاحات معا ، بان تحسين مستوى معيشتهم ، واغناء ثقافتهم القومية ، وتعميق الديمقراطية تنسجم جميعا فى مشروع واحد على نطاق الاتحاد السوفييتى كله . انهم يستطيعون ويودون اليوم ، ودون التخلى عن خصوصيتهم ، التفكير **كسوفييتيين** فقط شغلهم الشاغل مستقبل المجتمع السوفييتى كله قبل كل شىء ، وليس المصالح المحدودة بالاطر الضيقة لمنطقتهم ومجموعتهم الاثنية او جمهوريتهم . والعمل المشترك لخير الجميع وكل فرد يفند الاسطورة حول الاتجاهات «النابذة» التى يزعم انها تهدد وجود الاتحاد السوفييتى . «من سنكون خارج الاتحاد السوفييتى ؟ وما

هو مصيرنا عندئذ ؟ لربما سيكون مصير بعض الامارات الخاضعة لسلطة اساطين النفط ، ومصير البيادق فى ايدى الشركات المتعددة الجنسيات على لوحة الشطرنج العالمية ؟ ام سيحل بنا مصير ما يسمى «الدول المستقلة» فى امريكا الوسطى التى تكون الكلمة الفصل فيها لسفير واشنطن ؟ ان مثل هذه الكارثة لا نراها حتى فى الكوابيس . . .» . يمكن ان يسمع المرء مثل هذه التساؤلات فى كل مكان حين يزور جمهوريات آسيا الوسطى ، اذا ما خطر بباله فتح مناقشات حول هذا الموضوع .

لكن هل يعنى ذلك انه لن تنبثق اية مسائل معقدة او اية صعوبات هناك حيث يتجاور مثل هذا العدد من المجموعات الاثنية والامم المختلفة ؟ لقد عولجت فى آسيا الوسطى القضايا الاساسية المتعلقة بعدم التطور والاجحاف الاستعمارى سابقا ، بيد ان الحياة تطرح باستمرار قضايا جديدة وتطالب بجواب عنها . وما كان الدرب من «سجن الشعوب» (تسمية روسيا القيصرية عهد ذاك)—الى المجتمع الاشتراكى ، ومن الريبة والبغضاء الشاملتين بين الاقوام – الى التعاون الودى ، ومن الطغيان – الى احلال واستكمال الديمقراطية الاشتراكية ، ومن ظلامية القرون الوسطى – الى اسمى الثقافات – ما كان هذا الدرب ، ولا يزال كالسابق ، مستقيما تماما مثل شارع نيفسكى * ، اذا ما استخدمنا مقولة لينين الشهيرة .

وقال ميخائيل غورباتشوف السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى فى المؤتمر السابع والعشرين للحزب : «يجب ان لا تخلق انجازاتنا تصورات حول كون العمليات القومية خالية من المشاكل . فالتناقضات امر يميز كل تطور ، ولا مناص منها فى هذا الميدان ايضا . والشىء الاساسى – رؤية جوانبها وابعادها المنبثقة باستمرار ، والبحث واعطاء الاجوبة الصائبة فى الوقت المناسب عن الاسئلة التى تطرحها الحياة» . ان هذه الكلمات تدل على الواقعية التى تعتمد فى الاتحاد السوفييتى لدى معالجة المسائل التى تقلق جميع الجمهوريات السوفييتية وتحدد مستقبلها المشترك .

---

* الشارع الرئيسى فى لينينغراد . – **المعرب** .

ان هذا المستقبل يرتبط بصيانة السلام وتعزيزه ، وهو ما لا ينساه لحظة واحدة القادة السوفييت وجميع المواطنين . ويتوقف على التعايش السلمي ونزع السلاح ، الذي يمكن ان يوفر طاقات لا حصر لها وان يخزن ثروات ضخمة ، - ويدرك هذا الامر كل فرد ادراكا شديدا - التحقيق العاجل بقدر اكبر لجميع الآمال العظيمة : في حياة اوسع واكثر انطلاقا واكمل ، واقامة مشاريع اكثر جرأة ، وبناء منشآت اعظم واكثر عددا ، وافتتاح جامعات اكبر ، وشن هجوم اقوى على الصحراء ، واطلاق سفن فضائية جديدة الى الفضاء ، وممارسة تعاون مع جميع الامم بروح ثقة اكبر وبمردود اعظم .

والقناعة بهذا قوية ومكثفة الى حد انه يتراءى للمرء ان الجو مشبع بها في عشق آباد ودوشانبه وألما-آتا وفرونزه او طشقند .

ولربما كان هذا السبب في ان عبارة «السلام عليكم» الموغلة في القدم والتي يسمعها الزائر الاجنبي في دروب آسيا الوسطى السوفييتية ، العتيقة والحديثة في آن واحد ، تتسم بمغزى عميق جدا ، وكأنها دعوة حارة الى السلام ، ويد ممدودة الى جميع الناس ذوي الارادة الطيبة بغية حماية كل ما خطط لانجازه من خطر الدمار .

المحتويات

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب ، وترجمته ، وشكل عرضه ، وطباعته واعربتم لها عن رغباتكم .

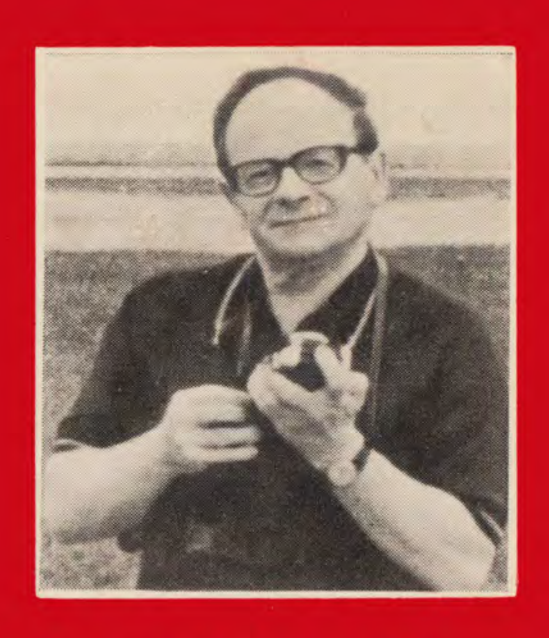
العنوان : زوبوفسكي بولفار ، ١٧
موسكو — الاتحاد السوفييتي



طبع فى الاتحاد السوفييتى



انطباعات عن الاتحاد السوفييتى



ولد هنرى اليغ (هارى سالم) فى لندن عام ١٩٢١ . وعاش فترة طويلة فى الجزائر حيث شارك منذ فتوته فى النضال الوطنى التحررى للشعب الجزائرى ضد المستعمرين الفرنسيين . وتولى رئاسة تحرير الصحيفة اليومية «الجيه ريبوبليكين» ، التى غدت الصحيفة الناطقة باسم جبهة التحرير الوطنى . وفى عام ١٩٥٧ ، وبعد فترة عامين من العمل السرى ، القى المستعمرون القبض عليه ، وجرى تعذيبه وحكم عليه بالسجن لفترة ١٠ اعوام . ولكنه هرب منه بعد مضى ٥ اعوام . وحين نالت الجزائر استقلالها تولى مجددا منصب رئيس تحرير «الجيه ريبوبليكين» . ويعيش هنرى اليغ ويعمل فى فرنسا منذ عام ١٩٦٥ .

الف هنرى اليغ كتب : «استجواب تحت التعذيب» و«مقاتلون فى الاسر» و«دروب الامل» و«النجدة ، امريكا» .

وقد نشر كتابه «نجمة حمراء وهلال اخضر» باللغات الفرنسية والانجليزية والروسية . ومنح هنرى اليغ عدة جوائز ادبيــــة وصحفية .

دار التقدم . موسكو